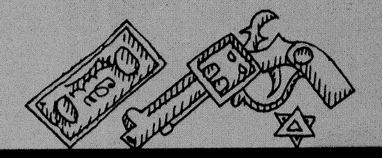
روجيه جارودى

أمريكا طليعة الانحطاط



تقديم كامل زهيرى

تعريب عمرو زهيرى

دار الشروق



أمريكا طليعة الانحطاط

الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م
الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م

© دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤
هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

روچيه جارودى

أمريكا طليعة الانحطاط

تقديم كامل زهيرى
تعريب عمرو زهيرى

دار الشروق

روچيه جارودى
شاهد القرن العشرين

فى ١٧ من يوليو عام ١٩٩٨ بلغ روچيه جارودى الخامسة والثمانين. وهذا الكتاب الجديد هو كتابه السابع والخمسون. وفى هذا الكتاب «أمريكا طليعة الانحطاط. كيف نعدّ للقرن الواحد والعشرين» ثقافة موسوعية ورؤية ثاقبة، تعكس حياة عميقة عريضة، مليئة بالفكر والمصاعب، والعمل والمعارك، جعلت من روچيه جارودى بحق شاهدا على عصره، بل وشاهدا على القرن العشرين.

فقد ولد روچيه جارودى قبل عام من الحرب العالمية الأولى فى مارسيليا عام ١٩١٣. وكان أبوه المحاسب قد أصيب فى الحرب الأولى وعاد معوّقا. واستحق روچيه الصغير مجانية التعليم لهذا السبب، رغم استحقاقه لها لنبوغه المدرسى المبكر. وقد حارب جارودى بدوره فى الحرب العالمية الثانية وهو فى السادسة والعشرين. ولكنه نقل من الجبهة الأوروبية إلى شمال إفريقيا لآرائه السياسية. واعتقل ٣٢ شهرا، ولم يفرج عنه إلا بعد نزول القوات الأمريكية فى شمال إفريقيا. وعمل جارودى فى الجزائر مديرا لتحرير مجلة «ليبرتيه» أو الحرية، ومذيعا فى «راديو فرنسا»، ولكن السلطات الفرنسية أبعدته عن الجزائر، بعد احتجاج غاضب من روبرت مورفى ممثل أمريكا فى الجزائر حينذاك، لأن

جارودى هاجم فى مجلته «ليبرتيه» أمريكا لتباطئها فى فتح الجبهة الثانية فى أوروپا. وانتقل من الجزائر إلى تونس.

وقد روى لنا جارودى مرتين أطرافا من حياته أيام الشباب. الأولى فى رواية من تأليفه، اختار لها بالقصد عنوان «آنتى»، أحد أبطال الأساطير الإغريقية. ثم عاد إلى اعترافاته مباشرة فى مقدمة كتاب سياسى أصدره عام ١٩٦٨، وذلك العام شهد فى پاريس أحداث الطلاب وإضراب العمال وسخط المثقفين واستقالة ديجول، وغزو السوڤييت لبراغ، وتصاعد أزمته مع قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى، وقد انتهت إلى فصله فى فبراير عام ١٩٧٠.

ولكننى أمام تلك السيرة المليئة بالأحداث والمسيرة الغنية بالمواقف توقفت أولا ـ وكثيرا ـ عند لحظة لها دلالة عند اعتقاله فى صدر الشباب. خلال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١. وكان جارودى فى الثامنة والعشرين. وقد رواها لنا فى كتاب ثالث: «حوار الحضارات»، وفى مقدمة طبعته العربية قائلا:

«كان أول احتكاك فى حياتى الشخصية مع الإسلام احتكاكا برجال أعتبر نفسى مدينا لهم بحياتى.

ففى الرابع من مارس عام ١٩٤٠، كنا نحو خمسمائة مناضل من المعتقلين والمسجونين. لأننا كنا نقاوم الهتلرية. ونقلنا جميعا إلى «جلفة» جنوبى الجزائر.

وكانت الحراسة علينا فى المعتقل مشددة، إذ تحيطه الرشاشات والأسلاك الشائكة. وفى ذلك اليوم، وبالرغم من أوامر قومندان المعسكر، وهو فرنسى، نظمنا مظاهرة ـ داخل أسوار المعتقل ـ على شرف رفاقنا من قدامى المتطوعين فى الفرقة الدولية الإسپانية (ضد فرانكو).

وأثار عصياننا حفيظة قائد المعسكر. فاشتعل غضبا. وأنذرنا بأنه سيأمر بإطلاق النار علينا مالم نعد إلى خيامنا فورا. وأنذرنا ثلاثا. ولكننا مضينا فى عصياننا. فأصدر القومندان أمره إلى الجنود حاملى الرشاشات بإطلاق النيران. وكانوا جنودا من جنوبى الجزائر. ورفض الجنود أن يضغطوا على الزناد! وهددهم القومندان الغاضب بكرباجه. ولكنهم أصروا على رفض أوامره!!».

ويقول جارودى عن تلك اللحظة التى لم يتوقعها:

« وما أجدنى حيا إلى الآن إلا بفضل هؤلاء المحاربين المسلمين».

« فقد أوضح لنا أحدهم سبب رفضهم إطاعة أوامر القومندان، بقوله:

ليس من شرف المحارب أن يطلق الرجل المسلح ناره على أعزل».

وأحسب أن تجربة تعرض جارودى للموت وهو فى الثامنة والعشرين هزت أعماقه هزا. وهى تكاد تشبه تجربة الروائى الروسى فيودور دوستويفيسكى عندما صدر عليه حكم بالإعدام. وقبل التنفيذ بدقائق، وصل قرار بالعفو من القيصر.

وقد تكشف رؤية الموت المحقق للإنسان أسرار الحياة فى لحظة.

فلقد روى روچيه جارودى هذه التجربة العنيفة التى هزته، فى مقدمة كتابه «حوار الحضارات» قائلا:

«وبدءاً من هذه التجربة، أخذت منذ إطلاق سراحى فى الجزائر، ثم فى تونس أدرس الإسلام.

ثم نشرت عام ١٩٤٥ فى الجزائر رسالة أولى، كان عنوانها: «إسهام الحضارة العربية التاريخى فى الحضارة العالمية» ـ مطبوعات ليبرتيه.

وقد أعقبت تجربة التعرض للموت ثم النجاة؛ تجربة أخرى أو حادث آخر كان له أيضا مغزى عند جارودى. حين انتقل من الجزائر إلى تونس. وهناك قدمه عميد الزيتونة فضل بن عاشور لجمهور غفير، وكان يترجم

محاضرته من الفرنسية إلى العربية. وانتهت محاضرته عن الحضارة العربية بطرده وإبعاده عن تونس، بأمر «ماست» المقيم العام الفرنسى الذى اتهمه بالدعاية المعادية لفرنسا!

وكان جارودى قد استند فى محاضرته عن «فضل الحضارة العربية» إلى حوار وضعه الروائى الفرنسى أناتول فرانس فى كتابه «الحياة المزهرة». ويقول أناتول فرانس فى حوار خيالى فى ذلك الكتاب:

«سأل السيد دوبوا» مدام نوزيير عن أشأم يوم فى تاريخ فرنسا.

وكانت لا تعرف.

فقال لها دوبوا:

إنه يوم معركة «پواتييه»

فقد تراجع العلم والفن والحضارة العربية عام ٧٣٢، أمام الهمجية الفرنجية.

وعقب تلك المحاضرة، أصدر المقيم العام الفرنسى قرار الإبعاد. فقد كان ممنوعا فى عهد الحماية الفرنسية على تونس ذكر الحضارة العربية أو دورها فى تاريخ الحضارات الإنسانية.

ولقد ظلت مفاجأة المعتقل فى الجزائر، وحادث الإبعاد عن تونس، وقصة معركة پواتييه، لاتبارح روچيه جارودى.

فكيف له ـ كما يقول بعد ذلك فى عدة كتب ـ وقد نال أعلى الدرجات الجامعية وهى الأجرجاسيون فى الفلسفة، ولم يحدثه أحد عن حضارة «أخرى» استمرت فى التاريخ، **وكان لها فضل نقل الفكر الإغريقى إلى أوروبا عن طريق إسپانيا وصقلية(*) !**

(*) على الأقل من وجهة النظر الأوروبية.

ولماذا تُدرَّس الفلسفة فى كبرى وأعرق الجامعات الأوروپية بينما الغرب يتركز على ذاته، ويفترض ثم يفرض أن ما خلا الحضارة الأوروپية لا شىء، والحضارة الأوروپية كل شىء. بل هى حضارة الإنسانية كلها؟!

ولسوف نشهد مرارا عند جارودى بعد ذلك فى عديد من كتبه، ذلك الوقوف والمقارنة بين معركة پواتييه فى غرب أوروپا ومعركة ماراتون بين الإغريق والفرس قبل الميلاد، مع الفارق الكبير فى المكان والزمان.

وقد نشر روچيه جارودى حتى الآن تسعة كتب عن «حوار الحضارات» لإيمانه بأن الحضارات الأخرى غير الأوروپية، فيها من الكنوز الفكرية والقيم الدينية والاكتشافات العلمية والآثار الفنية، ما يحتاج إلى الدرس والفهم والحوار. وليس الدرس متحفيا من أجل المتاحف، أو من فضول الاستشراق والبحث عن الغرائب والطرائف، أو لمجرد الولع ببحث تاريخى موسوعى يستقصى الأسرار والدقائق كما تفعل الموسوعات. ولكنه بحث غايته - كما يجب أن تكون غاية البحث - أن يكتشف الإنسان فى كل حضارة إنسانية عبر التاريخ إنسانية الحضارة. أى البحث عن «الروح» و«الغايات».

وبين كتبه التسعة التى تعرض فيها للثقافات والحضارات، كانت الباكورة عن الحضارة العربية الإسلامية عام ١٩٤٦، ثم كتابه عن «الصين» عام ١٩٦٧، ثم «حوار الحضارات» عام ١٩٧٧، و«لكى يصبح الإنسان إنسانا» و«وعود الإسلام» عام ١٩٧٨، ثم «الإسلام يقطن فى مستقبلنا» عام ١٩٧٩، و«فلسطين والرسالات المقدسة» عام ١٩٨٦، ثم «المسجد مرآة الإسلام» ١٩٨٧.

وجارودى يتحدث عما أسماه «الفرص الضائعة» أمام الغرب. **«فلقد افترى الاستعمار الإنجليزى والإسپانى والفرنسى، فيما قام به فى أرض**

الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراء منهجيا لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية».

ويقول فى «حوار الحضارات ص ٩٧ :

«وإن ما يطلقون عليه اسم «غزو إسپانيا» لم يكن غزوا عسكريا. فلقد كان عدد سكان إسپانيا فى ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة. ولم يزد عدد الفرسان العرب فى الأرض الإسپانية على سبعين ألفا. وإنما لعب التفوق الحضارى دورا حاسما.

وعندما رحل الراهب الفرنسى جربير للدراسة فى جامعة قرطبة، عاد منها وقد بلغ من العلم مبلغا.

إننا ندين للعلم العربى بكليات الطب الفرنسية الأساسية، وقد كانت مونبلييه فى طليعتها. وظلت كتب الطب العربية مثل كتب «الرازى» الشهيرة تنشر وتدرَّس حتى القرن السادس عشر فى فرنسا، وحتى منتصف القرن التاسع عشر فى إنجلترا.

وقد عرفوا الجبر بأكثر مما نعترف لهم به. والشاعر عمر الخيام الذى عاش حوالى سنة ١١٠٠، توصل إلى حل معادلات الدرجة الثالثة، باستخدام نفس الطريقة التى سيستخدمها «ديكارت» بعد خمسة قرون. وبذلك وضع أسس الهندسة التحليلية. وظل كتاب الجبر الكبير الذى ألفه عمر الخيام وترجم إلى الفرنسية مرجعا معتمدا حتى عام ١٨٥٧».

وجارودى يتوقف فى كتبه مرات عديدة عند دور ابن خلدون والرازى وابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس وأحمد بن ماجد والإدريسى وغيرهم، ويقول: فى «حوار الحضارات»:

«بينما كان الغرب لا يعرف فى علم التاريخ غير التأريخ، وتسجيل الأحداث، جمع ابن خلدون بين الملاحظة الشخصية لرجل السياسة

والتأمل النظرى، فتحدث عن تأثير المناخ والجغرافيا والظواهر الاقتصادية فى حياة الشعوب. وتميز ابن خلدون بالمنهج السببى فى التاريخ، وسبق مونتسكيو وميكيافيللى، ثم تميز بروحه التى تبحث وراء الظواهر عن الأسباب».

ويقول فى «وعود الإسلام»:

بلغ الطب الإسلامى ذروته منذ القرن الثامن، بينما كانت الكنيسة المسيحية قد جمّدت منظور الطب. ففى مجمع لطران عام ١٢١٥ قرر البابا أونيسان الثالث « **أن يحرّم على كل طبيب علاج أى مريض مالم يعترف أولا، لأن المرض فى الأصل هو نتيجة ارتكاب الخطيئة**».

ولذلك لم تكن كلية الطب فى جامعة پاريس تملك أى مؤلف فى الطب يلخص علومه من العصور القديمة حتى عام ٩٢٥ مثل كتاب الرازى (٨٦٥ـ ٩٢٥)، الذى ظل العمل العلمى المعتمد خلال عشرة قرون، وطبعت منه أربعون طبعة ما بين عامى ١٤٩٨ و١٨٦٦ . وظل ذلك مرجعًا نحو ألف عام حتى كلود برنار، وقد ترجم فاراجو كتاب الرازى إلى اللاتينية عام ١٢٧٩ .

ويقول: فى « حوار الحضارات» :

«وعندما كانت أوروپا غير قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة، افتتح الخليفة المأمون فى بغداد بمساعدة جيش من الكتاب والمترجمين مكتبة ضخمة هى «دار الحكمة»، وكان يحفظ فيها جميع آثار الحضارات القديمة. وكان للحاكم ــ أحد الخلفاء الأمويين ــ مكتبة فى قرطبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم ــ والحكيم يعنى العالم ــ إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون.

بيد أن العرب لم يقتصروا على إحياء الثقافة القديمة، وإنما أسهموا إسهام إبداع ضخم فى الثقافة العالمية.

ومن شأن اكتشافاتهم الكبرى أنها ترتبط بطبيعة نظامهم الاقتصادى ذاته. فقد سعوا وهم يقيمون إمبراطورية تجارية إلى تنمية التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الأمام بتأثيرهم. وحملهم جوب البحار واجتياز الصحارى على أن يجيدوا معرفة الجغرافيا الفلكية. وقد بنوا المراصد الأولى فى العالم، فى سمرقند، ودمشق، وبغداد، والقاهرة وقرطبة.. وفى القرن الثانى عشر، تنطلق خرائط الإدريسى من أن الأرض كروية.

.. ولقد أذهلت ريادة ماركو بولو الغرب. والثابت أن مؤلفا عربيا تحدث سنة ٨٣١، أى قبل ماركو بولو بـ ٤٢٥ سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون، بل بلغ فيها بلا ريب إلى كوريا واليابان.

وقد وضع مسلم ـ أحمد بن ماجد ـ كتابا عن الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين».

* * *

ويتحدث جارودى أيضا عن ابن سينا المولود فى بخارى عام ٩٨٠، وكتابه فى الطب الذى ترجمه جيرار دى كريمون إلى اللاتينية. وقد ظل ذلك الكتاب حتى عصر النهضة هو موسوعة الطب «لصفاء فكره فى تصنيف الأمراض والدراسة المنهجية».

وكذلك الفلكى المهندس عالم البصريات، ابن الهيثم، المولود فى البصرة عام ٩٦٥، والمتوفى فى مصر عام ١٠٣٩، فلم يتردد روچر بيكون الذى تعلم فى الجامعات الإسلامية فى إسپانيا فى نقل الجزء الخامس من مؤلفه على أنه «ريادة فى المنهج التجريبى والعلم الحديث».

ويقول جارودى فى كتابه «الإسلام يقطن فى مستقبلنا» (الطبعة المزودة بالصور) ص ٨٧ :

«هذه أول أسطورة للمركزية الأوروبية، ولابد من تبديدها. فلقد أثرت الحضارة العربية الإسلامية خلال ألف عام فى الماضى، وأعدت للمستقبل. وكان ذلك عبر إسپانيا وصقلية».

وتأثير الحضارة العربية الإسلامية تحقق بترجمات اللاتينية للأعمال الإبداعية الإسلامية الأصيلة فى طليطلة، وقام بترجمتها المطران ريمون (١١٢٦ ـ ١١٥١) بدعوة من ألفونس السادس، كما قام بها ملك صقلية الذى ترجم فى عهده كتاب الحيوان لابن سينا، وتعليقات ابن رشد على أرسطو ليصل بها إلى جامعات الغرب.

كانت هذه الأعمال القادمة من إسپانيا وصقلية تحولا، ولذلك يرفض أن يعتبر أوروپا مركز كل التاريخ، قائلا إن التطور الإنسانى كل، ويرفض أن يعتبر الفترة من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر كانت مجرد «ثقب أسود» بل كانت ذروة، لأن النهضة الأوروپية لم ترث مباشرة تعليم الحضارة الإغريقية، والمسيحية ليست امتدادا للعبقرية الهلينية، ولم يكن سان توماس خليفة أرسطو، وجاليليو لم يطور العلوم فى القرن ١٧ التى توقفت بعد موت أرشميدس فى القرن الثالث قبل الميلاد.

* * *

وأتذكر الآن عام ١٩٦٦ حين زار القاهرة أندريه كاريل رئيس تحرير «الأومانيتيه» جريدة الحزب الشيوعى الفرنسى، العدد الأسبوعى، مع أتيين فاجو رئيس تحرير العدد اليومى، وكان اللقاء فى دار الهلال فى مكتب أحمد بهاء الدين، حين قلت لكاريل :

ـ إن القراء فى مصر والبلاد العربية يتابعون بشغف مايكتبه روچيه جارودى.

وقد لمحت أن السعادة لم تبد على وجه أندريه كاريل، فقلت مستأنفا:
إن روچيه جارودى من الذين كتبوا عن فضل الحضارة العربية، وهو الذى كشف لى ابن خلدون فى عام ١٩٥٠ .
ولكن كاريل لم يتكلم ورمقنى بنظرة انتظار [١]، فقلت:
إن ابن خلدون له قيمة عظيمة عندنا، ولنا . وأذكر أن دكتوراه مفكرنا الكبير الدكتور طه حسين كانت فى پاريس عن ابن خلدون. وأذكر أيضا أن چورج داڤى عميد كلية الآداب بجامعة السوربون عام ١٩٥٠ كانت رسالته عن ابن خلدون أيضا.
فقال فاجون:
ـ وما كتاب جارودى هذا؟
قلت:
ـ لقد طبعته «دار النشر الاجتماعية» عام ١٩٦٤، وهى دار نشركم فى پاريس.
فقال أندريه كاريل:
إن جارودى مفكر كبير بلا شك. ولكن زملاءه يعيبون عليه فى اللجنة المركزية هذه الاهتمامات التى تأخذ عليه كل قلبه وعقله ووقته.
وبقيت صامتا. . أنظر.
فقال أندريه كاريل:
إن زملاءه . . (وضغط كاريل على كلمة زملائه) . . إن زملاءه يعيبون عليه أنه أصبح هذه الأيام يهتم بتطورات الكنيسة اهتماما لا يفهمون له سببا.

---

(١) مقال فى المصور عام ١٩٦٤، وفصل عن جارودى فى كتابى «العالم من ثقب الباب» (١٩٦٨ و١٩٧٠) بعنوان «لم يعد الصمت ممكنا».

ولقد دخل جارودى على أعضاء اللجنة المركزية ذات يوم، وهو يلهث، ويتصبب عرقا من الفرح.

وقال لهم:

ـ عندى نبأ خطير سوف يهز عالم الفكر وحياة المفكرين!

فالتفت إليه زملاؤه الأعضاء وتربصت به الأنظار انتظارا أو استنكارا.

وقال جارودى:

ـ لقد أعلن الفاتيكان اليوم قرار العفو عن العالم جاليليو.

(وهو الذى أصدرت الكنيسة حرمانه عام ١٦٣٣ بسبب اكتشافاته العلمية لتأييده فكرة كوبير نيكوس حول دوران الأرض).

وحدجه الحاضرون بالنظرات. وقال أحد الأعضاء فى رنة ساخرة ما معناه:

«ما هو بدرى»!

وحين حكى أندريه كاريل هذه القصة ضحك أيضا، وضحك معه أتيين فاجو رئيس التحرير العجوز.

ولكننى لم أشارك فى الضحك، لأننى كنت أترجم فى مجلة الهلال ـ عام ١٩٦٦ ـ فصلين من كتاب «واقعية بلا ضفاف» عن پيكاسو وفرانز كافكا، وهو الكتاب الذى وصفه الشاعر أراجون فى مقدمته بأنه حدث ثقافى خطير، لأنه ينتقد الواقعية الاشتراكية من منظور المفكر الستالينى زوانوف[1].

* * *

---

(١) مقالان فى روزاليوسف (فبراير ١٩٧٠) عن جارودى وفصله من الحزب الشيوعى الفرنسى.

وقد وصف جارودى أزمته مع قيادات الحزب الشيوعى الفرنسى، وخاصة بعد أحداث عام ١٩٦٨، وقد زار تشيكوسلوڤاكيا عشرين مرة، وكان عند دخول السوڤيت فى براغ عام ١٩٦٨ .

* * *

ونحن أمام كاتب موسوعى وأستاذ فلسفة وقارئ محترف. لأنه قرأ كل أعمال ماركس كما يقول فى عامين ولخصها على كروت. وعاش عاما فى الاتحاد السوڤيتى مراسلا للأومانيتيه، وتجول فى آسيا الوسطى وأرمينيا وأوكرانيا ودول البلطيق.

وحصل على الدكتوراه من پاريس فى ٢٥ من يونيو عام ١٩٥٣ عن «النظرية المادية فى المعرفة». وكان أول فرنسى يحصل - (٥ يوليو ١٩٥٤) - من معهد الفلسفة فى أكاديمية العلوم على درجة الدكتوراه عن «الحرية».

وطاف حول العالم عدة مرات. لأنه تجول عام ١٩٤٩ فى ١٤ دولة فى أمريكا اللاتينية، من المكسيك إلى پيرو، ومن البرازيل إلى كوبا. وكان بصحبة الشاعر پول إيلوار، وصادق الشاعر بابلو نيرودا، والرسام دييجو دى ريڤيرا.

وهو كاتب موسوعى المزاج. ففى عام ١٩٤٦، وهو نائب عن مدينة تارن بالقرب من مارسيليا، مسقط رأسه، كان ينظم إضراب عمال الزجاج، ولكنه يضع مشروع موسوعة للنهضة الفرنسية بمناسبة مرور مائتى عام على موسوعة ديدروه، ويدعو للمشاركة فيها أراجون وإيلوار وپيكاسو وجوليو كورى ولوى چوفيه وكوربوازييه وهنرى ماتيس.

وقد أمضى عامين - وهو فى بداية انتخابه نائبا - يجوب دائرته الانتخابية على دراجته البخارية، يتنقل بين عمال المناجم والفلاحين، وليصبح مدرسا للفلسفة، ونائبا - فى نفس الموقع - فى التدريس والبرلمان الذى احتله چان

جوريس قبل حرب عام ١٩١٤ . وكثيرا ما كان يتذكر هذا الشعار الذى كتبه جوريس الذى اهتم أيضا بالتاريخ القديم والحديث قائلا :

علينا أن نبحث فى الماضى عن الجذوة المتقدة، وألا نكتفى من الماضى بالرماد .

وهكذا ظل جارودى خصما عنيفا للاستعلاء وإنكار الآخر، وظل من عشاق الحوار، والتواضع النبيل للتعلم من تجارب الآخرين .

ولقد ترك دراجته البخارية التى كان يركبها فى شبابه ليدور حول العالم عدة مرات .

ويقول جارودى فى «حوار الحضارات» :

ـ «إن تجربتى بالحياة هى التى قادتنى إلى هذا اليقين، وأوجبت علىّ الإدلاء بشهادتى .

إنها شهادة على تجربة كونية تشمل الكرة الأرضية بأسرها . شهادة غبطة بالثراء الإنسانى الذى حملته إلىّ ثقافات لا غربية، وأناس من آسيا، ومن الأصقاع الإسلامية، ومن إفريقيا، ومن أمريكا اللاتينية .

إنها شهادة تتناول ما بحثت عنه، وما أعتقد أننى اكتشفته فى كل ثقافة من هذه الثقافات . لدى كل إنسان من هؤلاء الناس . شهادة بالطابع الإلهى .

لقد حلقت فوق ذرى العالم كلها . من كليمنجارو إلى همالايا . ومن سلاسل كورديلير فى الآند إلى براكين جاوة وجبال فوجياما المقدسة أو إلى جبل إكونج فى بالى .

واغتسلت فى مياه بحور العالم كلها . من المياه الثقيلة فى البحر الميت، إلى البحيرات الساحلية فى بحار الجنوب . ومن الكاريبى إلى المحيط الهندى . وفى النيل وبحيرة بيكال، وفى الأمازون، وفى يامونا المتدفق نحو الجانج وباتجاه بناريس .

وقد اجتزت الأبواب جميعا. من باب الهند فى بومباى إلى باب الشرق فى ميسورى.

واستطعت الوقوف للتأمل فى جميع المرتفعات التى ترك الإنسان فيها طابع آثاره. من «أبادانا» برسيبوليس التى شيدها دارا وكسرى، وأحرقها الإسكندر، إلى مدن مايا ومعابدها، إلى بالنك أو إلى حشائش إيتزا الطافية فى خضم الغابات المكسيكية، وإلى جواتيمالا، ومن أطلال نينوى وبابل وكتزيفون إلى أبواب بغداد، وأهرام الجيزة فى مصر، وأهرام توتينو كان فى المكسيك، وزيكارت «أور» حيث ولدت الحضارة الأولى، إلى مصب دجلة والفرات، ومرصد أولنج بك حفيد تيمور لنك، إلى سمرقند فى آسيا الوسطى، ومعابد نارا فى اليابان، وشبنا فى جزيرة الفانتا بالقرب من بومباى، وقباب المساجد التى تحاكى عقد اللؤلؤ - من الأطلسى إلى الهند - ما صغر منها كأنه اللآلئ فى تلمسان، وما عظم منها كما فى السليمانية، أو الجامع الأزرق فى إسطنبول، والمسجد الجامع فى أصفهان، وهو يلخص الفن الإسلامى الفارسى. إلى تلك المساجد التى يثابر المسلمون على تأمل عقيدتهم فى رحابها مثل «الزيتونة» فى تونس، و«الأزهر» فى القاهرة، أو تلك التى كانت نداء حب مثل «تاج محل» فى الهند، أو التى بناها تيمور لنك فى سمرقند لـ «بيبى خانون»، المرأة الصينية التى حظيت بإعجابه.

وقد استطعت مناقشة دلالة «قناع» إفريقى مع الشيوخ التسعة لقبائل «جورو» فى ساحل العاج، أحد المعاقل الزنجية، كما ناقشت عظمة الثقافة الهندو - أمريكية مع أحد رؤساء «إيركوا». . وناقشت «الزكاة» مع علماء الأزهر فى القاهرة.

إن التحليق فوق الذرى، والاستحمام فى مياه البحار والأنهار، واجتياز الأبواب كلها، والتأمل فى كل القمم التى أبدعها الإنسان، كل

ذلك إنما يرمز أيضا إلى ما رفدنا به، عندما نحسن الإصغاء بتواضع، لأولئك البشر الذين يحيون اليوم. وما ينبؤنا به عن أشواقهم الإنسانية، والمشروعات التي يحلمون بها عن المستقبل».

* * *

وبعد..

لقد بلغ روجيه جارودى الخامسة والثمانين. وهذا هو كتابه السابع والخمسون.

وفى كتابه الجديد يتهم الصهيونية وأساطيرها وعدوانها، ويتهم أمريكا لأنها «طليعة الانحطاط». ويبين فى اتهامه الحيثيات والأسباب، لنظام عالمى جديد يوشك أن يكون عالما جديدا بلا نظام. وهو كتاب شاهد على العصر، بل شاهد على القرن العشرين، ينظر مؤلفه إلى الماضى ليكتشف الجذوة، ولا يكتفى من الماضى بالرماد. وينظر إلى المستقبل فى أمل دائما. ولهذا اختار جارودى عنوانًا إضافيا لكتابه الجديد: أمريكا طليعة الانحطاط. وهذا العنوان:

ـ كيف نعُد للقرن الواحد والعشرين.

وهو ما يعالجه فى الفصل الأخير.

كامل زهيرى

ملحوظة:

هوامش الكتاب من عمل المعرب كذلك الدراسة من أعمال جارودى وأعلام الكتاب.

تصــدير

كتبت سيمون ڤيْ :

« إننا نعلم تماما أن أمركة أوروپا بعد الحرب ستصبح خطرًا عظيما، ونعلم أيضا مدى ما سنخسره لو تم ذلك؛ لأن أمركة أوروپا سوف تمهد دون شك لأمركة العالم بأسره. . . وحينئذ سوف تفقد الإنسانية جمعاء ماضيها»[1] .

(سيمون ڤى (١٩٠٩ ــ ١٩٤٣) فيلسوفة، اشتغلت عاملة فى أحد المصانع، وانضمت للجنرال ديجول فى لندن عام ١٩٤٢. وهى مؤلفة كتاب : «الجاذبية والدلال»).

مقــدمــة

إننا نوشك أن نغتال أحفادنا، ونُعد انتحارا كوكبيا فى القرن الحادى والعشرين، إذا ما استسلمنا للانحراف القائم فى السياسة العالمية.

البطالة والإبعاد والغربة داخل الوطن، والجوع فى ثلاثة أرباع العالم، والهجرة من عالم الجوع إلى عالم البطالة.

هل هناك وسيلة لفهم عصرنا؟

أى هل يوجد رباط داخلى وعميق بين جميع المشكلات العالمية، سواء أكانت تدخلات عسكرية، أو دورا لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى أو لأوروبا ما ستريخت (*)، أو المنظمة العالمية للتجارة الملقبة سابقا بالجات، أو إعادة الرأسمالية إلى أوروبا الشرقية، أو الأصوليات الإسلامية واليهودية والمسيحية ومشكلاتنا الملحة، أو البطالة والإبعاد والاستبعاد والإقصاء والهجرة والعنف وانتشار المخدرات؟

كيف نستخلص المعنى والعلاقة؟

وكيف نضع برنامجا محددا للخروج من تلك المشكلات؟

تلك هى غاية هذا الكتاب.

(*) معاهدة الوحدة الأوروبية.

الفصل الأول

الفوضى العالمية الجديدة

(جيوپوليتيكا الفوضى)

ما هى الرؤية المترابطة التى يمكن استخلاصها للعالم فى نهاية القرن العشرين ، والتى نستخلصها من أحداثه المتباينة؟

وما المشكلات الكبرى التى تفرض نفسها فى المستقبل القريب؟ وهل نتجه إلى حرب عالمية ثالثة من طراز جديد؟

إن ما كانا يسميان حتى الآن الحربين العالميتين قد وقعا لنزاعات «أوروپية ـ أوروپية» . ولم يطلق على الحرب العالمية الأولى هذا الوصف إلا لأن الخصمين الحليفين ، إنجلترا وفرنسا ، ضما فى صفوف جيوشهما «قوات ملونة» من مستعمراتهما أو «ممتلكاتهما» بدءاً من القناصة السنغاليين والمحاربين من شمال إفريقيا بالنسبة لفرنسا ، وانتهاء بجنود إنجلترا من كندا وأستراليا .

ونجد الشىء نفسه فى الحرب العالمية الثانية التى نشأت لخلاف أوروپى أشرك فيه الحلفاء الأوروپيون الشعوب التابعة لهم . مثلا ، كان ٧٠٪ من قوات الإنزال البحرى فى مقاطعة بروڤانس لتحرير فرنسا ، من المغاربة ، وكانت نسبة القتلى بينهم أكبر من نسبة اشتراكهم [٢] . والحرب بين

أمريكا واليابان لم تكن تحمل صبغة صراع بين حضارتين، بل كانت على الأصح حربا بين متنافسين ينميان داخل حدودهما النظام الصناعى نفسه، ويتصارعان للسيطرة على المحيط الهادى وغزو أسواقه.

وهذان الصراعان (الحضارى والاقتصادى) لم يختلطا من قبل عسكريا: لأن هتلر كان يستبعد أمريكا من الصراع الأوروبى لأطول فترة ممكنة، وتخيل جعل اليابانيين آريين شرقيين! لإقامة محور من برلين، وروما، وطوكيو.

وإذا صدقنا ما تحدث عنه هنتنجتون [٣] وأسماه «صدام الحضارات»، نجد أنه لو اندلعت حرب ثالثة فستصبح حربا من نوع جديد. هكذا قال هنتنجتون، فلن يكون سببها نزاعا «أوروبيا ـ أوروبيا»، ولكنها ستكون مواجهة بين الحضارات... بين «المركز» (وهو الغرب) وبين الأطراف (أو المستعمرات القديمة). بل إن هنتنجتون يعطى أيضا كلاً من المجموعتين صبغة دينية: إذ سيكون الصدام بين حضارة «يهودية مسيحية» وأخرى «إسلامية كونفوشيوسية».

إن طريقة طرح المشكلة عنده خاطئة، ولكن المشكلة حقيقية. فالولايات المتحدة فى خطتها للسيطرة على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، عينت العدو البديل أو «الشيطان» الذى يجب القضاء عليه وهو «الإسلام» وحلفاؤه المحتملون فيما يسمى بالعالم الثالث. وبعد أن ضربت المثل بتحطيم العراق، هل تستطيع الولايات المتحدة تحقيق حلمها بفرض نظامها للسوق على مجموع العالم؟

وذلك يعنى أن ما أوضحته فى كتابى «نحو حرب دينية» كان يعنى الصدام الحضارى. لأن «وحدانية السوق» ستعمل على تهشيم مقاومة

كل هؤلاء الذين حافظوا على نظام آخر للقيم يختلف عن القيم التجارية، والذين بدفاعهم عن هويتهم يدافعون عن معنى الحياة.

إن النقطة الحساسة لحدود الإمبراطورية الأمريكية هى الخليج الفارسى/ العربى الذى تحيط به أغنى منابع البترول والذى سيظل عصب التنمية الغربية لعدة قرون قادمة. وعلى هذا الخط الساخن، حققت «وحدانية السوق» آخر انتصاراتها بتحطيم العراق، تلك الحرب التى خاضتها الولايات المتحدة بواعز من جماعتى ضغط، وذلك كما أكد السيد آلان پييرفيت فى جريدة «الفيجارو» الفرنسية صباح ٥ من نوڤمبر عام ١٩٩٠ بقوله: «**إن جماعتى ضغط قويتين تدفعان الولايات المتحدة إلى تفجير الصراع، هما:**

١ ــ اللوبى اليهودى...

٢ ــ ولوبى رجال الأعمال».

وفى هذا الموقع «الحساس» لحدود الإمبراطورية الجديدة، لا تتوقف دولة إسرائيل عن لعب الدور الذى حدده لها مؤسسها الروحى تيودور هرتزل، ألا وهو أن تكون «حصنا متقدما للحضارة الغربية فى مواجهة بربرية الشرق» (٤).

وقد انكشف برنامجها الأكثر تحديداً فى فبراير عام ١٩٨٢ (قبيل غزوها الأول للبنان) فى نشرة «كيڤونيم» (٥) الصادرة من المنظمة الصهيونية العالمية، وهو: «تفكيك كل الدول المجاورة من النيل للفرات»(*). وليس هناك أفضل من ذلك مما يلبى أطماع السيطرة العالمية

(*) راجع نص النشرة فى كتابى جارودى: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص ٢٧٠، ٢٧١ ـ محاكمة الصهيونية الإسرائيلية ص ٩، ١٠. نشر دار الشروق.

للولايات المتحدة فى النقطة الأكثر حساسية لحدود تلك الإمبراطورية.

لذلك تم فرض حرمان قاتل على الشعب العراقى من خلال حصار يقتل المزيد من الأطفال كل يوم بغرض سرقة مستقبل هذا الشعب.

وهناك هدف آخر للسياسة الخارجية الأمريكية، وهو هدف أكثر أهمية أيضا، هو إيران، وهى التى لم تُهزم من العراق فى حرب موّلها بسخاء كل من الولايات المتحدة وأتباعها.

وحددت حكومة إسرائيل الهدف الجديد فى شرم الشيخ عام ١٩٩٦، إذ أعلنت مبادئ «مواجهة الإرهاب» والتدخل الإنسانى! وهما الذريعتان الرئيستان للاستعمار الجديد. فهكذا اعتبر شمعون پيريز إيران مركز الإرهاب العالمى دون أدنى دليل. وطبعا اتسع مفهوم الإرهاب ليشمل كل أشكال مقاومة الشعوب للدفاع عن نفسها ونيل استقلالها، واستبعد هذا المفهوم كل أشكال إرهاب الدولة الذى يهدد هذا الاستقلال. فحين يُقتل جندى من جيش إسرائيل أو من مرتزقته فى جنوب لبنان الذى تحتله إسرائيل بطريقة غير شرعية. أى حين يَقتل مقاوم محتلاّ ـ كما كان يحدث فى فرنسا التى يحتلها النازيون ـ فإن ذلك يُعدّ إرهابا! وإذا قصفت القوات الإسرائيلية المدنيين وذبحتهم فى قانا أو ضواحى بيروت ـ كما كان الحال عندما يعدم النازيون فى شاتو بريان أربعين مقاوما لأن عريفا ألمانيا قد مات فى پاريس بأيدى المقاومة ـ يسمى ذلك بالدفاع الشرعى!

ومن هذا المنطلق، اتهمت الولايات المتحدة إيران عندما سقطت طائرة أمريكية فى البحر أثناء دورة ألعاب أطلنطا الأوليمپية، وحملتها المسئولية عن الحادث. بينما لم يسفر أى تحقيق لاحق فى الحطام عن تقديم أدنى دليل على ذلك الافتراء برغم ضغوط السى آى إيه ووسائل الإعلام.

ومن اليسير تعداد الأمثلة لاستخدام تلك الذرائع والافتراءات، مثل «مكافحة الإرهاب»، أو «التدخل الإنسانى»، أو «حماية حقوق الإنسان»، لتبرير العدوان المباشر على الذول، أو فرض القيود على الاتفاقيات الاقتصادية معها. إذ تثار أحداث «تيان أن من» (*)، **بينما لا يذكر شىء مطلقا عن مذبحة أبشع وأفظع ارتكبها آريل شارون وراح ضحيتها عشرون ألف مدنى فى لبنان عام ١٩٨٢.** إن الحاخامات الأكثر تطرفا وتشدداً تكونوا فى أمريكا، حيث تتجمع الجالية اليهودية الأكثر أهمية فى العالم، وهى أكثر أهمية من يهود إسرائيل.

إن النشيطين «الوطنيين» الأكثر اندفاعا قد تكونوا فى المدارس التلمودية التى أنشأها «الحزب القومى الدينى» للحاخام الأمريكى اليهودى، «زفاى يهودا كوك» (١٨٩١ ـ ١٩٨٢) حيث تتمثل مبادئها فيما يلى:

«سوف يكمل (الله) الرب وعده بالخلاص لعودة المسيح إلى حكم الأرض بهذه المعجزة: بأن يضع كل هذه الأراضى تحت السيادة اليهودية. إن كل أراضى العهد اليهودى أراض مقدسة. هناك توكيل إلهى بالحفاظ عليها وضمها وتأسيس أكبر عدد ممكن من المستعمرات اليهودية عليها.. أى تنازل عن هذه الأرضى يؤجل عصر حكم (الله) الرب على الأرض».

(أثر جوش إيمونييم. بقلم ميرون ج. أرونوف.
الناشر ديفيد نيومان)

كما يرى ذلك فريق آخر من حاخامات أمريكا «اللوبافيتش»، المتأثرين بالحاخام العجوز أليعازر مزراحى (من بروكلين ـ نيويورك) والذى

---

(١) ميدان السلام السماوى: أكبر ميادين بكين، حيث تم قمع تظاهرات الطلبة.

علمهم بأنه « من غير المسموح للشعب اليهودى بالتنازل عن أى شبر واحد من أراضى إسرائيل الكبرى للعرب أو الدخول فى أى مفاوضات على هذا الأساس » .

«جريلسامر» «إسرائيل، رجال فى الزى الأسود».

(الناشر: مطبوعات المنظمة القومية للعلوم السياسية، فرنسا)

وتمثل إيران العقبة الكأداء أمام هذا المشروع . وأكثر من ذلك فهى تقيم علاقات طبيعية مع پاكستان والهند والصين وروسيا ، برغم الحصار الأمريكى المفروض عليها ، وكذلك تتمتع بعلاقات جيدة مع تركيا .

وتمثل إيران النواة الممكنة لتتجمع حولها جزيرة هائلة أوروپية آسيوية تقف فى مواجهة أطماع حلف الأطلنطى ، ولهذا تعتمد الإستراتيچية الأمريكية على إسرائيل ، وتبذل كل الجهود لتضمن لها إمكانات التفوق فى التسليح النووى ، فى الوقت الذى ترفض فيه إسرائيل أى رقابة دولية .

إن نقطة الضعف الرئيسية فى تلك الإمبراطورية ، هى افتقادها لأى روح ، فليس لديها أى مشروع جماعى من أجل مستقبل الإنسان ، اللهم إلا تطوير إنتاجها واستهلاكها اعتمادا على التفوق فى السلاح . وهذا ما جاهد هنتنجتون فى إخفائه ، برغم المواجهة بين الحضارة اليهودية المسيحية والحلف الإسلامى الكونفوشيوسى ، (أى ورثة الحضارات الأقدم فى العالم من بين الرافدين وسوريا إلى الصين) .

وقد سبق للمؤرخ أرنولد توينبى اعتبار أن مركزى الحضارة هما منطقتا سوريا وآسيا الوسطى : « ففى سوريا تشكلت المسيحية التى توسعت فى العالم الهيلينى بأكمله . . كما تشكلت النسطورية ومذهب الطبيعة

الواحدة للسيد المسيح فى إيديس فى بلاد ما بين النهرين. وفى جنوبى سوريا ـ فى الحجاز ـ وُلد الإسلام فى مكة والمدينة. . كما ولد المذهب الشيعى فى الجناح الشرقى من شمال الجزيرة العربية».

والغريب أن تظهر الآن محاولة إعادة الاستقطاب فى العلاقات الدولية باسم «العولمة» الإمبريالية للاقتصاد، فى مواجهة الهويات الثقافية أو الدينية والتاريخية للحضارات الأخرى كافة.

ومن هنا، تنبع الضرورة لوحدة أوروبا وآسيا وأمريكا المسماة باللاتينية لإفشال محاولة أمريكا للقضاء على مراكز المقاومة، سواء على الصعيد العسكرى أو الاقتصادى أو الدينى أو الثقافى الذى يتعدد فى كل القارات.

إن مناوراتها لتفتيت المراكز الصلبة فى كل بقاع الكوكب، تظهر فى تشجيع الصراع بين الكوريتين، وتايوان ضد الصين، والهند ضد باكستان، وذلك بهدف إيجاد مبرر لتدخل القوات الأمريكية.

إن أبرز الأمثلة على تلك المناورات يتمثل فى خطة السلام المزعوم فى فلسطين، والذى لا يعطى الفلسطينيين سوى حفنة من التراب (*) تمثل أقل من ٦٪ من أرض فلسطين، ويحيطها من الجهات الأربع سياج من طرق المواصلات السريعة التى تربط بين المستعمرات الإسرائيلية وتسيطر عليها القوات الإسرائيلية بطبيعة الحال.

وقد شارك حزب العمل فى وضع هذا التفتيت الذى ابتكره مناحم بيجن تحت اسم الحكم الذاتى، وقد استمر خلفاؤه فى حزب الليكود،

(*) شبهها جارودى بمعازل السود فى جنوب إفريقيا فى ظل الحكم العنصرى.

الذى يتولى السلطة الآن، ويواصل خطته بجشع شديد، والهدف هو الاستيلاء على الأرض والماء وضم فلسطين.

وقد كان هذا التفتيت مجزيا للمعتدى، لأنه لم ينجح فحسب فى تقسيم الفلسطينيين، ولكن نجح أيضا فى تقسيم مجمل البلاد العربية، التى فشلت فى اتخاذ موقف موحد حيال تلك المناورات التى استهدفت تفتيت المواقف.

وقد انكشف من قبل النفاق المروع فى الدفاع عن الديموقراطية وحقوق الإنسان فى الجزائر: إذ انكشف التناقض حين اضطر النظام «الليبرالى الديموقراطى» إلى اتخاذ موقف يتناقض مع مبادئه وهو يقاوم جبهة الإنقاذ الإسلامى (FIS) وذلك بموافقته على وقف مسيرة الانتخابات الحرة ومساندته انقلابا عسكريا ضدها.

وهنا فى الجزائر، كما فى فلسطين، تُدفع المشكلة الدينية إلى الواجهة: فلابد من مكافحة الحرب الكونية التى تُشتهر باسم دين لا يجرءون على إعلان اسمه، وهو «وحدانية السوق»، وهى مادية بحتة تصطدم بمقاومة الديانات بمعناها الصحيح مثل الإسلام فى أوروبا وآسيا وفى إفريقيا، أو «لاهوت» التحرير فى أمريكا (*).

ولو أن الإسلام ـ بدلا من أن يتحجر على ماضيه ـ عاد إلى التصور القرآنى لوحدة الديانات منذ أن نفخ الله من روحه فى آدم عليه السلام، وذلك «بشريعة» هى القاسم المشترك لكل عقيدة ولكل حكمة على المستوى العالمى. . وبمعنى آخر: لو عاد الإسلام إلى أصالته القرآنية، ولو

(*) لاهوت التحرير: حركة ثورية كنسية، لا تعتبر الإيمان عقيدة فحسب، وإنما أيضا منهج عمل. وتعالج المشكلات الناشئة فى الواقع طبقا لمعطيات العصر ومن خلال ما هو مطروح محلها.

عاد «لاهوت التحرير» إلى أصالة رسالة السيد المسيح بعيدا عن عهود «لاهوت السيطرة»، فإن هذه الجبهة العالمية سوف يتحقق لها النصر على هذا العالم الذى يخلو من الروح، وهو عالم «وحدانية السوق».

إن هذه هى ضخامة الدوامة الهائلة التى تحدث على مستوى الكون على كل المستويات من الثقافة إلى الإيمان، ومن السياسة إلى الاقتصاد. وهناك محاولات تظهر للتجمع. ففى عام ١٩٩١م اجتمع فى الخرطوم المؤتمر الشعبى الإسلامى العربى بدعوة من السودان وإيران(*). وثمة بادرة أخرى لها مغزى، فى مؤتمر «سياتل» عام ١٩٩٥ : فقد أرادت الولايات المتحدة الأمريكية الموافقة على مراميها فى سوق عالمية، فأبدى أهم الزعماء الآسيويين تحفظهم على المطالب الأمريكية، حتى إن رئيس وزراء ماليزيا التى كانت عام ١٩٦٧ إحدى دعامات الآسيوية «الآسيان»(٦) رفض المشاركة فى الاجتماع احتجاجا على التدخل الأمريكى.

وقد أعلن كلينتون خيبة أمله من موقف أوروبا، ومع ذلك أبدى رغبته فى أن «يوجه نظراته نحو المحيط الهادى».

وفى عام ١٩٨٢، أقامت الصين مركزا للأبحاث النووية فى أصفهان، حتى تعرقل حربا وقائية ضد إيران مشابهة لتلك الحرب التى شنتها إسرائيل ـ وسط فترة سلام ـ لتحطيم المفاعل النووى العراقى «أوزيراك». فى الوقت الذى تطور فيه إسرائيل خفية برنامجها النووى، إلى أن كشف عالم الطبيعة الإسرائيلى مردخاى ڤانونو فى ٥ من أكتوبر عام ١٩٨٦ فى

(*) لم تيأس الدول النامية منذ فجر استقلالها فى وضع صيغ للتحالف فيما بينها، أبرزها حركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة وسبعين، وآخرها مجموعة الـ«١٥»، وتتكون من دول الجنوب، وفيها مصر وماليزيا وإندونيسيا ودول آسيوية وإفريقية وأمريكية جنوبية، كذلك هناك تجمع الدول الإسلامية ومجموعة الدول الإفريقية.

الصنداى تايمز، بوضوح حجم الترسانة الذرية الإسرائيلية التى تستطيع تدمير كل المدن حتى سد أسوان فى مصر. ويشمل هذا المجمع الذرى الإسرائيلى، إلى جانب مفاعل البلوتونيوم بـ «ديمونة»، مركز البرمجة النووية فى «سوريق» (حيث يعمل مفاعل تجريبى أمريكى)، كما يشمل حقل تجارب صواريخ فى «باليكى»، ومصنع تجميع «يوديفات» وقواعد تخزين الأسلحة النووية التكتيكية فى «كفار» و «زاكاريا» و«إيلا بون». ولا يزال ڤانونو نزيل السجون الإسرائيلية، بينما حكومته تستنكر بشدة التجارب النووية التى تقوم بها الصين والهند وپاكستان، أو قازاخستان التى ورثت جزءا من الترسانة النووية السوڤيتية.

إن التحالف الأخير بين الليكود والأصوليين الدينيين بعد انتخابات عام ١٩٩٦ يوضح اليوم دور مفجر الحرب العالمية الجديدة التى تستعد إسرائيل للقيام به فى ظل أى حكومة.

والصدمة قد تكون بنفس الوحشية، لأن روسيا التى ما زالت تملك إمكانات نووية هائلة قد أصبحت مثل إسرائيل جيشا له دولة، وليست دولة لها جيش. **ففى ظل الفوضى وتحلل الدولة التى أسقط فيها عاهر سياسى مثل يلتسين بلاده بمعونة زائفة من الولايات المتحدة، لا يرى المرء مخرجا من هذا الموقف سوى قيام ديكتاتورية عسكرية وطنية للخروج من التمزق والإهانة التى تمر بها روسيا بسبب إعادة الرأسمالية.**

من الصعب تخيل جيش بلا دولة، لخدمة بلاد اختفت من الوجود لغياب مشروع جماعى، ولن تستطيع هذه الديكتاتورية العسكرية طبقا لما يفرضه توازن القوى فى العالم وليس لما يقتضيه الوعى بحركة التاريخ، سوى خيار واحد هو السعى للتحالف مع ألمانيا وآسيا الوسطى لتقاوم

روسيا الاعتماد على واشنطون وإسرائيل، فالأطروحتان اللتان تواجههما روسيا الآن هما الخيار بين عالمين: إما الاحتواء التاريخي، وإما الاحتماء في الأرثوذكسية المسيحية أو في القومية الروسية، ولا خيار ثالث مطروح ولو مؤقتا لحل الأزمة الروسية.

على صعيد آخر، نجد أن أوروبا هي الأخرى لم تعد الحليف المؤكد والدائم للولايات المتحدة الأمريكية. ولم يظهر هذا الموقف في معاهدة ماستريخت فقط. فتلك المعاهدة التي تهدف منذ توقيعها إلى استقطاب كامل لأوروبا بجعلها ملحقة خاضعة وثانوية لحلف الأطلنطي، ما زالت تظهر يوما بعد يوم آثارها السلبية وأضرارها الاقتصادية والثقافية، وتوضح أكثر فأكثر انقسام الأوروبيين فيما بينهم.

حدثان أخيران يبرزان هذا الانقسام:

في الوقت ذاته الذي وافقت فيه فرنسا وإنجلترا على وضع قواتهما العسكرية في العراق تحت القيادة الأمريكية، أبرز استطلاع للرأي رفض ٨٠٪ من سكان ألمانيا التدخل العسكري في العراق.

أقدمت ألمانيا على التحالف مع الكروات في يوغوسلافيا السابقة(٧)، بينما لم تتخذ إنجلترا أو فرنسا أي موقف ضد الصرب إلا تحت الضغوط الأمريكية - الألمانية.

يتلازم هذا الانقسام مع تحول الولايات المتحدة الأمريكية من أكبر دولة دائنة في العالم إلى أكبر دولة مدينة في العالم. ومعدل الاستثمار في الولايات المتحدة الأمريكية يعد الأقل بين الدول الصناعية الكبرى. فبرغم قوتها العسكرية التي لا تعتمد على قوة المقاتلين والتي لا تتمنى -

كما تشير تقارير البنتاجون - إلا دخول حروب «لا تخسر فيها قتيلاً واحدًا»، وذلك بإمكاناتها التقنية العالية الخاصة بإدارة المعارك عبر الضغط على أزرار الكومبيوتر والمراقبة بشاشات الرادار، بهدف أن يصبح قادتها بذلك أسياد العالم. برغم كل ذلك تحولت الولايات المتحدة شيئا فشيئا إلى عملاق بكعب «أخيل» (*). وذلك بسبب الهشاشة الاقتصادية المختفية وراء القناع، إلى حين انكشافها عبر سيولة المضاربات المالية التى حولت البنوك الأمريكية إلى صالات للقمار. (تلك البنوك التى تعدد إفلاسها عقب إفلاس صناديق الادخار، حتى تدخلت الحكومة الفيدراليةفى النصف الثانى من الثمانينيات!).

لهذا الضعف الواضح والقصور، تقامر الولايات المتحدة حتى الآن وحتى إشعار آخر، على سياسة التسليح لمواجهة صعود أى عمالقة آخرين إلى قمة العالم التى تعتليها. ومن ثم، فهى لا تسلح فقط مرتزقها الرئيسى فى الشرق الأوسط: إسرائيل، تسليحًا كثيفًا، بل تسعى أيضا لعرقلة صعود الصين، بينما تسعى إنجلترا إلى تمييع عودة هونج كونج إلى الصين، وتبعث الولايات المتحدة طائرات تقدر قيمتها بأربعة مليارات ونصف المليار إلى تايوان، كما تبيع حليفتها فرنسا لتايوان ٦٠ طائرة ميراج، وذلك للحيلولة دون أن تصبح الصين الموحدة قوة عالمية بسوقها الداخلية المحتشدة بمليار ومائتى مليون نسمة، وبمواردها الطبيعية الهائلة، وبأيديها العاملة الكادحة.

لقد دخلت الولايات المتحدة مرحلة السقوط التاريخى بالانهيار التدريجى للخط البيانى لحضارتها. أى التفكك التدريجى الداخلى، فى

(*) أسطورة يونانية، ذُكرت فى الإلياذة، وللمراد بها نقطة ضعف قاتلة برغم صغرها فى جسد عملاق.

أمريكا «الأخرى» غير تلك التى ظهرت فى مسلسل «دالاس» الشهير :

بؤس متزايد: ثلاثة وثلاثون مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر.. تحلل فى المجتمع يرجع إلى تفرقة عنصرية عريقة الأصول بالأخص للزنوج، وتعتبر اضطرابات لوس أنجلوس ومسيرة المليون أسود بقيادة لويس فاراخان فى واشنطن أهم الشواهد على ذلك. وذلك فضلا عن تفتت اجتماعى.. بالمخدرات والفساد والمضاربات الطفيلية.

وإلى أن يجد جديد، يسعى هذا النظام إلى إبراز التماسك بفضل تفوقه الوحيد فى امتلاك السلاح الأقوى تكنيكيًا، فارضا على أطرافه من الدول سيطرة وسطوة محكمة، مستخدما كل أساليب التدخل، واحتكار هذا التدخل. ويغطيه ـ إذا كان ذلك ممكنًا ـ باسم التدخل الإنسانى بغطاء المؤسسات الخاصة تمامًا له، من منظمة الأمم المتحدة إلى صندوق النقد الدولى حتى البنك الدولى.

الفصل الثانى

وحدانية السوق

تنبع كل مظاهر هذا السقوط من منطق «اقتصاد السوق»، الذى شكل فى مرحلته الأخيرة ديانة سيطرت على كل شىء. تلك الديانة لا تجرؤ على التصريح بأن اسمها: «وحدانية السوق».

السوق مكان التبادل لكل المجتمعات الممارسة لتقسيم العمل. منذ فجر التاريخ، تشهد كل ورشة وكل مخزن للملابس المشغولة بأن صناعة المنتجات لم تكن بغرض استخدام شخصى، وإنما بغرض مبادلتها بمنتجات أخرى من وسائل المعيشة. حتى الصورة القديمة للسوق التقليدى للقرية، حيث يُجلب إليه البيض والدجاج والخضراوات بغرض بيعها، بمبادلتها أو مقايضتها، إما بمنتجات أخرى كالملبوسات والمعدات، وإما لدفع خدمات البيطرى أو الحلاق.

الفرق بين السوق فى صورتيه القديمة والحديثة، هو الوسيط الجديد وهو النقود. وكانت النقود فى البداية أداة قياس لرد المنتجات جميعها والأعمال المختلفة كما وكيفا إلى وحدة قياس واحدة. وأصبح هذا السوق وسيلة للاتصال والتبادل. لكن القيم والغايات النهائية للحياة تتحدد خارج هذا السوق، فلم يكن السوق منظما للمجتمع لأن نظام

المجتمع قد حُدِّد عبر التسلسل الاجتماعى وعبر القيم الأخلاقية الواضحة أو الضمنية للأفراد والمجتمعات، وعبر الأديان التى لم يكن السوق محركا لنشأتها أو أصولها.

لا يتحول السوق إلى ديانة إلا عندما يصبح المحركَ الوحيد فى العلاقات الاجتماعية، الشخصية أو القومية، والمصدرَ الوحيد للسلطة والتسلسل الاجتماعى. ولسنا الآن بصدد أن نكتب تاريخ هذا التحول الكبير الذى أصبحت فيه كل القيم الإنسانية قيما تجارية بما فيها قيم الفكر والفن، بل وقيم الضمير.

لكننا نكتفى باستخلاص النتائج الاقتصادية والسياسية والروحية فى المرحلة العليا لتلك الظاهرة، حتى نتحرر من الانحطاط والتأخر الإنسانى الذى يروج له بعض المنظرين الأمريكيين فى البنتاجون وأتباعهم فى مختلف أنحاء العالم، حسب عنوان كتاب فوكوياما: «نهاية التاريخ»(*).

إذا قادنا هذا العنوان إلى شيء، فإلى نهاية إنسانية الإنسان وتجريده من أخص خصوصياته أى تسامى المشروع الإنسانى والاستسلام لحتميات اقتصادية كأنها قوانين طبيعية. إنه هبوط بالإنسان ليعيش في غابة الحيوان حيث ينهش القوى الضعيف. إن ما يميز وحدانية السوق فى الواقع هو تلك «الليبرالية الشمولية»، وهذا الاحتقار لحرية الإنسان حين تجرده هى ذاتها من أبعاده الخصوصية، وهى أن يكون فاعلا ومنفذا لمشروعاته وتطلعاته وإمكاناته الخاصة التى تتجاوز الغرائز الحيوانية والأهداف المادية النفعية الشخصية.

(*) كتاب يعبر عن انتصار النظام الذى يسميه «الليبرالى الديمقراطى» السائد حاليا، مؤكدا عدم حدوث تغيير مهم بعد الآن. بذلك انتهى التاريخ.

ولقد وصف آدم سميث ذلك الاستسلام من قبل، فقال :

« إن الخطوط الرئيسة لعالم الاقتصاد الحالى لم ترسمها رؤية شاملة لعقل مُنظِّم، ثم نفذها عن عمد مجتمع ذكى، بل حددتها تراكمات عديدة لملامح لا حصر لها، رسمها جمع من الأفراد كان محركهم قوى غريزية وغير واعية لا تدرك الهدف الذى تتجه إليه» .

(دراسات حول طبيعة وأسباب ثروة الأمم)

ومن آدم سميث إلى فريدريش ڤون هايك مرورا بباستيا وفريدمان، تُرفض فكرة المشروع دائما. كتب ميلتون فريدمان: « **إن التنسيق بين أنشطة ملايين البشر لا يعرف كل منهم سوى مصلحته الشخصية، يتم عبر نظام الأسعار، فتتحسن أوضاع الجميع فى غياب الإدارة المركزية، وذلك دون أن يكون من الضرورى أن يتحادث الناس أو أن يتحابوا. إن ظهور النظام الاقتصادى نتيجة غير مقصودة لأنشطة عدد كبير من الناس لا يرون سوى مصالحهم الخاصة. ونظام الأسعار يعمل بنجاح وفاعلية برغم أننا فى أغلب الوقت لا نعى وجوده!** » .

(كتاب «حرية الاختيار» ١٩٨١)

أضاف ڤون هايك فى كتابه : «الفردية والنظام الاقتصادى»: « **فى ظل المجتمع المعقد، لا يوجد أمام الإنسان بديل عن أن يتأقلم مع ما يبدو له أنه القُوى العمياء للعملية الاجتماعية**» .

يمكننا اليوم رسم مسار النموذج الغربى للنمو، انطلاقًا من الخطأ القاتل ببوصلة النهضة المزعومة، أى ميلاد حضارة الكم والعقل النفعى والمنطق الديكارتى وديانة الوسائل، وجعلهم البوصلة الأساسية الموجهة فى الحياة، تبتر البعدالأساسى فى العقل، وهو التفكير فى الغايات

النهائية للحياة ومعناها. كتب ميشيل ألبير فى كتابه : «الرأسمالية ضد الرأسمالية»(*) : «الواجب الواضح هو استبعاد قضية الغاية الفلسفية».

وتلك بوضوح هى الغاية النهائية لـ «وحدانية السوق»، وذلك بأن «نتأمرك» على الحياة الأكثر زيفا، ابتداءً من الفيلم الأمريكى الذى بدأ بمطاردة الهنود وانتهى بتدمير العقول، ومرورا بكل أفلام الغرب، وأحراش المال، و«دالاس»، وكل مناظر العنف، واللاإنسانية من «باتمان» إلى «ترميناتور» حتى الموعظة الرمزية التى تعود بنا إلى عالم «الديناصورات».

نجد اليوم أن الركيزتين الأساسيتين والأكثر صلابة وقوة فى توسع السوق هما المخدرات والسلاح.

يتساوى حجم تجارة المخدرات ماليا مع حجم تجارة السيارات والصلب داخل الولايات المتحدة. كما يتزايد الاستهلاك يوميا مع افتقاد معنى للحياة وتفشى البطالة والإقصاء، ولأسباب أخرى عديدة. كما أصبحت الغاية الوحيدة لاستهلاك المخدرات هى الإحساس بسعادة التسوق فى السوبر ماركت (٨) التى تسمح بها.

وهكذا، فمما له مغزى كبير : أن انتحار المراهقين ترتفع معدلاته فى البلدان الأغنى، كما فى الولايات المتحدة والسويد : ومن ثم ينتحر الشماليون لغياب الغايات، بينما يموت الجنوبيون لنقص الوسائل !

إن التعاطى المتزايد للمخدرات، يُعد أحد توابع «وحدانية السوق» : أولا بالنسبة للإنتاج، فإن زراعة الكوكايين تجزى أكثر بعشرة أضعاف من

(*) كتاب ميشيل ألبير : «الرأسمالية ضد الرأسمالية» نشرته مكتبة الشروق.

زراعة الكاكاو أو البن بالنسبة للفلاح البوليفى، ولا تسمح هاتان الزراعتان له إلا بالكفاف، كما لا تمكنان الدولة من القيام بسداد ديونها المؤجلة لصندوق النقد الدولى!

لقد أصبحت المخدرات بخور الكنيسة للديانة الجديدة «وحدانية السوق».

ومثال الاتحاد السوڤيتى واضح تمامًا. فمع إعادة الرأسمالية إلى هناك، انفجر إنتاج واستهلاك المخدرات كما لو كانا إحدى ركائز الإصلاح الاقتصادى. فمن عام ١٩٩١ إلى عام ١٩٩٣، تضاعفت المساحات المزروعة بالخشخاش فى أوزبكستان. كما تضاعفت واردات الأفيون القادمة من أفغانستان (التى أصبحت فى عام ١٩٩٣ المنتج العالمى الأول) ثلاث مرات.

أما بالنسبة للسلاح، فيُعَدّ الصناعة الأكثر رخاء: فهى التى صعدت بأمريكا إلى القمة، وجعلتها القوة العالمية الأولى عقب الحرب العالمية الأولى. فى عام ١٩٤٥ استولت ـ بفضلها ـ الولايات المتحدة على نصف الثروة العالمية، وتوصلت إلى حل نهائى لأزمتها التى بدأت عام ١٩٢٩. وقد فجرت الحرب الكورية نجاحا اقتصاديا هائلا وجديدا. ومذبحة العراق كانت إكليلا من المجد وإعلانا مصورا بالحجم الطبيعى والصوت والصورة لمحركات الموت القاهرة والمعقدة الأمريكية، فارتفعت مبيعاتها ودارت عجلات إنتاجها عقب المذبحة.

بخور آخر لوحدانية السوق: الفساد.

عرّف آلان كوتا منطق النظام، فقال:

«لا يمكن فصل انتشار الفساد عن توسع الأنشطة المالية والإعلامية. فعندما تسمح المعلومة بتكوين ثروة فى بضع دقائق لا يمكن جمعها حتى

بعد سنوات من العمل الشاق والمتعب أو طوال عمر كامل، فإن إغراء شراء أو بيع هذه المعلومة لا يقاوم».

(آلان كوتا: «الرأسمالية فى كل حالاتها» الناشر: فايار، ١٩٩١)

وأضاف: **«يلعب الفساد دورًا مساويًا للخطة»**.

ما لا يمكن التصريح به بعبارة أفضل: فى نظام كل شىء فيه يباع ويشترى، لم يعد الفساد ـ بل والدعارة أيضا ـ شذوذًا شخصيا عن قواعد المجتمع، بل أصبحا من القوانين البانية للنظام (٩).

كذلك عرّى يلتسين بلاده أمام صندوق النقد الدولى، بائعا إياها بأرخص الأسعار، فأرسل له الصندوق المرابى المشهور چورچ سورس (*).

تلك هى تداعيات ظهور المرض وملامح انحطاط النظام العام، حيث تجنى المضاربات أكثر مما يجنيه الاستثمار الجاد فى الإنتاج والخدمات.

والمضاربات لها معنى محدد سجله قاموس «روبير»: «عمليات مالية تهدف إلى الاستفادة من تغييرات السوق، كحركة سعر الصرف وأسعار السلع لتحقيق مكاسب مالية».

أوضح موريس أليه (جائزة نوبل فى الاقتصاد) «أن حركة التعاملات

(*) رجل أعمال أمريكى يهودى من أصل مجرى، يضارب فى البورصات العالمية، اتهم بإسقاط عدد من البورصات والعملات وخاصة فى الأزمة الآسيوية الأخيرة، عن طريق الأموال الساخنة.

المالية ترتفع إلى متوسط ١١٠٠ مليار دولار يوميا، أى أربعين مرة أكثر من حجم الإنتاج والخدمات. نظام كهذا لا يمكن مواجهته».

(موريس أليه «الغرب على حافة الكارثة». حديث مع جريدة «ليبراسيون» ٢ من أغسطس عام ١٩٩٣، كما ذكرها فى كتابه «أخطاء ومآزق النظام الأوروبى». «الناشر جوجلار، ١٩٩٢»)

وهكذا فإنه فى ظل النظام الحالى «لوحدانية السوق»، يكون المكسب المحقق من المضاربة فى المواد الأولية يوازى أربعين ضعفا لما يمكن تحقيقه بالاشتغال فى الإنتاج أو الخدمات.

الفصل الثالث

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

لا بد من وضع المشكلة فى إطارها التاريخى الأمريكى حتى ندرك كيف أصبح انتشار «طريقة الحياة الأمريكية» وذيوع أوهامها المتعددة أحد الأسباب الرئيسية لانهيار الأخلاق والفنون فى عالم اليوم.

ذلك أن انحطاط الثقافة ينبع من تاريخ الولايات المتحدة ذاتها ومن تكوينها، لأن الثقافة لا تلعب أى دور منظم فى حياة المجتمع الأمريكى، بينما لعبت الثقافة والأيديولوچية دورا مهما ودائما فى أوروپا وحياتها السياسية، سواء فى العصر المسيحى، أو عصور التنوير والثورة الفرنسية، أو فى قرن القوميات، أو عصر الماركسية وثورة أكتوبر.

وكل سكان أمريكا مهاجرون من الخارج، عدا سكانهاالأصليين من الهنود الحمر الذين كانت ثقافتهم تنظم علاقتهم الاجتماعية (كما فى حالة قبائل الأنكاس)، ولكن راح ٨٠٪ منهم فى الإبادة الكبرى، كما تم إقصاء البقية الباقية منهم وتهميشها. وقد جاء سكان أمريكا (أى المستوطنون الأوروپيون) بحثا عن العمل وكسب المال أساسا. ومع اختلاف ثقافاتهم ودياناتهم، بين أيرلنديين وإيطاليين وغير ذلك من أجناس وجنسيات مختلفة، كانت الرابطة الوحيدة التى ربطتهم جميعا هى ذلك الخيط الرفيع المشابه لما يربط العاملين فى المؤسسة أو الشركة

التجارية، وأصبحت الولايات المتحدة هى منظومة الإنتاج التى يقودها المنطق التكنولوچى والتجارى، والتى يشارك فيها كل فرد منتجا أو مستهلكا، فى غاية وحيدة هى تنمية مستوى المعيشة كميّا.

وهكذا كانت كل هوية، ثقافية أو روحية أو دينية، تعتبر مسألة شخصية، فردية تماما، لا تتداخل مع مسيرة النظام. ومن مثل هذه الهياكل الاجتماعية أصبح الإيمان عديم الأهمية. وعند الأغلبية العظمى لهذا الشعب، فقد مات الإله، لأن الإنسان انقطع عن كل ما هو مقدس، وبخاصة هذا الدأب فى البحث عن معنى الحياة الذى يقود بالتبعية إلى الإيمان بالله.

واتسع المجال بذلك أمام تفشى الخرافات وانتشار الطوائف والهروب إلى المخدرات أو الشاشة الصغيرة، بينما غطى كل ذلك صبغة تدعى الدينية وهى «البيوريتانية» الرسمية أو التطهرية الرسمية، التى تتعايش مع كل أنواع انعدام المساواة وكل المذابح والجرائم، بل وتمدها بالتبرير والغطاء الدينى!

وقد اكتشف توكفيل الحقيقة. وكان أول محلل ومراقب ثاقب البصيرة للولايات المتحدة، منذ عام ١٨٤٠، فى كتابه الأساسى عن هذه الدولة، وكانت لاتزال وليدة، حين قال: « **لم أعرف شعبا مثل هذا الشعب استولى فيه حب المال على قلوب البشر**». . « إنه شعب من شراذم المغامرين والمضاربين». واليوم ـ أيضا ـ نستطيع أن نعثر فى تاريخ هذا الشعب على أسس انحطاط ثقافته.

ففى العلاقة مع الطبيعة، لم تكن لـ «الحدود» طوال أكثر من قرن، نفس المعنى الذى كانت تعنيه فى أوروبا. كانت الحدود الأمريكية دائما

مساحة مفتوحة حتى نهاية القرن التاسع عشر(*). ولم تغلق تلك «الحدود رسميا» إلا بالوصول إلى المحيط الهادى، وظلت تلك المساحة الشاسعة مسرحًا للنهب والسلب وتدمير الغابات الكثيفة بحثا عن مناجم الذهب والفضة. وكانت العلاقة مع الآخرين ـ أيضا ـ ذات طبيعة خاصة. بدأت أولا بطرد الهنود للاستيلاء على أراضيهم ووضعهم بين خيارين: إما الإبادة وإما النفى والانسحاب إلى المعازل. وبعد ذلك كانت العلاقة بين البيض أنفسهم، خاضعة لأحكام قانون الغاب، لنهب الثروات المسروقة من الهنود، أرضا كانت أم ذهبا.

وهكذا تقلص معنى الحياة إلى هذا التوسع الكمى للملكية والأرض وكنوزها. وكان «الوست» أو «أقصى الغرب البعيد» يعنى ـ باستثناءات قليلة ـ تقديس هذه الملحمة العنصرية، وقانون الأقوى فى حرب الجميع ضد الجميع. ولم تلعب التطهرية المسيحية أو البيوريتانية أى دور سوى دور المبرر لتلك الأفعال والعلاقات الاجتماعية، بل والمحرك لها!

وهكذا أصبح العنف الأكثر دموية، والتحريض عليه بنفاق المتدينين، ملمحا دائمًا فى تاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها. **فلقد قدم المتطهرون من الإنجليز الأوائل إلى الولايات المتحدة، حاملين معهم العقيدة الأكثر دموية فى تاريخ البشرية، ومسلحين بفكرة: «الشعب المختار»، مقننين فكرة الإبادة، وكأنها حسب روايتهم أوامر إلهية. كانوا يسرقون أراضى الأهالى الأصليين طبقا لتعاليم يهوا «إله الحرب» فى «العهد القديم»، هذا الإله الذى أمر «شعبه المختار» بإبادة وذبح السكان القدامى فى أرض كنعان واغتصاب أرضهم.**

(*) «أمريكا: الأرض الموعودة» دار الشروق ـ تحت الطبع.

وبالضبط ، فإنه كما سمى الإسپان حربهم لإبادة الهنود فى جنوب القارة الأمريكية تبشيرية "Evangelisation" ، استند المتطهرون الإنجليز على أوامر يهوا بالإبادة المقدسة ، لتبرير طردهم للهنود وسرقة أرضهم إحياءً للعهد القديم . فقد كتب أحدهم : « **واضح أن الله يدفع المستوطنين للحرب، بينما يعتمد الهنود بعدتهم وعددهم على ارتكاب الخطأ، مثل القبائل القديمة، يتحينون الفرصة لفعل الشر، تماما مثل قبائل «الأماليسيت» القديمة والفلسطينيين الذين كانوا يتحدون مع آخرين لقتال إسرائيل**» .

(ترومان نلسون: « متطهرو ماساشوستس من مصر إلى الأرض الموعودة. يهودية». الجزء السادس عشر رقم: ٢ عام ١٩٦٧)

وهذا يوضح فكرة أن الأرض «الموعودة» ليست سوى أرض محتلة بالقوة!

إن إعلان استقلال الولايات المتحدة ، فى ٤ من يونيو عام ١٧٧٦ ، الذى يعد إرهاصا لـ «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» فى فرنسا عام ١٧٨٩ ، يعطى مثالاً صارخا للنفاق عن الحرية بمعناها الأمريكى . ينص الإعلان فى سطوره الأولى على ما يلى : «لقد خُلق الناس جميعا متساوين، ومنحهم الله حقوقا لا تقبل التنازل عنها ، كالحياة ، والحرية والبحث عن السعادة» . ومع ذلك . . . . فقد استمرت عبودية الزنوج مع هذه «الحرية» قرنا من الزمان . وكان لا بد من أن تنفجر حرب أهلية عام ١٨٦٥ لإنهاء ما كان يسمى حتى ذلك الوقت «بالمؤسسة الخاصة» (*) أو «نظام العبيد» . وحتى بعد تلك الحرب لم يكن لهم مكان فى المجتمع .

(*) انتقل العبيد الزنوج بمقتضى هذا الإفراج من العمل فى مزارع الجنوب بالسخرة إلى العمل فى مصانع الشمال بأجر زهيد أو بمثل سابقه .

فقد نشأ بعد ذلك إرهاب المنظمات السرية ، مثل كو كلوكس كلان . واستبعدت القوانين السوداء العبيد القدامى من الحياة السياسية ، كما استبعدتهم من الحياة المدنية . واستمر التمييز العنصرى حتى يومنا هذا برغم تضحيات بذلها عظماء مثل مارتن لوثر كينج .

وكذلك ظهر أبشع أنواع النفاق فيما يخص الهنود . كما ظهر لأول مرة ما أصبح المبدأ المحرك لكل الاعتداءات المستقبلية التى ستقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية عبر العالم أجمع . ويتمثل هذا المبدأ فى اعتبار كل عدوان أو إبادة تقوم بها الولايات المتحدة نوعا من «الدفاع الشرعى» .

* * *

إن إعلان الاستقلال، الذى أقر مبادئ الحرية والمساواة، وصف الهنود بأنهم «متوحشون بغير رحمة، وسيلتهم المعروفة هى شن الحرب وذبح الجميع». هكذا تكلموا عن السكان الأصليين حتى يبرروا مسبقا المذابح ونهب الأراضى، واعتبار تلك الجرائم البشعة نوعا من «الدفاع الشرعى». كما لو كان الهنود هم الذين «غزوا» أراضى المهاجرين، بينما هؤلاء الأوروبيون كانوا ينهبون أراضى الهنود ويدمرون حياتهم بصفة مستمرة. ومنذ ذلك الحين ومنذ تلك «الخطيئة الأساسية»(*) وضع حجر الزاوية الأساسى للسياسة الأمريكية. فقد قلّصت الإبادة أعداد السكان الأصليين من عشرة ملايين إلى ٢٠٠ ألف نسمة.

لقد قال سيمون بوليفار أحد أبطال تحرير أمريكا اللاتينية فى منتصف القرن التاسع عشر : « **يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية**» .

(ناعوم تشومسكى فى «الأيديولوجية والاقتصاد» دار النشر إى، بى، أو (E.P.O) ص٦)

(*) إبادة الهنود واستعباد الزنوج ، واستخدام أبواق الإعلام لقلب الحقائق .

وقد شهد توكفيل بربرية المستعمرين ضد الهنود الحمر الذين يملكون أسلحة لا تتوازن أبدا مع أسلحة الغزاة. ووصف بسخرية لاذعة وإنسانية ذبيحة، ذلك النصر الذى حققته «الحرية». «وهذه المسيرة المنتصرة «للحضارة عبر الصحراء»، بينما «فى قلب الشتاء» كان «البرد قارصا»، وكان ثلاثة أو أربعة آلاف جندى يطاردون السكان الأصليين الرحل الذين يخطون آخر خطواتهم نحو الانقراض، وهم يحملون جرحاهم ومرضاهم وأطفالهم الرضع وعواجيزهم إلى حافة الموت. «مشهد مؤثر» لا يمحى أبدا من الذاكرة».

هكذا بدأ التاريخ فى شمال العالم الجديد.

وأطلق على بنيامين فرانكلين، المعبر اللامع عن التنوير عام ١٧٥٤، اسم «أبو الأمة»، لأنه «الرجل الذى أزاح الأهالى الأصليين، ليفسح المجال أمام شعبه». وقد لقن چورچ واشنطون نفس الدرس للإيروكيين (Iroquois)، عندما أمر قواته بتدمير مجتمعهم وحضارتهم. وكانا بمقاييس عام ١٧٧٩ على درجة من التقدم، ولم يشهد العالم مثيلاً لهذا النفاق والجبن الأخلاقى الذى لقى ثناء واستحسانا لعدة قرون.

لقد وصف توماس چيفرسون، «اتحادنا» كما لو كان «العش، أو المهد الذى لا بد أن تسكنه كل أمريكا الشمالية والجنوبية». وقال: «من الخير **أن تبقى القارة فى قبضة العرش الإسپانى حتى تكتمل لشعبنا القوة ليأخذها منه قطعة بعد قطعة**».

وهذا چون كوينسى آدمز يُحْكم الفكرة التى مهدت لنظرية مونرو. ويُطلق على المستعمرات «قارة أمريكا الشمالية». وكان يقول: إن هذا هو قانون الطبيعة! ولهذا القانون تطبيقاته الواسعة جدا!

وقد استند آدمز إلى نفس القانون حين حاولت الصين وقف تصدير الأفيون عن طريق الهند، وهى المحاولات التى فجّرت حرب الأفيون،

واستخدمت فيها إنجلترا القوة، لدحر مقاومة الصين للمبادئ «النبيلة» لحرية التجارة. **بينما وصف آدمز محاولة الصين لوقف إغراق بلادها بالأفيون بأنها ضد الطبيعة، ومحاولات تعارض طبيعة الأشياء!**

ثم يأتي بعد ذلك ودرو ويلسون ليحدد «مهمتنا الخاصة» بأنها «تلقين» كل شعب مستعمَر: «النظام وضبط النفس(*) والتدريب على القانون والطاعة».

ومعنى ذلك من الناحية الواقعية: «الخضوع لحقنا فى استغلالهم ونهبهم». ويشرح ودرو ويلسون فى نص خاص الدور الذى تقوم به «سلطة الدولة» فى هذا المشروع: « **بما أن التجارة لا تعرف حدودا قومية، وبما أن المنتج يحتاج إلى العالم ليصبح بأجمعه سوقه التجارى، فلابد إذن من أن يسبقه علم بلاده، حتى يوفر له فرصة اختراق كل الأبواب المغلقة. ولابد أن يحمى رجال الدولة الامتيازات التى يحصل عليها رجال المال، حتى ولو أدى ذلك إلى تدمير سيادة الأمم التى تحاول التصدى لذلك. يجب إقامة المستعمرات أو ضمها حتى لا نترك أى ركن فى العالم»**(**).

هذه المذكرات السرية توضح المعنى الحقيقى لمُثُل ويلسون العليا فى الحرية والحكم الذاتى. وهى المُثُل العليا التى يثرثر بها كثيرا مثقفو الغرب.

وقد طبق ويلسون عقيدته فى الحكم الذاتى عندما أصبح رئيسا، فغزا

(*) وعن ذلك، وضع ناعوم تشومسكى كتابه المهم «ضبط الرعاع».

(**) دأبت الحكومات الغربية منذ عدة قرون على فتح الأسواق لمنتجاتها وتوفير المواد الخام لمصانعها، فى كل أنحاء العالم، وذلك بكل وبأى وسيلة تقدر عليها، من غزو عسكرى أو صفقات خادعة أو مكائد سياسية ومالية، ثم نسمعها اليوم تعلن بكل جرأة ووجه مكشوف، أن على الحكومات أن ترفع يدها عن الاقتصاد.

المكسيك وهايتى والدومنيكان . وأعمل جنوده الذبح والقتل والدمار، ليضعوا البلاد فى قبضة رجال الأعمال الأمريكيين .

وقد شرح وزير خارجية ويلسون، روبرت لانسينج، معنى «مبدأ مونرو» فى مذكرته التى اعتبر نشرها خطأ، وإن كان لا يشك فى صحة حججه، جاء فيها : « **تدافع الولايات المتحدة عن مصالحها الخاصة، حين تدافع عن مبدأ مونرو، لأن سلامة بقية الأمم الأمريكية ثانوية بالنسبة للولايات المتحدة، ولا تعتبر هدفا فى حد ذاته. وبرغم أن ذلك يبدو فى منتهى الأنانية، فإن مؤسس هذه العقيدة لم يكن لديه أى دوافع أخرى أكثر عمقا، أو أكثر كرما لتقديمها**» .

(ناعوم تشومسكى، مرجع سابق صفحة ١٥ ــ ١٦)

* * *

إن دراسة الجذور المؤسسة للأسطورة الأمريكية وسياستها الخارجية، تؤكد أن تلك الجذور لم تتغير منذ قرنين من الزمان .

حتى الحرب العالمية الأولى، تمارس تلك الضغوط خاصة على القارة الأمريكية. وكانت المشكلة الكبرى هى «منع السيطرة الأوروبية على الأراضى الأمريكية ومؤسساتها عن طريق الوسائل المادية أو غيرها» .

(دى ويت بوول، مستشار السفير الروسى فى تقريره لسكرتير الدولة (وزير الخارجية) لانسنج: «بخصوص أهداف البولشفية»)

تاريخ الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر هو فى الأساس تاريخ القضاء على الهنود. من عام ١٨٠٠ حتى عام ١٨٣٥ ، أبعدت تلك القبائل لما وراء الميسيسيبى عبر ظروف انتقال وإقامة تعد أحلك صفحة فى التاريخ، وتفوق سوء الحال الذى أحدثه التهجير الهتلرى. وبعد عام ١٨٤٠ وإنشاء ومد السكك الحديدية، أجبر الهنود على ترك آخر

أراضيهم ليستقروا فى المعازل المشابهة للحظائر الحيوانية . وأدى هذا الصراع إلى موت الملايين ، لأن المقاومة المسلحة للهنود لم تنته إلا بذبح زعيمهم « ووندد نى » (Wounded Knee) فى عام ١٨٩٠ .

تاريخ الولايات المتحدة هو أيضا تاريخ استغلال العبيد الزنوج ، خصوصا فى زراعة القطن .

* * *

أما على صعيد السياسة الخارجية ، فكانت الملامح الأساسية هى التحايل لإبعاد القارة الأمريكية عن إسپانيا والبرتغال لفرض سيطرة الولايات المتحدة وتغلغلها الاقتصادى والسياسى على القارة ، وكذلك إقصاء إنجلترا وفرنسا لاستغلال البترول بدلا منهما .

المبدأ الأساسى لهذه السياسة التى تبيد الهنود وتستعبد السود وتطرد الدول الأوروپية ، حدده الرئيس مونرو فى ٢ من ديسمبر عام ١٨٢٣ ، فى رسالة إلى الكونجرس جاء فيها : «فللأوروپيين القارة القديمة وللأمريكيين القارة الجديدة» (مبدأ مونرو) . وانفجار زورق حربى أمريكى فى ميناء هاڤانا ، كان الحجة للحرب ضد الإسپان ، فقدوا بمقتضاها پورتو ريكو والفلپين وكوبا .

وكانت الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ والتدمير المتبادل بين الدول الأوروپية بمثابة منجم من الذهب للولايات المتحدة الأمريكية ، التى لم تسرع إلى النجدة والانتصار إلا فى نهاية الحرب عام ١٩١٧ .

إن أسطورة أن الولايات المتحدة «حررت» أوروپا هى فى الواقع أكذوبة مضاعفة . فقد كان ذلك التدخل أولا من أجل مصالح «رجال

الأعمال» والتى تهددت بإغراق بعض البواخر الأمريكية التى استمرت فى الاتجار مع إنجلترا. ثم كان ـ أيضا ـ لأنه فى يناير عام ١٩١٧، وعد الوزير الألمانى زيمرمان المكسيك بالتعاون معها ضد الولايات المتحدة لاستعادة الولايات التى فقدتها (وهى تكساس، وأريزونا، ونيومكسيكو). وكان تدخل قيصر ألمانيا هو الذى دفع الرأى العام الأمريكى ليطلب شن حملة عسكرية فى أوروبا (٤ من إبريل عام ١٩١٧). هذه الحرب الأولى قد كلفت فرنسا مليونا ونصف المليون من القتلى، وكلفت ألمانيا أكثر من مليون وسبعمائة ألف قتيل، وهى الأرقام التى لا يجب أن تقارن بالاشتراك «الرمزى» للولايات المتحدة التى لم تفقد سوى عدد ضئيل من الضحايا.

إن الثراء من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٢، حوّل كل شىء إلى دعارة بتفاقم النزعة الإجرامية والعصابات المتحكمة فى كل شىء بالتواطؤ مع الشرطة، وبقانون «المنع» فى عام ١٩١٩ الذى أنعش الحانات الخارجة عن القانون، ملتقى العصابات الأمريكية من السبيكيزيس Speakeasies والبوتليجرز Bootlegers (*) وكذلك الهجرة الخارجية النسبية القادمة من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٤، أعادت الازدهار لـ «كلو كلوكس كلان Klu Klux Klan» فارضين من جديد الرعب فى الجنوب. كذلك قادت الوطنية المتشددة (الشوفونية) الحاكمة، أبرياء مثل كساشو وفانزيتى والمحتجين الإيطاليين إلى الإعدام بالكرسى الكهربائى.

وأصبح الاهتمام السياسى الأعظم، تحطيم كل نظام اشتراكى يعارض التغلغل الاقتصادى للولايات المتحدة فى العالم، بكل الوسائل. بذلك

(*) عصابات من المافيا.

أصبح الاتحاد السوفيتي العدو الرئيسي بالخطر المتعاظم والمعدى الذى مثّله. وأصاب خلل مماثل أوروبا الغربية، ولم يتردد القادة الأمريكيون (باسم الدفاع عن «الحريات»، أى سياسة «الباب المفتوح» للتوسع الاقتصادى الأمريكى بلا حدود) فى الاعتماد على أسوإ الديكتاتوريات.

وخلال الحرب العالمية الثانية التى دامت ست سنوات بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٥، أنزلت الولايات المتحدة مع إنجلترا قواتها على نورماندى (أوروبا) فى ٦ من يونيو عام ١٩٤٤ (بينما كان اليابانيون قد ضربوا «بيرل هاربر» (*) منذ ٧ من ديسمبر عام ١٩٤١)، وكان الأمريكيون يحاولون حماية مصالحهم فى المحيط الهادى ضد التوسع اليابانى العنيف.

لم يتدخل الأمريكان مباشرة ضد هتلر إلا فى يونيو عام ١٩٤٤ عندما مُنيت ألمانيا فى يناير عام ١٩٤٤ بأول هزيمة كبرى لها، حيث فقدت فى ستالينجراد ٤٠٠,٠٠٠ رجل بينهم ١٤٠,٠٠٠ أسير، وعلى مستوى آخر كانت المقاومة فى كل أوروبا تستنزف الاحتلال الألمانى بقوة.

وكان هتلر قد وضع فرقه الأقوى وفرقه الضاربة (١٩٨ فرقة من مجموع ٣١٥) على الجبهة الروسية، و٣٨ فرقة في إيطاليا و٦٤ فرقة على قطاع يمتد من النرويج حتى فرنسا. كل ما فعله الأمريكيون فى ظل انهيار آلة الحرب الألمانية، وأثناء الإنزال وفى أعقابه، كان قصفا جويا عشوائيا على المدنيين، أسفر عن ٥٧٠,٠٠٠ قتيل و٨٠٠,٠٠٠ جريح مدنى.

المثال الأكثر إيضاحا هو قصف دريسدن الذى أسفر عن ١٣٥,٠٠٠ ألف قتيل، بينما كانت القوات السوفيتية تعتبر فى خططها أن المدينة لم

(*) قاعدة عسكرية أمريكية فى هاواى، ضربها اليابانيون تحت قيادة ياماموتو بعد أن خنقهم الحصار الذى ضربته عليهم أمريكا، خصوصاً فى الوقود، مما أدى إلى إعلان الولايات المتحدة بعدها الحرب على اليابان.

تكن هدفا عسكريا . وكذلك هيروشيما التى قذفت بقنبلة ذرية فى ٦ من أغسطس عام ١٩٤٥ ، أسفرت عن ١٦٠,٠٠٠ إصابة . . . ونجازاكى عرفت نفس المصير بعد ثلاثة أيام من الأولى ، برغم أن اليابان كانت فى طريق مفاوضات الاستسلام ، بناء على اقتراح الإمبراطور .

(انظر «٣٩ ـ ٤٥ الحرب المجهولة» بقلم پول مارى دى لا جورس. الناشر : فلا مريون ١٩٩٥ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٥)

* * *

إن مفهوم الشيوعية كان قابلا للتوسع بقوة . فى عام ١٩٥٥ ، تدخلت «مؤسسة ودرو ويلسون Woodrow Wilson Foundation » و«الاتحاد القومى للتخطيط» لوضع تعريف عظيم الوضوح : «التهديد الشيوعى يتمثل فى التحول الاقتصادى لدولة أو دول تقل إرادتها أو إمكانياتها فى أن تصبح لاحقة ومكملة للاقتصاديات الصناعية الغربية» .

فى الصباح التالى لنهاية الحرب العالمية الثانية، ولمواجهة هذا «التهديد»، لم يتردد القادة الأمريكيون فى استخدام چنرالات من النازيين الجدد فى شتى أنحاء العالم!

سياسة التعاون مع النازى ، بعد الحرب العالمية الثانية ، فى كل أمريكا اللاتينية ، كانت لها سابقة بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن مع الفاشية!

منذ عام ١٩٢٢ امتدح السفير الأمريكى فى إيطاليا «التقدم نحو روما» لموسولينى الذى قضى على أى ديموقراطية فى إيطاليا ، بوصفها «الثورة الجميلة والشابة» . وشرح لماذا قد يكون الفاشيون العامل الأقوى فى الضغط على البلاشفة ومواجهتهم . ومن ثم تمتعت إيطاليا الفاشية بوضع خاص من جانب الإدارة الأمريكية ، وكانت إحدى الدول الأولى

بالرعاية فيما يخص تسوية ديون الحرب والاستثمارات الأمريكية المتدفقة. فى عام ١٩٣٣، **تحدث تيودور روزفلت عن موسولينى بوصفه «هذا الجنتلمان الإيطالى المهذب واللطيف»**.

فى عام ١٩٣٧، أكدت إدارة الدولة الأمريكية بأن «الفاشية أصبحت روح إيطاليا»، «لقد وضعت حدا للنظام الفوضوى وفرضت نظاما خاصا إيطاليا» على البطالة والإفلاس. وحتى غزو إثيوبيا، لم يغير بالمرة العلاقة الحميمة مع إيطاليا. وقد برر السفير الأمريكى لونج ذلك بأنه «بدون هذا التوجه، كانت البولشفية على وشك النجاح فى مراكز التصنيع والمقاطعات الزراعية، حيث تتحكم الملكية الخاصة».

(شميت: «الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية» وجاديس: «السلام الطويل» أكسفورد ١٩٨٧)

اعتبرت إدارة الدولة الأمريكية فى عام ١٩٣٧، الفاشية متوافقة مع المصالح الاقتصادية الأمريكية، بما يعنى ــ أيضا ــ توافقها مع المفهوم الأمريكى «للديموقراطية».

ولم يكن الوضع مختلفا فى تقييم ومعاملة هتلر. **ففى عام ١٩٣٣ كتب القائم بالأعمال الأمريكى فى برلين لواشنطن، بأن الأمل فى ألمانيا يتوقف على الجناح المعتدل فى الحزب الذى يقوده هتلر.. الذى يخاطب كل الأشخاص المتحضرين والعقلاء (المرجع السابق)**.

وبما أن المحور ــ ألمانيا وإيطاليا ــ (عقب بيرل هاربور) لم يهاجم أمريكا، بقيت هذه النظرة للفاشية والنازية دون تغيير!

بعد الحرب، استمرت نفس السياسة بطرق مختلفة. منذ عام ١٩٤٣ انسحبت قوات الدوتشى من جنوب إيطاليا بنصائح من تشرشل الذى

تذكر شبح البولشفية الزاحفة، وقد دعمت الولايات المتحدة ملك إيطاليا الذى تعاون مع النظام الفاشى. وفرضت ديكتاتورية المارشال «بادوجليو»، مثلما أرسى روزفلت فى الجزائر فى عام ١٩٤٢، حكم الأميرال دارلان وليس حكم الچنرال ديجول. فقد كان الهدف فى كل أوروپا منع وصول أى من قوى مقاومة الفاشية للحكم، والتى أسهم الشيوعيون والاشتراكيون فيها إسهاما رئيسا(١٠).

«عقب سلسلة الهروب، فى عام ١٩٧٦، طبقا لتقرير بيك فى الكونجرس، عرفنا كل أوجه التدخلات للسى آى إيه فى الحياة السياسية الإيطالية: لقد وُضع تحت المساءلة والإحاطة الدعم الذى تعدى ٦٥ مليون دولار للأحزاب السياسية المؤيَّدة والمختارة ومعاونيهم، ما بين عام ١٩٤٨ وبداية السبعينيات. فى عام ١٩٧٦ سقطت حكومة ألدو مورو فى إيطاليا عقب ثبوت أن سى آى إيه قد صرفت ٦ ملايين دولار دعما لمرشحين معادين للشيوعية».

(ديڤيد ماك ميشيل «أكاذيب عصرنا». (أغسطس ١٩٩٠)

* * *

وقد جُنِّد مجرمو حرب نازيون خطرون من قبل جهاز الاستخبارات الأمريكية (CIA) والأجهزة المعادية للمقاومة. ومن أشهر هؤلاء ـ لا شك ـ كلاوس باربى. وقد أخرج القوميسير الأعلى الأمريكى چون جى ماك كلوى من السجن مجرم حرب نازيًا أسوأ من باربى اسمه «فرانز سيكس» وقد عمل لمصلحة رينهارد جيهلن الذى أوكلت إليه مهمة تطوير «جيش سرى» تحت الرعاية الأمريكية بمرافقة قدماء من الـ «وافن إس

إس»(*) وخبراء آخرين من «اللويهر ماشت»(*)؛ مقدمى الدعم للقوات الهتلرية العسكرية فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوڤيتى، وقد قدم هؤلاء الألمان مساعدات جمة للاستخبارات الأمريكية، استمرت إلى ما بعد الخمسينيات.

وقد أوكل إلى جيهلن نفسه، الذى شغل منصب رئيس الاستخبارات العسكرية النازية على الجبهة الشرقية، أوكل إليه منصب مدير جهاز الاستخبارات والاستخبارات المضادة من جديد فى الدولة الألمانية الغربية الحديثة تحت المراقبة اللصيقة والقريبة من السى . آى . إيه .

(كريستوف سيمبسون «بلو باك» الناشر : ويدنفلد ونيكلسون ١٩٨٨)

وقد بدأ فى الواقع «الرعب الكبير» فى الولايات المتحدة بأزمة عام ١٩٢٩؛ التى أدت بالبورصة إلى الانهيار إثر المضاربات المالية التى أفضت إلى إفلاس عدد كبير من البنوك والمؤسسات وإلى ارتفاع معدلات البطالة والتى بلغت ٤ ملايين عاطل عام ١٩٣٠، ووصلت إلى ٧ ملايين عاطل عام ١٩٣١، وأحد عشر مليونا فى عام ١٩٣٢ . ولم يؤد انتخاب فرانكلين روزفلت ومنظريه الذين حاولوا تقديم مفهوم جديد للاقتصاد «الصفقة الجديدة The New Deal »، لم يؤد إلى حل الأزمة. وفى عام ١٩٣٧ انخفض العائد القومى بنسبة ١٣٪ وكذا فرص العمل بنسبة ٣٠٪ . .

أخرجت الحرب العالمية الثانية وحدها الولايات المتحدة من أزمتها.

وإن كان روزفلت قد رفض مساعدة فرنسا الخاسرة عام ١٩٤٠، إلا أنه اتفق مع إنجلترا على قانون «الاقتراض والإيجار» الذى حرك الإنتاج الأمريكى بصناعة آلاف المركبات، والطائرات، والدبابات والمدافع.

(*) جواسيس أقرب إلى الطابور الخامس الألمانى.

وقد أعطى الهجوم اليابانى الذى تم دون إعلان حرب على القاعدة البحرية الأمريكية فى پيرل هاربور فى ٧ من ديسمبر عام ١٩٤١ ، أعطى المبرر الكافى لقرار روزڤلت بالاشتراك فى الحرب بالطريقة التى يريدها . وقد سمحت القوة الاقتصادية لروزڤلت ، حتى قبل الاشتراك المتأخر فى الحرب ، بأن يصبح محرك اللعبة كلها بالنسبة إلى أوروپا الغربية . ففى يناير عام ١٩٤٣ فى الدار البيضاء (كازابلانكا) ، وفى طهران فى ديسمبر عام ١٩٤٣ ، وفى يالطا عام ١٩٤٥ ، كان روزڤلت هو المحاور الرئيسى لستالين لتنظيم العالم وتقسيمه فى مرحلة ما بعد سقوط هتلر .

وقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب مهيمنة على مقاليد الأمور ، وهو موقف ليست له سابقة على مر العصور والتاريخ . وقد أصيب منافسوهم الصناعيون بالضعف والخور ، بينما تضاعف الإنتاج الصناعى فى أمريكا أربع مرات خلال سنوات الحرب .

وامتلكت الولايات المتحدة فى نهاية الحرب نصف ثروة العالم . فى حين بلغت خسائرها البشرية حدا لا يذكر إذا ما قورن بخسائر باقى العالم . تلك الحرب ، كلفت ألمانيا أكثر من سبعة ملايين ونصف المليون من القتلى ، نصفهم من المدنيين ، وروسيا أكثر من سبعة عشر مليونا ، بينهم عشرة ملايين مدنى ، وإنجلترا وفرنسا مليون قتيل ، بينهم ٤٥٠ ألف مدنى ، والولايات المتحدة ٢٨٠ ألف جندى ، (أى ما يمكن مقارنته بعدد قتلى حوادث السيارات هناك خلال فترة الحرب) .

* * *

وقبيل حرب كوريا فى عام ١٩٥٠ ، أبرز التقرير الذى حدد الخط السياسى للولايات المتحدة الأمريكية : المذكرة السياسية لمجلس الأمن

القومى ٦٨ (NSC 68) المحرر من قبل پول نيتز، الذى خلف چورچ كينان فى رئاسة إدارة الدولة لفريق التخطيط. وقد استبعد چورچ كينان هذا، لأنه عُدّ شغوفا أكثر مما يجب بالسلطة. وقد كتب فى عام ١٩٤٨:

«نحن نملك حوالى ٥٠٪ من ثروة العالم، غير أننا نمثل ٦,٣٪ من سكانه فقط. . وفى مثل هذا الوضع، لا يمكن تجنب أن نكون هدفا للضغينة والغيرة. فمهمتنا الحقيقية، فى الفترة القادمة، هى تطوير نظام للعلاقات يسمح لنا بالحفاظ على هذه المكانة، دون تعريض أمننا القومى للخطر. ولتحقيق هذا؛ علينا أن نتخلص من أى رومانتيكية، وأن نكف عن الحلم، مع البقاء متيقظين. ويتعين أن يكون كل تركيزنا منصبا على أهدافنا القومية المباشرة والفورية، وألا يصيبنا الغرور. ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا اليوم باتباع رفاهية حب الغير والخير على الصعيد العالمى. وينبغى أن نتوقف عن الحديث عن أهداف كبيرة غير محددة فيما يخص الشرق الأقصى، فهو غير قابل للتنفيذ، وكذلك حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، وإرساء الديموقراطية. ولن يكون بعيداً اليوم الذى سيكون علينا فيه استخدام القوة».

(دراسات سياسة التخطيط (.P.P.S لـ ٢٣ فبراير ١٩٤٨)

وقد قدم پول نيتز فى خطة «الصقور» تعريفا أكثر وضوحا لتحديد الأهداف وتعيينها بقوله: «**إن الولايات المتحدة تملك لاشك قوة عالمية لذلك وجب نصب عدو شامل (فى إشارة واضحة إلى الاتحاد السوڤيتى) وتحويله إلى شيطان بطريقة تبرر أى تدخل أو اعتداء من قبل الولايات المتحدة، واعتباره رد فعل دفاعيا لتهديد شامل تعرضت له مسبقا، دفع بها لاتخاذ هذا الإجراء**».

وأضحت «إمبراطورية الشر» منذ ذلك الوقت ممثلة فى الاتحاد السوڤيتى: فلم تكن كوريا أو ڤيتنام مثلا دولتين غازيتين للولايات

المتحدة، بل كانت الولايات المتحدة هى الغازية . وعلى بعد أكثر من عشرة آلاف كيلومتر من حدودها، أعلنت الولايات المتحدة أنها فى حالة دفاع شرعى!

ولم يكن الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩١٧ يُعّد قوة عسكرية هائلة نتيجة الجرح الغائر الذى منى به أثناء الحرب العالمية الأولى. لكنه كان يمثل خطرا داهمًا على استمرارية النظام الرأسمالى نفسه. نظرًا إلى «العدوى» التى ينقلها لكثير من النظم المحيطة.

إن أمن الولايات المتحدة كان فى خطر، ليس فقط منذ عام ١٩٥٠ ولكن منذ عام ١٩١٧، وتدخلها كان دفاعياضد التغيير الذى نشأ فى النظام الاجتماعى فى روسيا وإعلان التوجهات الثورية.

(جاديس Gaddis :«السلام الطويل». أكسفورد ١٩٨٧)

ولهذا كتب السيناتور وارين هاردينج الذى تم انتخابه بعد ذلك ليصبح رئيسا: «البولشفية تهديد يجب أن يسحق. . الوحش البولشفى يجب القضاء عليه».

(شميتز Schmitz : «الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية». برينستون ١٩٨١، صفحة ٤٠)

واعتبر وجود الاتحاد السوفيتى ـ فى حد ذاته ـ اعتداء، ومن حق الولايات المتحدة «الدفاع» عن نفسها فى أى مكان على سطح الكوكب. وقد حددت أهداف «الحرب الباردة» ـ بوضوح ـ فى الخطاب السياسى لمجلس الأمن القومى عام ١٩٦٨: **«إن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد فقط دولتنا، لكن أيضا الحضارة ذاتها. والهجمة على مؤسسات العالم الحر أصبحت عالمية، وتفرض علينا باعتراضها لمصالحنا الخاصة مسئولية ممارسة «القيادة» العالمية».**

وأصبح الاحتواء الشامل عبر الطبقة الحاكمة للصحافة والكتاب، والجامعات، والسينما والتليفزيون، مقبولا برحابة صدر «للرأى العام» من خلال هذه النظرة للعالم.

قد سبق وأفشى ألكسيس دى توكڤيل Alexis de Tocquevile هذه التحفظات والنظرة المحافظة فى كتابه عن «**الديموقراطية الأمريكية» فى عام ١٨٤٠: «لا أعرف دولة يوجد بها هذا القدر القليل أو المنعدم لاستقلالية العقل والمناقشة كما فى الولايات المتحدة»**. وفى عام ١٨٥٠ كتب المؤلف هنرى ديڤيد ثورو، أحد المنشقين القلائل عن هذا الإطار (مؤلف «ولدن» أو الحياة فى الغابات): «لا توجد حاجة إلى قانون للسيطرة على حرية الصحافة. إنها تقوم بذلك بذاتها وأكثر من الواجب».

لقد وصل المجتمع إلى عقد اجتماعى حول الأشياء التى يمكن التعبير عنها، متوافقا بذلك ضمنيا على تجريم ما عدا ذلك، بحيث لا يجرؤ امرؤ فى الألف على التطرق إلى أى شىء آخر.

إنه بذلك يصبح أكثر صحة: القول الذى يضيفه نعوم تشومسكى بأنه لا يوجد امرؤ فى الألف قادر على التفكير فى أى شىء مختلف، بذلك يمارس نظام السيطرة على الفكر المتبع عمله بطريقة ناجحة.

فى القرن العشرين، أصبحت تلك السيطرة على الفكر أكثر إحكامًا. شخصيات عامة، وباحثون فى العلوم السياسية، وصحفيون، وممثلو الصناعة، ورجال العلاقات العامة التى يتعاظم نموها، وآخرون. **اعترفوا بأن فى بلد يصبح فيه صوت الشعب مسموعًا يكون ضروريا أن يظل هذا الصوت يقول ما يتناسب مع النظام العام.**

وفى دولة قائمة على العنف الداخلى أو أوتوقراطية، يكفى التحكم

فيما يفعله الناس، ويكون ما يفكرون فيه قليل الأهمية. وعندما يكون عنف الدولة محدودًا،يصبح من الضرورى التحكم فيما يفكر فيه الناس.

هذا الوضع معروف بوضوح فى دوائر النخبة، حيث يؤكدون على أهمية «تدبير الموافقة» (إذا استخدمنا عبارة ولتر ليبمان Walter Lippman الصحفى المرموق والمحلل السياسى) أو «صناعة الموافقة» (كما يقول إدوارد برنايز، الشخصية المؤثرة، ويحظى بقدر كبير من الاحترام فى مجال صناعة العلاقات العامة)، للتأكد من أن السكان سيرضون بقرار قادتهم ذوى البصيرة(*).

أحد الانتقادات النادرة لتلك المفاهيم، كتبه المتخصص فى العلوم السياسية روبرت داهل، وقال: « لو افترضنا أن الاختيارات السياسية مفروضة على النظام من قبل القادة (فى عالم المال وسواه) بهدف استخلاص مايريدون، إذن نموذج الديموقراطية الذى يرتضيه الشعب يساوى باختصار نموذج السيطرة الشمولية».

(نعوم تشومسكى: «الأيديولوچية والسلطة». الناشر EPO صفحة ١٢١، ١٢٢)

* * *

بناء على هذا الأساس من إدارة الرأى العام، أو إن صحت الترجمة «إشغال الرأى العام» وتكوينه كما تصنع ربة المنزل رداء من التريكو، استولى القادة الأمريكيون على مقاليد الأمور فى العالم.

الهم الأول لأجنحة السلطة، هو حماية الأفنية الخلفية فى أمريكا اللاتينية.

(*) اقرأ كتاب إدوارد سعيد ونعوم تشومسكى: «صناعة الإجماع».

الخطر الأكثر فداحة عقب الحرب، كان التهديد الذى مثلته فى جواتيمالا الحكومة الشعبية للرئيس أربنز حين قامت بإلغاء المميزات التى حصلت عليها «يونايتد فروت» والشركات البترولية الأمريكية.

ولتجنب التدخلات العسكرية المباشرة المستمرة، اهتمت مذكرة بتعريف الإجراءات اللازمة لإدماج القوات العسكرية الأمريكية اللاتينية فى النظام الأمريكى عبر «التشجيع»، جاء فيها:

«يجب زيادة حصة الأشخاص المؤهلين من أمريكا اللاتينية للتدريب فى المدارس العسكرية وفى مراكز التدريب فى الولايات المتحدة، بما فى ذلك الأكاديميات العسكرية، وتوطيد علاقات حميمة بين الخاصة من العسكريين الأمريكيين واللاتين الأمريكيين، بطريقة تشجع ــ من جهة ــ العسكريين من أمريكا اللاتينية على تفهم واستيعاب أهداف الولايات المتحدة، والاعتراف بأن المنظمات العسكرية فى غالبية الدول فى أمريكا اللاتينية تلعب دورا مهما فى سياسة الحكومة الأمريكية، والبحث ــ من جهة أخرى ــ عن التنسيق الكامل معهم، حسب المواصفات الأمريكية، فى المنظمة (المؤسسة) والتدريب والعقيدة والتسليح (العتاد) للقوات المسلحة، بهدف الاستعداد لإرسال جنود آخرين أو قوات عسكرية فى أمريكا اللاتينية، مع التأكد التام بأن العتاد الأمريكى سيكون هو المستخدم فى أى صراع هناك. مع ملاحظة أن هذه الإجراءات يقصد منها إدخال جيوش أمريكا الجنوبية فى البنية القيادية العسكرية للولايات المتحدة لمواجهة أعدائنا التاريخيين فى أمريكا اللاتينية: أوروبا والسكان الهنود».

(مجلس الأمن القومى : NSC5432)[١١]

عندما أدى طغيان القتلة - بدءا من الفساد حتى الارهاب - إلى استحالة استمرارهم فى السلطة، استبدل قادة الولايات المتحدة بهم قادة

«منتخبين» كما فى الأرچنتين، والبرازيل، وپنما (بعد استخدام نورييجا) وفى نيكاراجوا وذلك فى محاولة - بعد موت ٣٠ ألف شخص - لعمل «سوموزية بدون سوموزا».

* * *

وطُرحت المشكلة بطريقة حادة فى أوروپا صبيحة الحرب العالمية الثانية. الخطر كان مزدوجا كما أكدت السى آى إيه منذ عام ١٩٤٧، والأكثر خطورة بالنسبة إلى أمن الولايات المتحدة هو احتمال الانهيار الاقتصادى فى أوروپا الغربية وما يعقبه من نتائج، مثل: «وصول عناصر شيوعية إلى السلطة». ولإيقاف هذا الخطر المزدوج، أعلن قادة الولايات المتحدة عن «خطة مارشال الموجهة إلى إعادة بناء أوروپا» بشروط سياسية حازمة: أولها عزل الشيوعيين من الحكومات الغربية.

الاستجابات الغربية كانت واضحة.

- الوزراء الشيوعيون الفرنسيون استبعدوا فى ٤ من مايو عام ١٩٤٧.

- والوزراء الشيوعيون الإيطاليون استبعدوا من الحكومة فى ١٣من مايو عام ١٩٤٧.

- الوزراء الشيوعيون البلچيك استبعدوا من الوزارة فى الشهر ذاته.

وعقب تلك الإقصاءات، فى الخامس من يونيو عام ١٩٤٧، أُعلن رسميا عن «مشروع مارشال». وتلك النتائج المترتبة عليها جعلت من الممكن تطبيق هذه الخطة التى تحمل أيضا فى طياتها وسيلة للضغط السياسى، وبرنامجا للتصدير وللإعلان عن الصادرات الأمريكية إلى أوروپا.

وكانت المعونة الهدف الأقل أهمية لمشروع «مارشال». ورصدت دراسة مؤرخة فى إبريل عام ١٩٤٧ ظاهرة أن المعونة الأمريكية يجب أن

توجه فقط « إلى البلدان ذات الأهمية الإستراتيچية الأساسية للولايات المتحدة، إلا فى حالات نادرة جدا، حيث تسنح الفرصة للولايات المتحدة عن طريق هذه المعونة للحصول على الرضا العالمى نتيجة فعل إنسانى استعراضى» .

(Joint Chiefs of Staff. (1769 / 1))

أعرب وزير الخارجية دين أتشيسون وبعض النواب الأمريكيين عن الموافقة، فى عام ١٩٥٠ ، على هذا المبدإ: « إذا حلت المجاعة بالقارة الصينية، وجب على الولايات المتحدة تقديم القليل من المساعدة، لا لمقاومة المجاعة نفسها، وتعنى فقط بقدر ما تكون كافية لإحراز نقطة فى الحرب النفسية» .

(Stephen Shalom: Z Magazine ستيفان شالوم، أكتوبر ١٩٩٠)

ولوضع أساس أكثر قوة لتلك العملية السياسية الاقتصادية، أثنت مذكرة مجلس الأمن القومى ٦٨ فى عام ١٩٥٠ على إستراتيچية العودة إلى الوراء والإسراع فى إبراز وكشف المثالب الداخلية للنظام السوڤيتى ودق أول مسمار فى نعش هذا النظام، عن طريق عدد من الدسائس السرية، وفى الوقت ذاته إجراء مفاوضات أخرى تسمح بالوصول إلى اتفاق مع الاتحاد السوڤيتى .

وقد شملت الوسائل السرية فى ذلك الوقت إرسال توريدات، وعملاء سابقين لجيوش النازى التى كانت تحارب فى الاتحاد السوڤيتى وفى أوروپا الشرقية، كذلك وضع إدارة جهاز الاستخبارات والجاسوسية لألمانيا الغربية فى يد راينهارد جيهلن، الذى أدار جهاز الاستخبارات العسكرية النازية على جبهة الشرق، مع توظيف مجرمين نازيين للتعاون مع المشروع الشامل لما بعد الحرب . وعندما كان يصعب حماية عملاء من هذا النوع فى أوروپا، كان يتم إرسالهم لاستكمال مهمتهم فى أمريكا اللاتينية .

وتلك كانت هى حالة كلاوس باربى الذى أرسل إلى بوليڤيا، وقد ساهم إيجابيا فى انقلاب عام ١٩٨٠، حيث كانت جرائمه أكثر دموية من تلك التى ارتكبها فى فرنسا تحت حكم هتلر.

(نعوم تشومسكى : Deterring Democracy الناشر فيتناج ص ٣٩٦)

انتهاء الحرب فى عام ١٩٤٥، ثم انهيار الاتحاد السوڤيتى فى عام ١٩٨٩، وضعا الولايات المتحدة أمام المشكلة الصعبة، وهى تبرير استمرار سياسة التسليح أمام شعبها، إذ إن تلك السياسة هى أحد العناصر الأساسية وغير المستغنى عنها لعمل الاقتصاد الأمريكى.

وطرح شبح السلام غير المرغوب فيه أسئلة معقدة. إنه يهدد مباشرة الاستمرار المنتظم للبرامج العسكرية التى يستند عليها - منذ سنوات ما بعد الحرب - الجانب الأكبر من إدارة اقتصاد الدولة. وقد صرح الچنرال إدوارد ميير القائد الأعلى السابق للجيش، بأن جيشا على قدر عظيم من التكنولوچيا، مع مالديه من الدبابات المتقدمة والطائرات بدون طيار والأسلحة الإلكترونية المعقدة، يستوجب استثمارات عالية تؤمن «عوائد كبيرة للصناعة فى الخارج». وكل ذلك لهدف مشكوك فى صحته، وهو وجود الأهداف العسكرية.

إن الأمل فى رؤية تطور تلك التكنولوچيا ضعيف إذا غاب العدو. كيف يمكن دفع شعب إلى أن يسدد فاتورة النفقات العسكرية، بينما لا يمكن إخافته بتهديده باستخدام الخطر الشيوعى، الزعم الذى فقد مصداقيته؟

(«وول ستريت چورنال» ٣١ من أغسطس عام ١٩٨٩)

كان يجب إذن البحث عن بدائل لـ «إمبراطورية الشر». ولذلك برز كل من «الحق فى التدخل الإنسانى» أو «حماية الحقوق» أو «حرب المخدرات».

وأصبحت إمبراطورية الشر الجديدة ممثلة بعد ذلك فى العراق. طوال سنوات كان صدام حسين يمثل للولايات المتحدة خطًا دفاعيًا ضد الإسلام المتجسد فى إيران الخومينى. لم ترفض الولايات المتحدة أن تمد بالسلاح من وصفه كتاب فرنسى بـ «ديجول العراقى». لكن منذ أن أراد استرجاع نصف إنتاجه البترولى الذى حرم منه فى عام ١٩٦٢ عن طريق تهديد عسكرى ـ على الطريقة الاستعمارية ـ للكويت، تدخلت الولايات المتحدة وأتباعها لحماية «الشرعية» و«القانون الدولى» ضد هذا العدوان. بعد أن قبلت توجيه «الڤيتو» الذى تملكه ضد أى عقوبات ضد إسرائيل، كمكافأة لها على اعتداءاتها على فلسطين وعلى سوريا فى الجولان.

والهدف هنا من هذه الحرب، أى حرب الخليج الثانية «ضرب المثل» الواضح «للعالم الثالث» بأكمله، بأنه غير مسموح لأى شعب، بأن يصل إلى أعلى المستويات التقنية وأن يستخدم ثرواته القومية (مثل: البترول) دون سيطرة القوى الكبرى، سواء فى الأسعار أو غيره، وبالأخص محاولة الهروب من الدين الذى لا يجرؤ أحد على التفوه باسمه لكنه مفروض على العالم كله من الولايات المتحدة: وحدانية السوق وعبادة المال. والمتجرئ يواجه الدمار وشبح الهلاك.

لقد أسفر قذف العراق ـ رواية الصليب الأحمر ـ عن أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل من السكان المدنيين، أما إحكام الحصار فقد قتل ٥٠٠ ألف طفل من جراء نقص الطعام والرعاية.

وعندما أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى السعودية فى أغسطس عام ١٩٩٠، كتب رئيس القسم الديپلوماسى «للنيويورك تايمز» توماس فريدمان فى ١٢ من أغسطس: «إن الولايات المتحدة لم ترسل قواتها

للخليج لمساعدة السعودية فى مقاومة العدوان فقط، لكن أيضا لدعم دول الأوپك الذين هم الأكثر خدمة لمصالح واشنطن».

لقد لاحظت الواشنطن پوست أن هناك شيئا ما «غير متماش وغير مطمئن تماما فى المساعى الأمريكية». كما قال توم مان مدير الشئون الحكومية فى معهد بروكلين: «بوش ما زال يتعامل مع دول الشرق الأوسط على الطريقة الاستعمارية».

(واشنطن پوست فى ١٣ من أغسطس عام ١٩٩٠)

هذه العملية الاستعمارية هى فى الحقيقة استمرار للعدوان الإنجليزى، الذى أعقب قيام الجنرال قاسم فى عام ١٩٦١ بإلغاء الامتياز (٩٤٪ من الأراضى الوطنية) المتفق عليه مع الشركات البترولية الغربية عن طريق حكومات «العرائس المفروضة» حتى ذلك الوقت من المحتل الاستعمارى.

ولخص - أيضا - سلدين لويد وزير خارجية إنجلترا أهداف إنجلترا والغرب فى الخليج الفارسى على هذا النحو:

(أ) تأمين حرية وصول البترول المنتج من دول الخليج لإنجلترا وباقى البلدان الغربية.

(ب) ضمان حرية تدفق البترول حسب اتفاقات معقودة بالجنيه الإسترلينى لتظل تحت يدنا، مع الحفاظ على توازن مقبول لاستثمارات العرب فى إنجلترا من خلال توظيف أموال البترول عن طريقنا.

(جـ) وقف أى مد شيوعى أو متعاطف مع الشيوعية، وعلى رأس ذلك ما يسمى بالقومية العربية التى هى مستخدمة من قبل السوڤيت للتغلغل والتواجد فى المنطقة.

(برقية رقم ١٩٧٩، يوليو عام ١٩٥٨. ملف إف. أو ٣٧١/ ١٣٢٧٧٩. «السياسة المستقبلية فى الخليج الفارسى»، و١٥ من يناير عام ١٩٥٨ إف. أو (F. O.) ٣٧١/ ١٣٢،٧٧٨)

ولقد سجلت وثائق أمريكية من نفس الفترة، الأهداف الإنجليزية بتلك المصطلحات المشابهة لما ورد فى برقية لويد: «المملكة المتحدة تؤكد ثباتها المالى عبر استقرار الوضع فى الخليج. إذ إن هذا الاستقرار الداخلى سيتعرض للتهديد إذا تغير الوضع وأصبح خارج السيطرة، وعلى نحو آخر، فإن إنجلترا لا يمكن أن تتخلى عن الاستثمارات الضخمة لسكان هذه المنطقة داخل أراضيها، لذلك فإن الجنيه الإسترلينى فى حاجة لدعم بترول الخليج الفارسى».

«والواقع أن حتمية الإلحاح البريطانى حول مصير البترول، تتفق مع كونه مصدراً أساسيا وحيويّا للاقتصاد فى كل أوروبا الغربية. وهذا فى حد ذاته يعد سببا كافيا لإمداد المملكة المتحدة بالدعم وبالقوة اللازمة إذا استلزم الأمر ذلك من قبلنا (الولايات المتحدة) لضمان استمرار السيطرة على بترول الكويت والخليج الفارسى».

(NSC 5801 / 1 «موضوعات ساطعة فى الموقف فى الشرق الأدنى» مجلس الأمن القومى. ٥٨٢٠، ٤ من نوفمبر عام ١٩٥٨)

لقد اعتبر أيزنهاور من قبل الشرق الأوسط «المكان الإستراتيجى الأكثر أهمية فى العالم».

(ذكره ستيفن سبيجل فى: «الوجه الآخر للصراع العربى الإسرائيلى» جامعة شيكاغو ١٩٨٥ ص٥١)

فى صبيحة الحرب العالمية الثانية، حددت الولايات المتحدة معالم خططها الجيوسياسية، إذ إن مجموعات بحث فى « معهد العلاقات الخارجية» (المؤثر جدا فى عالم المال وفى عالم السياسة الخارجية)، ووزارة الخارجية، قد وضعا مصطلح ما يسمى بـ«المجال الكبير»، وهو ما يجب أن يظل خاضعًا لمصالح الاقتصاد الأمريكى، ويجب أن يضم

على الأقل نصف العالم الغربى والشرق الأقصى والإمبراطورية البريطانية القديمة. «وبرغم خضوعها، فإنه يجب - مع ذلك - فى حدود الممكن تنميتها وتطويرها لتكوّن نظاما كاملا ومستقلا نسبيا، وتضم فى كل الأحوال أوروبا الغربية وخزانات الطاقة بالشرق الأوسط والتى تتحول لتصبح فى يد الولايات المتحدة».

(نعوم تشومسكى: «الأيديولوچية والسلطة». الناشر إبو ص ٢٠)

« إن المفهوم الأمريكى للأمن القومى . . يضم كذلك مجالا للتأثير الإستراتيچى، الواقع فى نصف الكرة الأرضية الغربى، مجالا مثل باقى المجالات لكن قلبه هو أوروبا، ويجب أن يمثل هذا التأثير الإستراتيچى - أيضا - سيطرة اقتصادية . إن الهيمنة على المحيطين الأطلنطى والهادى تعد نظاما موجها على امتداد القواعد الخارجية لبسط الحدود الإستراتيچية واستعراض القوة الأمريكية، واضعة نظاما أكثر قابلية للتمدد من أى نظام آخر، وكذلك مؤثرا بحق المرور أو الاجتياز الذى يملكه ويفرضه، وذلك لتسهيل تحول أى منطقة من قاعدة اقتصادية إلى قاعدة عسكرية . ويوفر له ذلك سهولة فتح المجال للوصول إلى الموارد وللأسواق فى أوروبا وآسيا . وكذلك غلق أى إمكانية للوصول لهذه الموارد أمام أى عدو محتمل . والحفاظ على التفوق النووى يمثل ركيزة لمثل هذا الفكر الاستعمارى .

لقد سمح هذا المفهوم الإستراتيچى بفهم أكبر لديناميكية الحرب الباردة بعد عام ١٩٤٨ » .

(ميلفين ليفلر «الولايات المتحدة والأبعاد الإستراتيچية لخطة مارشال» التاريخ الديبلوماسى صيف ١٩٨٨)

إن سياسة زيادة التسلح قد لعبت دورا مهما وقاطعا فى هذه البرمجة، «لأنه يبدو واضحا وجود إمكانية التمويل الدائم للتسلح فى هذا البلد».

(مجلة وول ستريت ١٩٥١)

إن الإنفاق العسكرى الأمريكى قد بنى وقوّى الإنتاج الصناعى الأوروبى بصورة لا يمكن إنكارها، وشراء العتاد الإستراتيچى الخام من المستعمرات الأوروپية قد قلل عجز الدولار بنسب ساعدت على سرعة تنفيذ مشروع مارشال فى بريطانيا العظمى والتى استُبعدت فى عام ١٩٥٠، على الرغم من أنه عقب هوجان، كانت النتائج بعيدة المدى قد جاءت متعارضة مع ما كان متوقعا. بينما فى حالة اليابان، كانت الإنفاقات العسكرية الأمريكية وخاصة فى الحرب الكورية تلعب دورا رئيسا فى الإسراع بإعادة الصناعة عقب الحرب.

كوريا الجنوبية استفادت فى نفس الوقت وبنفس الطريقة كباقى حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية فى تطوير صناعتها.

كان دور العالم الثالث هو خدمة المجتمعات الصناعية. فى أمريكا الجنوبية، كما فى العالم أجمع:

«كانت حماية مواردنا الطبيعية ـ كما قال چورچ كينان ـ أساسية منذ أن هددت القبائل الهندية مصالحنا. كان علينا أن نفهم أن الرد المهذب يمكن أن يعود علينا بردود غير مرغوب فيه. إن الإجراءات التعسفية، وقمع أجهزة الشرطة فى الحكومات الصديقة لايمكن أن تحركنا أو تؤثر فى مشاعرنا، لأن النتائج قد خدمت أهدافنا بطريقة عامة. ومن الأفضل كثيرا أن نضع فى السلطة نظاما قويا بدلا من حكومة ليبرالية متسامحة ولينة ومتعاطفة مغ الشيوعيين.

وفى الخطاب الأمريكى، تستخدم كلمة «شيوعيون» مصطلحا فنيا، يُقصد به القادة النقابيون، ومنظمو جموع الفلاحين والمجموعات الخاصة

لتقديم المساعدات المدعومة من رجال الدين، وكل الذى يدافعون عن أهداف غير سليمة سياسيا. والأهداف السليمة مُعرَّفة على أعلى مستوى عبر وثائق فى غاية السرية.

يأتى التهديد الأكبر للمصالح الأمريكية من الأنظمة القومية، التى هى على اتصال مع نبض شارعها، وترمى إلى تحسين مستوى المعيشة المنخفض لدى الكتل الشعبية، وتصبو - كذلك - إلى تنويع موارد الاقتصاد. تلك المطالب تتصادم، ليس فقط مع ضرورة حماية «مواردنا»، لكن أيضا مع اهتمامنا بتوفير مناخ يتوافق مع طبيعة الاستثمار الخاص، ويؤمن الاستفادة المعقولة من الربح لرءوس الأموال الأجنبية».

(مجلس الأمن القومى، ١٨ من أغسطس عام ١٩٥٤)

فى يناير عام ١٩٩٠ نقلنا عن وزير الدفاع ديك شينى الذى شارك الرئيس بوش فى وجهة النظر هذه: «إن الولايات المتحدة فى حاجة دائمة لأسطول قوى وكل القوات اللازمة للتدخل عامة، لمواجهة النزاعات الخفية التى تنشب، ولحماية المصالح الأمريكية فى آسيا وأمريكا الجنوبية.

وفى المستقبل ستكون قواتنا العسكرية عنصراً فاعلا أساسيا فى ميزان القوى، لكن مشاركتها ستتأكد بطريقة مختلفة. وهذا يحتم تطوير قدرات جديدة وإيجاد حلول ومعالجات خاصة».

* * *

أما التطورات الحالية للسياسة الاستعمارية فى فلسطين، فتظهر الولايات المتحدة فيها إفلاسها يوما بعد يوم، وكذلك فيما يسمى بعملية السلام، هذا المصطلح العبثى، إذ لا يمكن أن يكون هناك سلام إلا بتطبيق

قرارات الأمم المتحدة ، وبخاصة القرارات التى عالجت احتلال الضفة الغربية وبناء المستعمرات، ووضع القدس.

اتفقت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على استكمال مساعيهما الديبلوماسية من أجل تفتيت «خطر» عملية «حقيقية» للسلام. فى عام ١٩٨٩ ، اقترحت الحكومة الائتلافية من حزبى العمل والليكود خطة «شامير»، والصحيح أنها فى الحقيقة يمكن تسميتها خطة «شامير - بيريز». ومبادئ هذه الخطة الأساسية هى أنه لن يكون هناك دولة فلسطينية فى قطاع غزة أو فى المنطقة الواقعة بين إسرائيل والأردن، وأن إسرائيل لن تعقد أى مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بشكلها الثورى قبل اعتراف منها بدولة إسرائيل، ولن يكون هناك تغيير فى وضع الضفة الغربية وغزة بعيدا عن الخط المحدد من حكومة إسرائيل التى ترفض إعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير. كما ذكرت عبارة «لن تكون هناك دولة فلسطينية أخرى»، مما يعكس الرأى الأمريكى الإسرائيلى المشترك القائل بأن هناك دولة فلسطينية قائمة بالفعل هى «الأردن»، ومن هنا فإن حق تقرير المصير للفلسطينيين يعد أمرا غير قابل للمناقشة.

وعلى عكس ما يعتقده الفلسطينيون والأردنيون والأوروبيون وآخرون، فإن هذه المبادئ تعود - فى الواقع - بذاكرتهم للمبادئ أو **اللاءات الأربع المذكورة فى برنامج حزب العمل، وهى، لاعودة لحدود ما قبل ١٩٦٧، ولا وقف لبناء المستوطنات، ولا تفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، ولا دولة فلسطينية.**

والخطة تدعو - رغم ذلك - إلى انتخابات حرة وديموقراطية تحت الاحتلال العسكرى الإسرائيلى، مع استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية

إذا ما استمرت فى التمسك بمبادئها المعلنة(*). والولايات المتحدة الأمريكية صدقت رسميا على هذا المشروع. كما صرح چيمس بيكر(**) بقوله: «إن هدفنا اليوم هو أن نمضى جميعا فى اتجاه مبادرة «شامير»، ونحن لا نعرض أى خطة أو أى اقتراح آخر». وفى ديسمبر عام ١٩٨٩، أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية خطة بيكر التى اشترطت أن تتفاوض إسرائيل فى القاهرة مع مصر وبعض الفلسطينيين المفوضين ببحث إمكانية تحقيق وتفعيل خطة شامير، لكن لا شىء آخر.

(نعوم تشومسكى Deterring Democracy «ردع الديموقراطية» الناشر Vintage)

والحقيقة أن السياسة الأمريكية هى سياسة موجهة «عن بعد» عبر جهاز «للتحكم» من جماعة ضغط أو لوبى، وهو اللوبى الإسرائيلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والذى أسمته «النيويورك تايمز»: «اللوبى الأكثر فاعلية.. والذى يتمتع بنفوذ هائل فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأدنى».

أكدت النيويورك تايمز بأن هذا اللوبى يتمثل فى ٤٥ سيناتور على الأقل، إلى جانب ٢٠٠ نائب من بين ٤٣٥ نائبا. واليهود الأمريكيون الذين يمثلون ٢,٦٪ من السكان يمثلون فى الواقع، حسب رواية «مجلة فوربس»، ٢٠٪ من المليونيرات المستعدين لدفع ثمن الآراء المؤيدة لإسرائيل، من خلال لجنة العلاقات العامة الأمريكية - الإسرائيلية التى أعدت فى عام ١٩٨٧، ٦,٩٠٠,٠٠٠ دولار لهذا الغرض.

(جريدة وول ستريت فى ٢٤ من يونيو عام ١٩٨٧)

* * *

(*) أذعنت المنظمة وغيرت ميثاقها فى نهاية التسعينيات.

(**) وزير الخارجية الأمريكى آنذاك.

عقب انهيار الاتحاد السوفيتى، تحول الهدف الرئيسى للسياسة الأمريكية إلى العمل على «وضع اليد» والسيطرة على الدول التى تشق طريقها نحو التنمية.

لقد ردعت الولايات المتحدة بقوة دول الجنوب، ومنعتها من استخدام مواردها لخدمة شعوبها. لقد تم هذا الردع بطريقة نموذجية كما حدث من قبل فى إيران، إذ خططت الولايات المتحدة للانقلاب الذى أعاد الشاه ردا على المحاولات الإصلاحية الجادة للرئيس مصدق.

لقد اعترفت الولايات المتحدة - أيضا - حينئذ بخطورة التهديد القومى عبر وسائل الإعلام، بعد أن أمم مصدق البترول. ولقد أدى نجاح الانقلاب الذى أعاد الشاه وخططت له وكالة الاستخبارات الأمريكية، وقلب النظام البرلمانى لمصدق، الرئيس الوطنى المحافظ، أدى إلى أن تأخذ الشركات الأمريكية ٤٠٪ من الحصة البترولية المخصصة لبريطانيا.

لقد علقت النيويورك تايمز حينئذ على ما حدث فى افتتاحيتها موضحة الأمر على كونه «امتيازا جديدا» وفتحا عظيما. وأوضحت أن هناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من هذه التجربة. وأول هذه الدروس وأهمها - كما أوردت «النيويورك تايمز»: **«على البلدان النامية الساعية للتطور، والتى تملك موارد طبيعية لا بأس بها، أن تتعظ من هذا المثال الذى تم ضربه. فإذا اتبعت من يهذى بقومية مجنونة، فإن هذا سيكلفها دون شك الكثير. إن التجربة الإيرانية تبدو مقنعة لأى مصدق آخر، وتظهر له أن عليه أن يخلع نفسه من السلطة. كما أن التجربة ذاتها تحدد وتوضح لباقى القادة وتضىء لهم التصور المحدد لأولوياتنا»**.

(افتتاحية «النيويورك تايمز» ٦ من أغسطس عام ١٩٥٤)

لقد فرضت الولايات المتحدة هذا الإطار العام على مناطق معينة من العالم. وهكذا، حسب فريق تخطيط السياسة في وزارة الخارجية حساباته بقيادة چورچ كنان فى عام ١٩٤٨ . ولقد أوضحوا أن المهمة الأساسية فى جنوب شرق آسيا هى تقديم المواد الأولية وفتح الأسواق أمام اليابان وأوروپا الغربية. وأدى هذا الفكر إلى التدخل الأمريكى المباشر فى الهند الصينية، أولا من أجل حماية الاستعمار الفرنسى هناك، وثانيا لوضع اللبنة الأساسية للتغلغل فى المنطقة. وربما ـ أيضا ـ للتشكيك فى أن استقلال ڤيتنام سيتحول إلى «ڤيروس» معد لباقى القوميات فى كل جنوب شرق آسيا.

(ذكرها ميشيل شالر فى «تأمين الهلال العظيم»، جريدة تاريخ أمريكا، سبتمبر ١٩٨٢)

كما رأت الولايات المتحدة أنه فى الدول التى يصعب فيها التحكم فى الشرطة والعسكريين بطريقة مباشرة، يجب قلب نظام الحكم، وأن يصل إلى الحكم فيها نظام أكثر توددا للولايات المتحدة، وأن يوضع على رأس القمة والحكم «جيش دائم التواجد فى السلطة» على طريقة «الحرس الوطنى» أعوان سوموزا الذى ظل طول سنوات حكمه من المقربين للولايات المتحدة».

(مكتب الاستخبارات الأمريكية للمعلومات المتداولة ١٣ مايو. مجلة OCI العدد ١٨٠٣: ٦٥)

« إن برامج التعليم فى الكليات العسكرية الأمريكية تتغير حسب الأهداف. ولهذا أعلنت الكليات الحربية لتلاميذها أن الدراسات الإستراتيچية للحرب ستتركز حول الحرب فى الريف،ومكافحة الإرهاب، ومعالجة الأزمات «ذات التكثيف الضعيف»، أى الحرب المحدودة، وعلى

سبيل المثال: غزو بنما، لأن الصراعات المحتملة قد تستوجب حربا «متوسطة الكثافة» مع العدو القوى فى العالم الثالث، مما يحتم اهتماما خاصا. وبالأخص إذا اعتبرنا القوة احتياجا حيويا لفرض السيطرة على أقاليم ومناطق جديدة للحفاظ على الإمكانية المفتوحة للوصول إلى الأسواق والمواد الأولية البعيدة». هكذا قال السيناتور ويليام كوهين(*)، من لجنة القوات المسلحة.

(مايكل كلير: «القوات الأمريكية تواجه الجنوب» "Nation"(جريدة الأمة)، الأول من يونيو عام ١٩٩٠)

المسألة ذاتها طرحها قائد البحرية (المارينز) إى. إم. جراى الذى قال: «إن نهاية الحرب الباردة ستعيد بلورة توجهاتنا وتوجيه سياساتنا الأمنية فى الخارج فقط، لكن دون تغيير الأساسيات. فصراع الشمال ـ الجنوب هو خط أساسى فاصل. فالمحافظة على تواصلنا مع الأسواق فى العالم، وكذلك استمرارية حصولنا على المواد الخام التى تلزمنا لدعم حاجاتنا الاقتصادية دون أى صعوبات، ستحتمان علينا امتلاك قدرة عسكرية ذات مصداقية.

فهذه القوات يجب أن تتمتع بالقدرة على الهجوم والمبادرة، وشن «حملات توسعية حقيقية»، وتتمكن من تنفيذ العديد من المهمات فى آن واحد، بدءاً من قمع التمردات أو الثورات حتى «نشر القوات من جميع الأسلحة» مرورا بالضغط عبر الحرب النفسية. يجب أن نضع فى الاعتبار التطور السريع فى المعدات العسكرية التى يمكن أن تحصل عليها القوى

(*) وزير الدفاع الحالى.

الإقليمية فى العالم الثالث، وعلينا إذن تطوير إمكاناتنا العسكرية وتوجيهها لمزيد من الاكتشافات والاختراعات فى مجالات الإلكترونيات، والعلوم الوراثية وعلوم الأحياء التكنولوچية الأخرى.. وذلك إذا كانت أمتنا ترغب فى تأكيد مصداقيتها العسكرية فى غضون القرن القادم».

(جراى: « مارين كورب جازيت» مايو عام ١٩٩٠)

لقد لاحظ المؤرخ ريتشارد إيميرمان أن «القوة والأمن الأمريكيين يعتمدان بشكل أساسى على الحصول على المواد الأولية من العالم وبالتدخل فى أسواقه الداخلية، وبالأخص فى دول العالم الثالث التى يجب أن تبقيها الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة» .

(إيميرمان، « Diplomatic History » صيف عام ١٩٩٠)

لقد تأكدت الرغبة الواضحة للإدارة الأمريكية فى الهيمنة على العالم عقب تدمير العراق. ولقد أبرزت وثيقتان للپنتاجون هذا التوجه بوضوح، الأولى تحت إدارة پول دى. وولفوفيتش، والأخرى تحت إدارة الأميرال جيريميا نائب رئيس لجنة رئاسة الأركان. وفيما يلى أربعة مقتطفات منهما :

* «الولايات المتحدة هى الضامن للنظام العالمى، لذلك يجب أن نتصرف باستقلالية فى حال وقوع كارثة تتطلب رد فعل سريعا، أو عندما يصعب تجميع موقف عالمى موحد».
* «علينا التحرك لمنع تكوين نظام أمنى بأوروپا، يمكنه تهديد توازن حلف شمال الأطلنطى».
* «إذابة ألمانيا واليابان فى النظام الأمنى الجماعى الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية».

* «إقناع جميع المنافسين المحتملين بعدم ضرورة التطفل للعب دور عالمى أكبر من الذى يلعبونه الآن بالفعل».

للوصول إلى ذلك، يجب الحفاظ على وضع القوة الهائلة الخاصة بنا وتخليد الهيمنة عبر إيقاع الهزيمة بأسلوب مدمر وقوة عسكرية تكفى لردع أى أمة أو مجموعة من الأمم عن تحدى إرادة الولايات المتحدة. وذلك يجعلنا نضع فى الاعتبار رغبات ومصالح الدول الصناعية المتقدمة لكى لا نشجعها على مجابهة القيادة الأمريكية، أو أن تسعى إلى إدانة النظام السياسى والاقتصادى الموجود».

(كتبها پول مارى دى لاجورس (مدير مجلة «الدفاع القومى» فى «لوموند ديپلوماتيك» الفرنسية، فى إبريل عام ١٩٩٢)

* * *

لقد بدأت هذه الهيمنة الأمريكية بأبشع عمليات الإبادة، ألا وهى تلك الخاصة بالهنود الحمر، واستمرت إبان عبودية واضطهاد الزنوج، وتأييد الديكتاتوريات الأكثر دموية فى أمريكا الجنوبية، ثم فى العالم بأسره، من موبوتو (*) فى إفريقيا إلى ماركوس فى الفلبين، كما أفرزت فى النهاية خلاصة ما تدعو إليه كنيستها فى هيروشيما ومجازر العراق، والأخيرتان كلفتا الإنسانية عبر التدخل المباشر أو عبر الشركاء المتجمعين مئات الآلاف من الأرواح البشرية من خلال أبشع الغارات الجوية فى مجمل التاريخ. ولنتذكر من حلقات هذا المسلسل : أربعة ملايين من

(*) حاكم زائير السابق.

القـتلى فى ڤـيتنام، ومـائتى ألف فى أمـريكا اللاتينيـة على يد زبائنهم فى السلاح، و٢٠ ألفا فى لبنان ـ وبلا أى عقوبة بفضل حق «الڤيتو» ـ ومئات الآلاف فى الفلپين، ومئتى ألف فى أمريكا الوسطى. تلك هى أعداد بعض الضحايا، ضمن آخرين.

بل إن الصحفيين الأمريكيين الأكثر جدية عندما يقيِّمون تلك الجرائم، يحسبونها طبقا لميزانية «الدولارات والموتى». فعلى سبيل المثال نذكر فيما يلى خطابا من هوج سيدنى فى مجلة «تايم» لرونالد ريجان بخصوص نيكاراجوا: «تتشابه نتيجة ما حدث فى نيكاراجوا مع ما طالما رجوناه منذ زمن طويل، طوال جهودنا لحماية الحرية، أقل الخسائر، وما حدث فعلا يعد ممتازاً. فقط ٣٠٠ مليون دولار مساعدات للكونترا، و١,٣ مليون دولار أنفقت فى الحرب الاقتصادية. تلك هى خسائر الولايات المتحدة، وإذا ما قورن هذا بڤيتنام، فإن النتيجة لصالح ما حدث اليوم»... يكمل سيدنى: ڤيتنام « ٥٨ ألف قتيل أمريكى و١٥٠ مليار دولار من النفقات، وأمة سقطت فى مرارة الهزيمة المروعة» (١٢)(*).

حول هذا الأسلوب (الذى برز بشدة منذ ذلك بالحملة على كوريا والعراق والصومال ومناطق أخرى) كان تحريض وزير الخارجية دين أتشيسون قائلا: «لو أن سياستنا الحالية تتمنى الحفاظ على تايوان، فيجب علينا أن نخفى بحرص رغبتنا فى فصل الجزيرة عن شبه القارة الصينية. وحتى إن وجب علينا التدخل العسكرى، فسيكون ذلك عن طريق «خوذات الأمم المتحدة الزرقاء» نتيجة موافقة مجلس الأمن على طلب

(*) لم يذكر كاتب الرسالة حرفًا واحدًا عن خسائر الڤيتناميين: ملايين القتلى، وملايين الجرحى، ومسح مئات القرى من الخريطة.

تقدم به التايوانيون أنفسهم الرامون إلى تحقق مطلبهم الشرعى فى تقرير المصير».

(ذكرها بروس كومينج : Plenty in Northeast Asia «وورلد پوليسى چورنال، شتاء ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨)

والأكثر فاعلية أيضا لخنق أى احتجاج أيا كان مصدره، هو استئصاله عند مصدره. حتى لو جاء الاحتجاج من القساوسة ضد فيالق الموت.

فى نوڤمبر عام ١٩٨٩ : كتب الأب إيجناسيو إليكوريا عميد الجامعة اليسوعية، والذى اغتيل فيما بعد، واصفا السلڤادور بكونها «ممزقة حقيقة بجروح شبه قاتلة». ولقد كان هذا الأب قريبا جدا من المطران روميرو، وقد كان معه عندما كتب إلى الرئيس كارتر ليشكو له بحرقة تقديم المساعدات إلى المليشيات النظامية المسلحة التى تروع القرويين والسكان. لقد أخبر المطران الأب إليكوريا أن خطابه كان بسبب «المفهوم الجديد لـ «الحرب الخاصة» والتى تتمثل فى استبعاد ـ وبطريقة دموية ـ أى محاولة للتنظيم الشعبى بحجة نشر الأفكار الشيوعية أو الإرهاب».

«إن تلك الحرب الخاصة ـ كما أطلق عليها الأمريكيون الحرب المعادية للعصيان ـ كانت مثالا لصراع «ضعيف التكثيف أو الكثافة»، أى حرب محدودة، ولم تكن تسميتها عملية قمع للاضطرابات أو للمتمردين، أو أى مسمى أمريكى آخر، يقلل من شأن الجريمة. كانت تلك الحرب موجهة ضد النهضة، ولم تكن أى شىء سوى كونها إرهابا دوليا. فقد بدا واضحا من زمن غير قريب، أن السياسة الأمريكية توجه أسلحتها وترسانتها العسكرية لتحقيق مكاسب سياسية واجتماعيةخارجية ذات أهمية كبيرة».

(إليكوريا: « الولايات المتحدة تنظر إلى ما حققه روميرو»مارس ١٩٨٥. أعيد طبعه فى جريدة اليسوعيين فى نيكاراجوا: « إنڤيو» Envio يناير ١٩٩٠)

وفى مارس عام ١٩٨٠، اغتيل الأب روميرو مطران سان سلڤادور عندما كان يقيم قداسا فى الكاتيدرائية .. ودائما كانت المبادئ «الديموقراطية الأمريكية» تفرض على أى احتجاج السكوت!

لم يفاجأ أحد من اغتيال المطران روميرو بعد قليل من التماسه المقدم إلى الرئيس كارتر لإلغاء دعمه العسكرى للمليشيات النظامية المسلحة، والذى أفصح فيه : « بأنها ـ الأخيرة ـ تستخدم الدعم فى ترسيخ الظلم والقمع ضد منظمات الشعب التى تحارب من أجل احترام حقوق الإنسان الأساسية» . لقد وضع المطران يده على القضية الأصلية التى يجب طرحها، بعيدا عن كل التعبيرات المستخدمة للتمويه، وكل الإثباتات المعقدة التى تحول دون فهم الحقيقة وتساعد على إخفائها وتشويهها .

لقد طالب «بضمان» من الولايات المتحدة « ألا تتدخل بصورة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، عبر وسائل الضغط الاقتصادى، أو الديپلوماسى أو غيرها من الوسائل التى يمكن لها أن تهدد مصير الشعب السلڤادورى» . «وقد قوبل الطلب بالوعد بإعادة النظر فى المساعدات المقدمة إلى المليشيات والفرق العسكرية إذا قُدمت إثباتات عن سوء استخدام هذه المساعدات» .

وكما اغتيل المطران، دمَّرت قوات الأمن المنظمات الشعبية، مرتكبة فظائع وجرائم بشعة كمجزرة ريوسامبل، التى أغفلتها وسائل الإعلام، وتركتها تمر فى صمت .

نشرت أميريكس واتش فى مقال بمناسبة الذكرى العاشرة لاغتيال المطران روميرو : « استمرارية السياسة الأمريكية المسيطرة وضحت فى

علاقتها مع فرقة أتلا كاتل، التى تدرب فيها الجنود على طاعة رؤسائهم الذين كانوا يعطونهم أوامر باغتيال رجال الدين الچزويت المعادين للنظام». وتكمل الجريدة: والكاتب وصف هذه الفصيلة من الصفوة «الذين صنعتهم ودربتهم وزودتهم بالسلاح الولايات المتحدة». ولقد وصف أحد أساتذة المدرسة العسكرية الأمريكية فى فورت بينينج فى چورچيا هؤلاء الجنود بكونهم «يتميزون بالوحشية»: «**لقد واجهنا صعوبات لنجعلهم يأسرون الأعداء بدلا من تقطيع آذانهم**».

وفى ديسمبر عام ١٩٨١ اشتركت الفرقة فى عملية عسكرية راح ضحيتها المئات من المدنيين بين قتل وحرق وهتك عرض، يقاربون ألف شخص حسب ما أورده مكتب الكنيسة للمساعدة القانونية.

بعد ذلك بفترة وجيزة، تورطت الفرقة فى قصف قرى وقتل مئات المدنيين، غالبيتهم من النساء والأطفال والشيوخ، بطلقات الرصاص أو بالتعذيب أو بالإغراق فى مصارف المياه. . . .

وهكذا يتلخص أساس «الحرب الخاصة» فى السلڤادور منذ أول عملية عسكرية ذات أهمية فى مايو عام ١٩٨٠، عندما تم اغتيال وتعذيب وقطع أعضاء ستمائة مدنى فى ريوسامبل. وقد اشتركت فى العملية قوات من السلڤادور وهندوراس: وبرغم كشف المذبحة من كل من الكنيسة ومحققى حقوق الإنسان والصحافة الأجنبية، فإن وسائل الإعلام الأمريكية لم تتحدث عنها أبدا، لأنها كانت تشارك فى الحرب النفسية التى حددتها حكومتها.

لقد أكدت اللجان القضائية لحقوق الإنسان فى خطاب إلى وزير

الدفاع شينى، بأن قتلة الآباء اليسوعيين «الچزويت» تم تدريبهم حتى ثلاثة أيام قبل عملية الاغتيال من قبل القوات الخاصة الأمريكية.

لقد تطرق الأب خون ديكورتينا، عميد العلوم فى جامعة الچزويت فى السلڤادور، إلى أبعد من ذلك، فقال مؤكدا: « إن الجنود الأمريكيين الذين أوقفوا بعد ذلك بعدة أيام فى فندق فى سان سلڤادور بسبب حادثة أثارت الكثير من البلبلة، كانوا هم أنفسهم الموجهين العسكريين الأمريكيين الذين دبروا العملية».

كذلك، فإن أفظع المذابح التى ارتكبتها فرقة «أتلا كاتل»قبل عدة أعوام «كانت تُنفذ عقب تدريبات أمريكية».

(لجنة المحامين. خطاب يوم ٢٠ من إبريل إلى سكرتير الدفاع ديك شينى: « **السلڤادور** على الخط». انظر أيضاً: ألكسندر كوكبرن «نيشن» ١٤ من مايو عام ١٩٩٠. والأب دى كورتينا : « كاب كودير»، أورلينز إم. إيه أول مايو عام ١٩٩٠)

* * *

بعد هذا التحديد والإيضاح لتاريخ الولايات المتحدة منذ افتراس وذبح سكان شبه القارة الأصليين وإلى أيامنا الحديثة، يجب تقييم ما يسمى بـ «الديموقراطية الأمريكية» ، والعمل على إزالة الأوهام، واكتشاف أوهام وأكاذيب «الحرية» التى تزعم أمريكا أنها الحامية الأولى لها فى كل مكان فى العالم.

أولا، داخل حدودها، تتميز الولايات المتحدة، بالتفاوت المتزايد فى الثروات وبالتالى فى السلطات.

فى عام ١٩٠٠، كان ثُمن العائلات الأمريكية يتحكمون فى سبعة أثمان الثروة القومية.

(أندريه مورروا، «الولايات المتحدة الأمريكية» الناشر پرس دى لاسيته ص ١٧)

فى بداية القرن العشرين، وصف چيمس تروسلو آدمز تحت عنوان : « عصر الديناصورات» السيادة الوحشية للمؤسسات البنكية والصناعية، على نفس النحو الذى مثله أحد الأفلام الحديثة لهوليوود، والذى صور عودة الزواحف العملاقة لتحكم الأرض مرة أخرى، كما لو كانت موعظة ذات إسقاطات بعيدة النظر تمثل عالمنا منذ ذلك الوقت.

هذه الفوارق فى المساواة لم تتوقف عن النمو :

« حسب تقارير البنك الدولى، من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٨، انخفض مقدار الثروة الذى تتحكم فيه الدول الفقيرة والأكثر فقرا من ٢٣٪ إلى ١٨٪. أوضح تقرير البنك لعام ١٩٩٠ أنه فى عام ١٩٨٩، تعدت مدفوعات الديون الـ ٤٢,٩ مليار دولار فوق رءوس الأموال الأساسية، مما حقق زيادة بثلاثة مليارات دولار عن عام ١٩٨٨ كما أن تدفق رأس مال من الدول الغنية. انخفض إلى أقصى حد فى العقد الأخير». (البنك الدولى، ١٩٩٠).

وقد أوضح الصحفى داريك چاكسون نتائج ذلك فى «بوسطون جلوب». وقال إن اليونيسيف تضع سويسرا فى المقدمة من حيث دخل الفرد قبل أمريكا. ولكن أمريكا تصل إلى المرتبة الثانية والعشرين في وفيات الأطفال، بعد أيرلنده وإسپانيا، بعد أن كانت العاشرة فى المرتبة.

وفيما يتصل بالإفريقيين ـ الأمريكيين تضاعفت وفيات الأطفال بالمقارنة بالمتوسط العام.

وفى بوسطن، فى حىّ روكسبى، الذى تتكدس فيه الأقليات العنصرية، تزيد الوفيات على ثلاثة أضعافها، مما يضع روكسبى المفترض أنها تنتمى لأغنى أمة فى العالم بعد سويسرا، فى المرتبة الثانية والأربعين فى وفيات الأطفال.

وأثبتت إحدى الدراسات التى أعقبت أحد المؤتمرات، ونشرت فى مارس عام ١٩٨٩ ـ أثبتت أن : «الخمس الأكثر حرمانا ـ الأقل من مستوى خط الفقر ـ من السكان، رأى انخفاض عائداته بستة فى المائة (٦٪) من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٧ . فى نفس الوقت ارتفعت الدخول بنسبة ١١٪ بالنسبة للخمس الأكثر رفاهية». هذه الإحصاءات قد رصدت أيضا التضخم، وشملت المبالغ المنفقة فى الدعم الاجتماعى والضرائب. فالخمس الأكثر حرمانا انخفضت بالفعل عائداته الشخصية بنسبة ٨,٩٪، بينما ارتفعت العائدات الشخصية للخمس الأكثر رفاهية بنسبة ٦,١٥٪ .

لقد اعترف التقرير ذاته «بالمعازل» الاقتصادية : **«فلقد اتسعت الفجوة بين الأمريكيين الأغنياء والفقراء فى الثمانينيات، بحيث أمست فى عام ١٩٩٠، عائدات مليونين ونصف المليون من الأغنياء تساوى مجموع عائدات مائة مليون مواطن قابعين أسفل السلم الاجتماعى».**

(«مكتب ميزانية الكونجرس»، ١٩٨٩)

فى عام ١٩٩٦، أظهر السيد چيمس چوستاف سبيث، رئيس برنامج الأمم المتحدة للتنمية، فى حديث لجريدة «لوموند» الفرنسية، التباعد المتفاقم بين الدول الغنية ودول العالم الثالث، واستنكر أسطورتين: أسطورة العالم الثالث الذى يتمتع بتنمية مستمرة، وأسطورة القطاع الخاص كمعجزة لحل مشكلات التنمية قائلا :

« هناك أسطورة أولى يجب مجابهتها، هى تلك الخاصة بعالم يتقدم بفضل عولمة الاقتصاد العالمى، ويتقدم من أفضل إلى أفضل تحت قيادة خمسة عشر تنينا». وفى الواقع ـ يكمل السيد سبيث ـ فإنه فى أكثر من مائة دولة، انخفض دخل الفرد اليوم عما كان عليه منذ خمسة عشر عاما

مضت. بصراحة، هناك ما يقرب من مليار وستمائة مليون فرد يعيشون على نحو أسوأ مما كانوا عليه فى الثمانينيات». «فى مساحة جيل ونصف» ـ يستمر السيد سبيث ـ «**اتسعت الفجوة بين الأكثر غنى والأكثر فقرا. ففى بداية الستينيات، كانت النسبة: واحد إلى ٣٠ بين الـ٢٠٪ الأغنى على الكوكب والعشرين فى المائة الأفقر. اليوم قفزت هذه النسبة إلى: واحد إلى ٦٠**».

إنه العالم النامى ضحية أيضا لأسطورة ثانية «غريبة»: «الإيمان بأن القطاع الخاص يمثل البلسم الشافى العالمى»، تماما كالإيمان بأنه فى ظل عولمة التبادل والاقتصاد، لا يمكن أن ننتظر من الاستثمار الخاص سوى أن يقود إلى «عالم متوازن»!

فلا توجد علاقة ـ فى الواقع ـ بين حاجات دولة والاستثمارات الخاصة المباشرة فى هذا البلد. التخصيص أو الخصخصة، والتحرير، ورفع القيود: هذه من الكلمات التى تلعب دور المفاتيح السحرية فى قاموس الليبرالية فى نهاية هذا القرن من الزمان، والتى يفترض أن تقودنا إلى التنمية، ولكنها فى الحقيقة، تنمية مصحوبة بأكبر فقر، وظلم اجتماعى واضح، وهذا إلى جانب بطالة لا تكف عن التزايد.

أما فى الجامعات رفيعة المستوى، فيسود قانون السوق. فتعليم طالب فى الجامعات الأمريكية يكلف عائلته ما بين ٦٥ ألف جنيه (١٠٠ ألف فرنك) إلى مائة ألف جنيه (١٥٠ ألف فرنك) فقط للدراسة فى السنة الواحدة. وأما بالنسبة لتعليم «الجموع»، «فالنظام الأمريكى يعتبر فى الحضيض». **أظهر تقرير لمتخصصين من جامعة كولومبيا أن ٤٠٪ من الشباب الأمريكى الذين يدرسون فى الكليات، اعترفوا بعدم قدرتهم**

على القراءة على نحو جيد. وهناك ثلاثة وعشرون مليون شاب أمريكى أمي . (الاقتصاد «جلوبال إيكوتومى» ١٩٩٠) .

وأما بالنسبة للصحة، فتتمتع الولايات المتحدة بأفضل العيادات، والمستشفيات ومراكز البحث فى العالم، ولكن النظام الصحى نفسه يعد كارثة حقيقية : ففى وفيات الأطفال، تتمركز هذه الدولة فى المرتبة الثانية والعشرين على الصعيد العالمى . وحصة الصحة من النفقات العامة تُعد الأقل بين دول الـ OCDE (*) .

كما أن عدم المساواة والظلم يولدان التلاعب والفساد . فمركز الخدمات المالية الأمريكى يؤكد أن ٢٠٪ من الضرائب الفيدرالية لا تُجبى . ففى عام ١٩٨٩ على سبيل المثال، مثلت هذه النسبة مبلغ ٣٤٠ مليار جنيه مصرى . سجّل عدد القضاة الذين ثبتت إدانتهم فى قضايا الرشوة والغش الضريبى بين عامى ١٩٨٠ و١٩٩٠ رقما قياسيا فاق عدد الذين أدينوا للسبب ذاته خلال الـ ١٩٠ عاما الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

أما المميزات التى يتمتع بها الأغنياء فى هذا النظام، فتقودهم إلى احتكارهم للسلطة . فقد أكد چون چاى، رئيس المؤتمر القارى وأول رئيس للمحكمة العليا الأمريكية **«أن من يملكون البلاد يجب أن يحكموها»** . والنظام السياسى - تماما - مثل النظام الاجتماعى، صُمِّم لكى يخدم حاجات الطبقات التى تحتكر الملكية .

(*) منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية . أنشئت فى پاريس عام ١٩٦٠، بعضوية دول أوروپا الغربية كافة، إضافة إلى أمريكا وأستراليا واليابان ونيوزيلاندا وتركيا . وهدفها رفع مستوى المعيشة فى الدول الأعضاء، وتوسيع نطاق التجارة العالمية .

فالسياسة في دوامة التسويق : ولكل منصب ثمنه . في عام ١٩٨٨ ، كانت التكلفة للحملات الدعائية لمناصب مجلسي الكونجرس قد وصلت إلى مليار وثمانمائة مليون جنيه مصرى . أى بما يعادل عشر مرات مقدار التكلفة للغرض ذاته في عام ١٩٧١ .

ومن هذا التناقض بين الاستمتاع الوقح والرفاهية المستفزة للبعض والإقصاء والهامشية للبعض الآخر ، يولد ويتغذى هذا العنف العام الذى لا مثيل له ، والذى لا يمكن حتى محاولة مقارنته بالعنف المتفاقم فى أحيائنا العشوائية فى ضواحى باريس العاصمة والذى يسبب لنا الجنون . ففى نيويورك ، وحسب إحصاءات الشرطة ، يقع هناك حادث قتل كل أربع ساعات ، واغتصاب كل ثلاث ساعات ، واعتداء كل ثلاثين ثانية . وبرغم كل ذلك ، فإن نيويورك لا تتبوأ سوى المكانة العاشرة ضمن مدن الولايات المتحدة بالنسبة لانتشار الجرائم . وفى عام ١٩٩٨ ، تم إحصاء ٢١,٠٠٠ جريمة قتل فى سجل الولايات المتحدة الأمريكية . واليوم هناك أكثر من مليون أمريكى فى السجون ، وأكثر من ثلاثة ملايين أمريكى تحت المراقبة القضائية .

هذه هى نتائج اقتصاد سوق مفترس بلا هوادة ، يحكم كما كتب هوبز فى «فجر الرأسمالية» بمنطق «حرب الكل ضد الكل» . فنظام السوق بلا ضوابط ، بمنافساته بين الأفراد والجماعات الذين لا يعترفون سوى بمصلحتهم الخاصة . هو منطق ونظام الحرب .

والأزمة المؤسسية فى العالم الثالث عميقة الجذور ، خصوصا فى أمريكا اللاتينية . فالتدخلات المكثفة للولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى أدت إلى تبنّى إستراتيجية «تنمية» مبنية على الزراعة الموجهة إلى التصدير : فلقد حثت الولايات المتحدة على تهجير المجتمعات الزراعية

المختلفة فى أمريكا الجنوبية ، وقامت بتغييرات عميقة فيما يخص علاقة الفلاح بأرضه ، مما حطم مجتمعات تقليدية دون أن تتمكن أى منظمة أو منظومة ثابتة موجودة أن تحتوى هذا التغيير أو تحل محله .

إن نمو الحضر على حساب الريف فى أمريكا اللاتينية (عام ١٩٦٠ كان سكان المدن ٦٠٪ ، أصبحوا ٧٠٪ عام ١٩٨٩) وفى بقية العالم الثالث ، يعكس زيادة الفقر فى الريف ، وزيادة الهجرة الريفية إلى المدن المكدسة حيث تفاقمت المديونية ولم يتوقف الاختلال عن التوسع (تقرير بنك التنميةفى الأمريكتين ، واشنطون ١٩٩٠) .

وفى عام ١٩٨٨ ، أصبحت دول العالم الثالث تعيد خمسين مليار دولار ، أى ما يقرب من مائة وثمانين مليار جنيه مصرى كفوائد ، زيادة عما اقترضته .

بعد هذا القدر العظيم من الجرائم وأعمال القرصنة ، هل يمكننا «اتهام» الذين يدينونها بمعاداة «أمريكا» ؟ نعم بشرط أن نقبل أن معاداة الأمركة تبدأ برفض الخضوع والتبعية .

(كريستيان دى برى «الإكسبريس» ٧من فبراير عام١٩٩١)[١٣]

* * *

السياسة العامة المتبعة فى أمريكا ، تعبر عن سياسة كلا «الحزبين» الرسميين . وفى الواقع تعطى الولايات المتحدة الأمريكية المثال الحقيقى الأكثر وضوحا ، رغم إخفائه ، على حكم الحزب الواحد ، وهو حزب الأعمال والمال ، وتقسيماته الداخلية فيما يسمى ، وعبر جمل متضادة ، «جمهوريين» و«ديموقراطيين» ، أو عبر رمزيهما «الفيل» و«الحمار» . (*)

(*) الفيل شعار الحزب الجمهورى ، والحمار شعار الحزب الديمقراطى .

فكلاهما بلا مشروع إنسانى متميز، أو بمعنى أكثر وضوحا، بلا مشروع من أجل الجميع، ولكن على العكس، فإن الهدف العام هو رفع معدلات الإنتاج فى بلادهم والاستهلاك فى كل البلدان الأخرى، ولا يخفى ذلك بوضوح فى الحملات الانتخابية.

إن تدمير العالم لمصلحة الحاجات الاقتصادية الأمريكية قد بدأ بطبيعة الحال فى أمريكا اللاتينية. ويتوجب علينا اليوم معرفة إذا كان كل العالم بأسره سيتحول إلى بورتوريكو جديدة، بلا مشروع إنسانى آخر سوى المشروع الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية والمتوج بالخضوع الكامل لرغباتها. والنتائج تظهر فى التحلل الاقتصادى والسياسى والثقافى العام حتى فى أوروبا، فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا ودول أخرى، كل الموقعين على اتفاقية ماستريخت التى جعلت أوروبا «الدعامة الأوروبية للحلف الأطلنطى»، والتى تنفذ أغراض الولايات المتحدة من العراق إلى الصومال. كل شىء يخدم الجات (التى أعيد تسميتها بالمنظمة العالمية للتجارة WTO)، والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وهى المؤسسات التى لا تفرض - كمثال - على العالم الثالث التبعية السياسية والبؤس لدفع مديوناتها فقط، ولكن أيضا تفرض عليه قبول - وبلا أدنى معارضة - فرمانات الدولة الأكثر مديونية فى العالم، وهى الولايات المتحدة الأمريكية.

إلى متى سيظل العالم مستسلما لهيمنة الدولة التى تحتل المرتبة الأولى فى الجريمة، والتى قضت فيها المحكمة العليا - يونيو ١٩٨٩ - بأنه يمكن إعدام القصر الذين يبلغون ١٦ عامًا، وقد طبق ذلك فى ٢٤ ولاية، حيث أعدم ١٨٢ شخصًا بالكرسى الكهربائى أو الشنق أو الغاز، وحيث يقبع ٢٥٠٠ فى زنازينهم انتظاراً لتنفيذ الإعدام؟

لكن ما هو أسوأ ـ حقيقة ـ في هذا الواقع، هو تضليل «الرأى العام» حيث تطورت تقنيات الإعلام، و«التيك أواى» الثقافى، لغزو العالم وتحطيم ثقافاته، وتقدم ثقافة «الكاچوال» ودالاس، ومادونا، وشوازينجر، والديناصورات (جودزيلا) فى السينما، ودوشنبرج وكونينج فى الفن التشكيلى، والرسوم المتحركة الأمريكية والتى لم تعد بيضاء الثلج لكن بوباى وبطوط، وفرق الروك «الرولنج ستون» الذين سبّب وجودهم فى ڤينسيا آلاف الأطنان من القمامة بعد حفلهم، وكل ما يجعل شبابنا ينسى ثقافتنا وقيمنا وتراثنا الإنسانى من ثرڤانتس وشكسپير ورابليه ونيتشه ودوستويفسكى.

إن ماكدونالدز، والكوكا كولا، وديزنى لاند، وعلب الليل أصبحت رموزاً للعبث والتقليد الأعمى، فى هذا العالم الذى أبدع الرامايانا، ومسرح «نو»، والرقص الإفريقى الأصيل، وملاحم جلجامش، وأشعار رامبو.

هل تعنى «الحداثة» النسيان والازدراء والجهل والصبيانية لصالح الجهل والأمية الثقافية والجاهلية الميكانيكية والمعلوماتية؟

هل نقبل أن يصبح كبار كهنة وحدانية السوق وعبادة أصنام المال «الأولاد الذهبيون(*)» هل نقبل أن يصبحوا طلائع الانحطاط العالمى؟

تلك الحالة الروحية تمثلت، ليس اليوم فقط، فى هذه الأرض الشاسعة والغنية، وبفضل حربين أوروپيتين أحدثتا موجات من اندفاعة الذهب نحو أمريكا عبر الأطلنطى، الأمر الذى أوحى للطبقة القائدة فى الولايات المتحدة بفردية بلا حدود (كما كان دائما الأمر فى «الحدود»(**)).

(*) الشباب الذى يعمل فى المضاربات فى البورصة.
(**) الحدود: الغرب الأمريكى فى الماضى.

إن الولايات المتحدة تعيش أعلى بكثير من إمكاناتها: فاستغلال العالم يتم على نفس النحو الذى تمت به مجازر الهنود، كما لو كانت مذابح الهنود الحمر لم تكفها. ويبرز هذا التعدى للحدود فى التسلط القائم رغم أن الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الأغنى رسميا فى العالم، ولكنها فى الواقع أكثر دولة مدينة - أيضا - بما يقدر بـ ٣٠٠٠ مليار دولار من الدين الخاص، ومبلغ مماثل من الدين العام، وهذا يعنى ما يساوى ثلاثة أضعاف ديون كل دول العالم الثالث مجتمعة.

ليس هناك ما يعبر عن المجتمع أكثر من التقاليد. فمنذ مطاردة الهنود، سمح بحيازة السلاح الخاص، وحتى الأسلحة الأوتوماتيكية كان مسموحًا بحيازتها، ولعل هذا قد سبب بين الشباب تفشى وحشية العلاقات الإنسانية، وهذا يظهر فى أعداد الشباب الذين يقتل بعضهم بعضا بالأسلحة النارية.

التقرير الأخير لـ «صندوق حماية الأطفال» - المؤسسة الرئيسة لحماية الأطفال فى الولايات المتحدة - رصد الخط البيانى الصاعد بلا توقف للأطفال والمراهقين المقتولين بالأسلحة النارية: « **منذ عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٩١ قتل ما يقرب من ٥٠ ألف أمريكى أقل من تسعة عشر عاما (٩ آلاف أقل من أربعة عشر عاما و ٤٠ ألفا بين خمسة عشر وتسعة عشر عاما)، قتلوا برصاصات أو حوادث أو جرائم متشابكة. فى خلال الفترة ذاتها، نجد أن عدد المحتجزين لارتكاب جرائم قتل وذبح ممن هم دون سن التاسعة عشرة قد تزايد بنسبة ٩٣٪** ». وحسب ما ورد فى التقرير ذاته، فإنهم فى الأغلب الشباب الذين يقتلون أو يصيبون شبابا آخرين.

فبعد الموت بسبب الحوادث (التى لا يحدث فيها إطلاق للرصاص) يأتى مرض السرطان، لأن القتل رميا بالرصاص يأتى فى المرتبة الثالثة اليوم كمسبب لوفيات المراهقين.

كما أن هناك «عنصرية اقتصادية» حقيقية تقسم الولايات المتحدة إلى أمتين. ففى هذا البلد الذى يجوع فيه طفل بين كل ثمانية أطفال، لا يكف عدد الأطفال الذين يموتون فى الأحياء الأكثر فقرا عن الزيادة، ويتعدى معدلات موت الأطفال فى مثل هذه الأحياء الفقيرة معدله فى دول مثل سرى لانكا وپنما وشيلى وچاميكا.

كما نجد فى ظلال الكاپيتول أحياءً متآكلة ومشوهة بأفظع صور الإنماء السيئ: من عنف، وانحلال، ومراهقين أصبحوا آباء، وبؤس، ومؤسسات تعليمية سيئة، كل هذا على أرضية من الكراك (*) وباقى أنواع المخدرات القوية.

ولا شك أن واشنطون تستأثر بأكبر ميزانية فى المعونة الطبية، ولكن ذلك لا يمنع تفاقم نسبة الإجهاض.

(«التضامن الجديد» العدد الرابع من ٤ إلى ١٢ من أكتوبر عام ١٩٩٤)

والعنف المتأصل يمارس تدميره حتى على صعيد هوايات الشباب.

لقد أسس دكتور ريلمان فى عام ١٩٧٢ مع مجموعة أصدقائه «مجموعة عيادات هايت أشبورى المجانية»، وهى «عيادة لموسيقى الروك»، أى مؤسسة علاجية تعالج المصابين فى حفلات الروك. وقد كتب الدكتور ريلمان فى سان خوسيه فى كاليفورنيا، واصفا ما يفعله:

« اللارسن (**) يهز الجموع فى ملعب كرة السلة فى جامعة الولاية. النغمات التى يصدرها جيتار الإيقاع ضربات تشبه ضربات الشاكوش. والأرض ليست سوى مكان دوران الشباب الراقص من متصببى العرق

(*) الكراك: نوع من المخدرات القوية التى تسبب الإدمان.

(**) فريق لموسيقى الروك.

الذين يتدافعون ويلقون بأنفسهم فوق الآخرين. وفى مكان قريب بجانب الكواليس، ارتدى ديڤيد ريلمان قفازاته البلاستيكية وبدأ فى فحص بعض المصابين. ها هو ذا شاب فى الواحدة والعشرين من عمره، عارى الصدر، ومصاب بجرح يشبه عضة حديثة الإصابة. وتظهر إصابة بيده التى أزيلت من عليها طبقة الجلد، توضح أنه تلقى ركلة من البوت العسكرى الذى يعتبر «أحدث موضة بين الشباب»(*) وتبدو إحدى عظام يده اليسرى مكسورة. وها هو ذا فتى آخر يرتدى فانلة المصلحة التأهيلية الفيدرالية Federal Correctional Institution (السجن) ويعانى قطعا دمويا غائرا أسفل عينه اليسرى».

دكتور ديڤيد يقدم نفسه لمرضاه الجدد، على أنه «دكتور روك». وتخصصه يقتضى أن يذهب لعلاج المهاويس والمصابين كل مساء فى حفلات الروك: إصابا فى الأنف، جزوع وكدمات هى حصيلة تلك الليالى. والإصابات العميقة فى الرأس والكسور ليست من الأشياء النادرة الحدوث.

(«التضامن الجديد» العدد الرابع ١٢ أكتوبر ١٩٩٣)

فى أوروپا لا تُحدث الموسيقى من هذا النوع الأفعال ذاتها من عنف مبالغ فيه. بينما من أول حفلة لموسيقى الروك فى «الوودستوك» وحتى آخر عرض لفريق «بينك فلويد» فى ميدان سان مارك فى ڤينيسيا، ظهرت المدينة فى اليوم التالى وكأنها تعرضت لقذف جوى بالقاذورات.

ولا يمكن بطبيعة الحال نسيان أمريكا الأخرى فى أى لحظة، أمريكا إيمرسون وثورو وچون براون ولنكولن، الثائر ضد العبودية. ولكن ليست هذه أمة العظماء التى تبرز صورتها أو رؤيتها: فثورو انسحب من

(*) ما يشبه البيادة العسكرية المطعمة بالحديد من الداخل، المسمى فى مصر «رد وينجز».

هذا العالم، كاتبا «ولدن ـ أو الحياة فى الغابة» لينبت فى الطبيعة «علاقة مباشرة» مع الله، كما كتب صديقه إميرسون. ولا ننسى أنه عاد إلى المدينة لكتابة مؤلفه «العصيان المدنى» الذى كتب عنه غاندى أنه كان مصدر إلهامه. لكن هؤلاء اعتبروا «مهمشين» أو ثوارا متمردين على النسق الاجتماعى السائد: ثورو اختبأ فى أعماق الغابة، ثم رفض أن يدفع الضرائب فى المدينة، كاتبا عن نفسه «لقد فقد وطنه». ولقد نقب إيمرسون عن الحكمة فى البهجاڤاد چيتا (*) ونهر الجانج (**) وليس فى نهر البوتوماك. أما لنكولن فلقد اغتالته «المؤسسة».

ولا ننسى السلالة السوداء من دى بوا حتى مارتن لوثر كينج، التى أظهرت لنا هذا الوجه الجميل لأمريكا العميقة والمزدهرة فى بداية القرن العشرين مع «نهضة هارلم».

ولا ننسى «الشهادات العظيمة» لسينمائيين مثل فورد فى فيلمه «عناقيد الغضب»، ولا من تجرأ لإثبات المؤامرة التى اغتالت كنيدى. لكن أمريكا لا تسجل إلا كل ما يخالف أى حقيقة، تماما مثل تصوير مذابح الهنود على أنها رمز للشجاعة والبطولة فى أفلام العنف.

ولا يمكننا فى الوقت ذاته أن نقول أى شىء عن فلسفة أمريكا، حيث يكبت النظام صرخات الرجال بفلسفته الوضعية والبراجماتيه التى تستبعد الإيمان والغايات.

ولكن لا يمكننا أن ننسى المساهمات العظيمة لراقصين أمريكيين عظماء مثل تيدشاون وروث سان دينيس وحتى مارتا جراهام الذين

(*) أنشودة هندية باسم: أنشودة السعداء.
(**) الجانج: نهر فى الصين.

جددوا هذا الفن وأعادوا صياغتة كما فعل شكسبير ومايكل أنجلو كل بطريقته وبلغته .

ولكن هوليوود فى عصر هذه العبقريات ، فضلت إبراز وتقديم فريد إستير وجينجر روجرز ، ماحية بذلك فى المستقبل آثار العمالقة .

كما نذكر هؤلاء الكتاب «المغضوب عليهم» من أول إدجار ألان بو(١٤) ، الذى هرب ، للخروج من هذا العالم غير المحتمل ، إلى «جنات مصطنعة» ، أو من تأثر فى الرواية بقدرة الفوضى فى العالم «الواقعى» مثل توماس وولف ، أو من هز فكر محاكم الجنايات ، بحياة أصبحت فريسة «الضوضاء والغضب» ، بحروبها وماهو موجود من «تفرقة عنصرية» ، مثل فولكنر .

إننا لا ننسى شيئا مما قدمته أمريكا ، ولكننا لا ننسى فى الوقت ذاته أى شىء مما أخذته خلال مائتى عام عقب «الزحف إلى الذهب» الذى حطم القارات وهشم الأرواح .

إن شعبا بلا ماض لا يمكن له أن يبدع سوى فن بلا جذور.

فيما عدا الإبداعات الأصيلة لشعوب المايا ، والإنكا ، والأزتيك ، والفنون الأصيلة التى جلبها معهم مهاجرون ، كتقاليد الغناء الزنجى التى تعتبر جزءا من التراث الإفريقى الذى أدى إلى ازدهار «البلوز» ثم «الجاز» ، أو جماعة الفنانين الإيطاليين الذين التفوا حول فيرلينجيتى فى سان فرانسيسكو ، فيما عدا ذلك لا يمكن ذكر أى فن حقيقى فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولذلك تحسد القوة الاقتصادية الأمريكية القوة الثقافية لأوروبا ، فى محاولة منها للانفراد بالرفض والقطيعة ، مستخدمين الابتزاز والإرهاب الثقافى لإقناع التجار والمتحذلقين على الأقل بما أسموه «حداثة» ، إذ فى الوقت نفسه ، يهاجم نقادهم الفنيون أعمال

مانيه ورمبرانت وڤان جوخ وغيرهم من رموز الحضارة الفنية الأوروبية متهمين إياهم بأبشع الاتهامات من التخلف والعبث ورسم الغوريلات.

وعلى الرغم من أن خوان جريس أحد أهم الرواد المعاصرين مثل براك أو پيكاسو، وأنه من أهم رائدى التكعيبية، فإنه قد كتب يقول: «إن عظمة الفنان تتوقف على قوة الماضى الذى يحمله داخله».

لقد لخص الفنان بوقّيه تطور «سوق الفن» حسب المواصفات الأمريكية الموضوعية قائلاً:

«الجهل فى الرسم قد أرسيت قواعده، وكلما كان الفنان جاهلا اعتبروه رائدا». ليس مهما أن تدرس أو ترسم، كل ما يهم هو أن تبحث عن أشياء جديدة ـ مهما كانت ـ لتقدمها لأن المقياس أصبح ماليا ولم يعد جماليا.

إن النظرية الاستهلاكية الأمريكية دخلت عالم الفن وحددت قواعد «سوق الفن». فالمعيار الوحيد هو الغرابة، واجتذاب المتحذلقين من المشترين، وإدخال التبذير فى «سوق الفن»، تماما كما قال أحد التجار: «يجب، وبأى شكل، إدخال الطريقة الأمريكية: إن الأشياء عندما يتقادم عمرها تصبح متخلفة فى عالم الأعمال الفنية. يجب أن نعلِّم مقتنى وجامعى اللوحات إلقاء اللوحة فى صندوق القمامة حين تصبح قديمة، مثلها مثل السيارة أو الثلاجة، عندما تأتى لوحات أخرى جديدة لتحل محلها».

(فيما رولى: «الحالة الثقافية» ١٩٩١)

وحين تنهار كل قيم الماضى، كما حدث فى حرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ـ وكانت تلك الحرب أكثر الحروب دموية وعبثية لأنها أرجعت كلا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء ـ واحتجاجا على النفاق فى فكرة

إقامة تمثال «الجندى المجهول»، قام الفنانون السورياليون بافتتاح «مبولة» وسط باريس، ليرمزوا بذلك إلى انتحار حضارة، واضمحلال الفن الذى يزعم أنه مرآة تلك الحضارة. وهنا عرض الرسام ماليڤيتش لوحته: «مربع أبيض فوق خلفية بيضاء»!

وبإعلان تلك الحرب، بدأ انهيار عالم من الأخلاق والدين والفن. وكتب ڤلامنك: «عندما أنهيت خدمتى العسكرية، أحسست بالثورة على قيود مجتمع يخضع لقوانين أنانية مشوهة. وأحسست بحاجة شديدة تدفعنى للكتابة أو الرسم. وكانت أبسط هزة تكفى لتفجير مشاعرى. وأصبح الرسم عندى متنفسا. ولولا ذلك؛ وبغير تلك «الموهبة» لتدهورت حالتى. وما لم أستطع تحقيقه فى الحياة ـ بأن ألقى إحدى القنابل وأساق للإعدام ـ حاولت أن أحققه فى الفن، وفى الرسم. وقد شفيت غلِّى فى تحطيم القواعد القديمة، ورغبتى فى العصيان، لأعيد خلق عالَم آخر».

وبعد أعوام قليلة، وبدعوى مواصلة تلك المغامرة حتى نهايتها، لم يبق الرسام چاكسون بولوك إلا على الشكل التقنى لهذا التجديد، ولم يجد ما يقوله فى هذه اللغة الجديدة، فقال: **إنه يترك الدور الأكبر للصدفة! وعلى لوحاته المفروشة على الأرض، كان الرسام يصب الألوان على اللوحات ثم يتمشى عليها بأحذية مثقوبة!!**

واستولى «السوق» الفنى على تلك «البضاعة»، وتغنى النقاد بتلك «المدرسة التجديدية» فى التعبيرية التجريدية، وبذلك التكنيك الجديد فى «التنقيط». **وإذا بأسطح اللوحات تشبه خراء الخرفان، وإذا بأسعارها تقفز إلى أرقام مجنونة!**

ويعطى دوميك فى كتابه «فنانون بلا فن» المثال على اشتراك الفن فى

الفقاقيع المالية التى تثيرها وتصطنعها البنوك الكبرى، ثم تغزو كل قطاعات الحياة الاجتماعية.

ففى عام ١٩٩١، باعت صالة كريستى المشهورة عالميًا «لوحة» للرسام كونينج ـ أحد المشاهير الذين نفخت فيهم وسائل الإعلام، مع بولوك وموزرويل، كممثلين لتلك «التعبيرية التجريدية» بـ ٤٤ مليونا و٨٨٠ ألف فرنك؛ بينما توقف ثمن لوحة للرسام الأصيل رافائيل عند ثمانية ملايين و٦٨٨ ألف فرنك فقط، ولم يزد ثمن لوحة للرسام تيتيان على خمسة ملايين و٥٢٥ ألف فرنك، ولوحة ثالثة للجريكو بـ ١٢ مليون و٩٢٠,١٠٦ فرنك، ولوحة رابعة للرسام لاتور بـ ٤ ملايين و٩٩٥ ألف فرنك، ولوحتان للرسام فيرونوز، واحدة بـ ٦ ملايين و٥٠ ألف فرنك، والأخرى بـ ٥ ملايين و٤٧٦ ألف فرنك، ورسمان للرسام بوسان، واحد بمليون و٤٥٠ ألف فرنك، والثانى بمليون و٣٢٠ ألف فرنك. (مجلة موسم ١٩٩١، منشورات كريستى).

وهناك عملية مالية أكثر وضوحًا، تؤكد «انتصار الفن الأمريكى»، (وهو نفس عنوان كتاب ساندلر، مطبوعات كار ١٩٩٠)، حين نجح تاجر اللوحات الفنية ليو كاستيللى، بوسائله الخاصة، فى إخضاع السوق الأوروپية ـ فى بيع اللوحات ـ لسوق نيويورك، وعمل التاجر بنجاح على أن يفوز روزنبرج بجائزة بينالى ڤينيسيا عام ١٩٦٤!

ويجدر بنا أن نلخص هنا ما سموه فن «البوب آرت»، وهو فن مستورد. ففى عام ١٩١٧، أرسل الرسام الفرنسى مارسيل دوشام إلى «جمعية الفنانين المستقلين» فى نيويورك، «نافورة» ـ (كانت فى الحقيقة مبولة)، تعبيراً عن احتجاجه على عبثية الحياة: «فلا معنى لأى شىء، وخاصة فى الفن». وكان أصل ذلك فى حركة «دادا» الفنية، والتى تقول

بفراغ المجتمع وسخفه وعبثيته. ومثل هذا الموقف كان رد فعل الحرب، وما خلفته فى العالم. ولكننا نجد روشنبرج يلتقط الفكرة، ومعه المتعهد ليو كاستيللى، ليستخدمها على أنها «تجديد»، وليعلن «البوب آرت» بعد سبعين عاما، وليعتبرها «مدرسة» و«أسلوبا» فما أحرى أن يُسمى فن المبولة!

وهكذا نجد روشنبرج يلصق طائرا محشواً بالتبن على لوحته، وأحيانا كان يلصق عنزة صغيرة بدعوى «العودة إلى الحقيقة العارية!».

إن استيراد أوروپا لتحلل الفن، وكذلك نقلها تحلل المجتمع الأمريكى، كان لهما أكبر الأثر فى تحويل السينما ـ عدا بعض الاستثناءات ـ من فن إلى صناعة. فقد أدخلت طريقة للعيش، مثل تلك التى شهدتها عنصرية «الوسترن» ليكون الهندى «قتيلا» أو «متعاونا» مع الغزاة، وأدخلت كذلك أفلام «الرعب» بمؤثرات «خاصة» والتى تخصصت فيها هوليوود ببراعة، أو أفلام «العنف» بسرعة مائة رصاصة فى الساعة. وكل ذلك يترجم تحلل الفن والحضارة.

وأحد آثار هذا التلوث الثقافى الوافد من الولايات المتحدة الأمريكية، طليعة الانحطاط، هو تصاعد السوقية والهمجية فى الفنون الجميلة، وهو ما شهدناه بپاريس فى «حمائم» لورين فى قصر رويال، وفى «لفائف» كريستو فى بون نيف.

ففى ١٣ من سبتمبر عام ١٩٨٢ رأينا مشهد تغليف كوبرى «بون نيف» وسط پاريس بلفائف الأقمشة، مما احتاج إلى أقمشة بلغت مساحتها ٤٣ ألف متر مربع، و١١ ألف متر من الحبال، وهى صفقة مالية كبيرة! وحينذاك قال الشاعر والكاتب الفرنسى «ڤيركور»:

« غـريب أن نذهب إلى أثينا لمشـاهدة البـانتيـون، ثم نراه مـغطى باللفائف» .

والغـريب أن هذه المهزلة كلفت دافعى الضرائب من أهل باريس ١٩ مليون فرنك!

ولكن كريستو لم ينجح تماما كما نجح زميله الآخر بورين، الذى نجح فى انتزاع ٢٢ مليون فرنك ليقيم معرضا لقطع الحمائم الملونة بالأبيض والأسود ـ مثل الحمار الوحشى ـ فى فناء الشرف لقصر رويال .

ومن اليسار واليمين لا تتوقف «اللاثقافة» عن نشاطها بعناد، لتشويه باريس، بعد أن انتقلت إليـها عـدوى التـجارة والمضـاربة فى الأعـمـال الفنية .

* * *

ولكن الفن لعب دورا عظيما فى كل الحضارات، لأنه يرتبط بالواقع بعلاقـة حميـمة . والفن يلعب دور المحرك فى المجتمع إذا كان صـادقا وأصيلا . تماما كما يلعب الإيمان . ذلك، لأن الفن يكشف للإنسان آفاقه الذاتية، وآفاق العالم، وقد لا يدركها الإنسان بنظرته التى اعتاد عليها .

ولكن لننظر إلى نموذج أحـد مشـاهيـر الفنانين مـثل «أندى وارهول» الذى يحظى بكثير من الدعاية والنجومية .

لقـد استـعـان بتقنيـة الدعـاية، وتكرار الصـورة، وضـاعف من ألوان الأحبار، لصورة «مارلين مونرو» .

إننا نجد أنفسنا أمام نقيض الفن : فلا شيء يكشف فى الواقع مـافوق الواقع . وعلى العكس، يلتصق نقيض الفن بأدنى أساليب الدعـاية التى

تعتمد على تكرار إثارة الغرائز، فلا تحوى من الإنسان شيئا. تماما كما تفعل معنا إعلانات «الكوكاكولا» «ومكدونالدز». وقليل من النقاد يجرءون على القول: «إن الملك عارٍ».

ومع ذلك، وحين خصص مركز بوبور (أو چورچ بومبيدو فى پاريس) معرضا «استرجاعيا» لهذا الرسام، اجتذب كما قيل ٨٠٠ ألف زائر، مما يقترب من الأرقام القياسية لرواد محلات «پرنتان» التجارية فى أعياد الميلاد.

وما يميز فن «الفراغ» أو «الخواء» أن النقاد لا يحدثوننا عن الأعمال الفنية ذاتها، ولكنهم يتحدثون عن مقاصد ونوايا أصحابها، وهم لا يبخلون فى الإنعام عليها بالألقاب المزركشة مثل «الڤورتيسزم» Vorticism أو «الأرفوزم» Orphisme، أو جماعة «الكوبرا»، أو «رسم الكائنات» وغير ذلك. مع أن ما نشهده لا يزيد على مجموعة من رقاب الزجاجات، أو سجاجيد عليها أكوام من حبال، وكريات من الصوف!

* * *

لا شىء يدعو إلى الصحوة، بل يغرى بالغيبوبة فى حفل موسيقى يقدم الصخب والزعيق لتصل حدة الصوت إلى ١٣٠ ديسيبل، (مع أن الأذن تتأذى من ٩٠ ديسيبل).

ودون الحديث عن نوعية الموسيقى، فإن تقديم سوناته للموسيقار شوپان، بمثل هذا التضخيم الميكروفونى يمكن أن يصيب الوعى بالخدر، والحس النقدى بالغيبوبة، وخاصة إذا أضفنا إلى ذلك الضجيج، دور فن إضاءة الليزر حتى يكتمل تأثير التنويم المغنطيسى!

وكذلك الأمر بالنسبة للعمارة التى يجب أن تكون إفراز مجتمع . ففى عالم يكتب «الپانك» على قمصانهم «اللامستقبل» ، وفى الشارع نفسه بوبورج الذى يُرى من عنده فى الأفق كنيسة نوتردام التاريخية ، ظهرت فجأة الأنابيب الملونة التى تذكر بمصنع لعزل المخلفات أو إعادة تصنيعها .

لقد قادت هذه الفكرة المسيطرة للبحث عن التجديد من أجل التجديد ، على طريقة «جديد فى جديد» فى كل المجالات ، قادت إلى طرد الإنسان من الثقافة ، وتعرية الثقافة الإنسانية .

«البوب آرت الحديث» ، و«الموجات الجديدة» ، و«الرواية الجديدة» و«الفلسفة الجديدة» ، كل ذلك ـ أيضا ـ للتعبير بطريقة لا تصدم ، عن وجود المنتج الإعلانى داخل ما يحمله هذا الجديد ، والذى له نقاط التقاء مع الاقتصاد الذى يحكم النظام . لقد عرفه أحد المهتمين والمدركين للموقف : «يهدف إبراز الأمر المرحلى إلى استبعاد المسألة الفلسفية للغايات النهائية» .

(مايكل ألبرت، «الرأسمالية ضد الرأسمالية»(*) الناشر، «سوى» ١٩٩٣ ص ٢٣٠)

وهكذا ولد ما أسماه چيل ليبوفتسكى «عصر اللاشىء» .

لكن هذا لايمكن أن نعتبره جريمة شعب ، وإنما هو جريمة مؤسسات وقادة . فلا يوجد شعب سيئ ، وإنما ـ فقط ـ يوجد شعب مغيَّب ومخدَّر .

فالشعب الألمانى الذى أفرز عباقرة أبدعوا وأضاءوا الثقافة والعلم والإيمان وأثروا حياتنا ، اتبع هذا الشعب ـ ولمدة خمسة عشر عاما ـ جاذبية أناشيد الموت الهتلرية .

(*) نشرته بالعربية مكتبة الشروق .

إن ديماجوجية «الشعب المختار» تحاول حرمان الأمريكيين من معرفة أو إدراك ذكريات ماضيهم، ليستمر توريطهم عبر الـ «ڤاليوم» الجماعى: التليفزيون والسينما والصحافة، فى مغامرات جديدة «للمجمع الصناعى العسكرى»، والتى تتغذى الثروة والقوة فيها عن طريق نمو البؤس والسيطرة العسكرية والاقتصادية على العالم.

إن نفاق سادة القارة مستمر بصورة مأساوية منذ كريستوفر كولمبوس وحتى رونالد ريجان ومنذ كتب كولومبوس إلى ملك إسپانيا: «الذهب هو أغلى نفائس الكوكب، ومن يملكه يملك كل ما يحتاج إليه، ويملك - أيضا - ما يقى الأرواح شر المحرقة».

(كتبه ماك إليستر: «إسپانيا والبرتغال» ميناپوليس ١٩٨٤)

لقد أعلن رونالد ريجان أن ثراء ورخاء الولايات المتحدة يرجع إلى كونها «أمة مباركة من الله». لكن أحد رجال الدين الإسپان جرؤ على استهجان ما قاله ريجان واصفا إياه بأنه «تجديف وهرطقة»، لأن ثروة وقوة الولايات المتحدة لا تأتى من مباركة الله، ولكنها ترجع إلى استغلال العالم وبخاصة العالم الثالث عبر التبادلات غير المتوازنة وغير المتعادلة، وفرض استيراد المنتجات الأمريكية بالقوة، وغزو رءوس الأموال الأمريكية للدول التى تنخفض فيها المرتبات، وعبر الفوائد الاستغلالية «للقروض».

هذا هو تقييم خمسة قرون من الاستعمار وخمسين عاما من تطبيق نظام «بريتون وودز» والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى، ثم منظمة التجارة العالمية. ولم يتوقف منذ ذلك الحين دق علامة الصليب على أسنة السيوف، كصنم يمثل الذهب والموت. ها هى ذى القصة كلها، فهى لا تخرج - أبدًا - عن هذا الإطار، وهذا هو لُبّ القضية.

الفصل الرابع
استعمار أوروپا والعوالم الثلاثة

العــراق ولبنان والصــومــال وفلسطين والبــوسنة، وبالأمس پنمــا وجرينادا ونيكاراجوا، وغدا إيران وليبيا وكوبا، وكل ذلك عقب تجزيء الاتحاد السوڤيتى الذى غير علاقات القوى بعد القضاء على هتلر وقيام نظام ثنائى الأقطاب.

فـهل هناك دليل يهـدينا لفـهم عـالمنا؟ وأقـصـد بالدليل تـلك العـلاقـة الداخلية والعميقة التى تربط مشكلات العـالم جميعها، سواء أكانت تلك مـشكلات عــسكرية أم أدوار صندوق النقــد الدولى والبنك الدولى أم أوروپا مـاسـتريخت أم إعادة الرأسمـالية إلى شرقى أوروپا، بل وظهـور الأصـوليات فى العالم، إسلامية ويهودية ومسيحية؟

وعلى عكس مـا تروجه وسـائل الإعـلام ـ وبخاصـة التليـفزيون الذى يقوم بغسل مخ للرأى العام حين يعرض سلسلة الكوارث ـ هناك أحداث يُتلاعب بتقديمها ما بين مقديشيو وتيموسوارا، ومن سراييڤو إلى بغداد، لا بد من إدراك مغزى هذه الأحـداث بالنظر إليها نظرة تاريخية من الأفق التاريخى للقرون الخمسة الماضية، وهى القرون التى شهدت نمو السيطرة الغربية على العالم بأسره.

فلم ينقض أكثـر من ثلاثة قـرون على غـزو أمريكا ونهب ذهبهـا، مما أعطى التصنيع فى أوروپا جرعات قوية لا مثيل لها. بدأت تلك المغامرة

التى بلورت ما أصبح اليوم أكبر قوة فى العالم وهى الولايات المتحدة، وقد رأينا أن تاريخها تميز بعملين أساسيين: ذبح وإبادة الهنود الحمر للاستيلاء على أراضيهم، واستعباد الزنوج لاستخدامهم فى المزارع والمناجم. وقد قامت الدول الأوروپية بوسائل مشابهة فى اقتسام العالم: فاستولت إنجلترا على الهند وإفريقيا الشرقية والشرق الأوسط، واستولت فرنسا على غربى إفريقيا والهند الصينية ومن المغرب عبر الأطلنطى إلى كويبك وجويانا ثم عبر الپاسفيك إلى كالدونيا الجديدة، كما استولى القياصرة على سيبيريا، واستولت بلچيكا على الكونغو، وهولندا على إندونيسيا.

وبعد حربين عالميتين، لأجل توزيع جديد للعالم بين من كان يملك إمبراطورية ومن كان يطمع فى تكوينها، أعيد توزيع الأوراق. أوروپا المهشمة فى عام ١٩٤٥، بدولها المنتصرة والمهزومة، فقدت الهيمنة أمام الولايات المتحدة التى كانت الحربان العالميتان مصدر رزق لها، حتى أصبحت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية سيدة العالم اقتصاديا، وعسكريا وسياسيا، خصوصًا عقب تفكك الاتحاد السوڤيتى فى عام ١٩٩٠.

«النظام العالمى الجديد»، كما يحلم به القادة الأمريكيون، هو تسمية بديلة للهيمنة الشاملة على العالم.

«حق التدخل» هو المصطلح البديل للاستعمار.

فبعد التخلص من الند العنيد ـ الاتحاد السوڤيتى ـ (الذى ضحى به قادة روسيا ودعاة التفتت القومى) أصبحت الأمم المتحدة مؤسسة لتسجيل الرغبات الأمريكية وتنفيذها، وليتحول دورها إلى ساتر ومبرر قانونى للمخططات الأمريكية، وأداة التنصل من الجرائم وإثبات البراءة للإدارة الأمريكية. فى الوقت ذاته، أديرت الآلات العسكرية الهائلة ـ إرث

مواجهة الغرب والشرق والمتوافرة فى يد الإدارة ـ لكى تلعب أدوارا ومهامّ أخرى .

أوروپا لا يمكنها أن تصبح ندا بل تابعا . فلقد أعلنت اتفاقية ماستريخت فى ثلاثة مواضع ـ بوضوح تام ـ كون أوروپا الركيزة المساندة فى التحالف الأطلنطى .

فعلى الصعيد العسكرى ، تلعب أوروپا دور التابع للولايات المتحدة فى العراق والصومال . وعلى الصعيد السياسى ، قرر الفرمان نفسه امتثال «السياسة الزراعية الموحدة» (باك) للمطالب الأمريكية المقدمة من خلال المنظمة العالمية للتجارة (WTO) والتى تفرض ما يؤدى إلى أن تعرض دولة كفرنسا ١٥٪ من أرضها الزراعية للبوار ، فى سبيل فتح أسواقها أمام كبار تجار الحبوب الأمريكيين .

أما بالنسبة للصناعة ، فقد كتبت جريدة «لوموند» فى ٢٢ من ديسمبر عام ١٩٩٢ وصفا لكارثة الفحم الأوروپى : تضاءل إنتاج الفحم الأوروپى لمصلحة المصدرين الأمريكيين ومناجمهم التى تنتشر من كولومبيا إلى ڤنزويلا وحتى فى إندونيسيا . فعند توقيع اتفاقية روما عام ١٩٥٥ والتى نظمت أوروپا ، تم إحصاء مليونى عامل منقِّب فى حقول المجتمع الأوروپى . وعند توقيع اتفاقية ماستريخت تضاءل الرقم إلى مائتين وخمسين ألفا . ومنذ ثلاثين عاما ، كان إنتاج الاثنتى عشرة دولة أوروپية يقدر بأربعمائة مليون طن فى العام ، بينما وصل الإنتاج فى عام ١٩٩٢ إلى مائة وثمانين مليون طن . تناقص إنتاج فرنسا ـ الضحية الرئيسية ـ من ٢٨ مليون طن فى عام ١٩٧٣ إلى ١٢ مليون طن فى عام ١٩٩١ . كما تناقص الإنتاج الإنجليزى بنسبة ٥٠٪ ، وتضاءل مثيله الألمانى بنسبة ٤٠٪ .

فى علوم الفضاء الخارجى، تسعى مجموعة «لوكهيد» ـ التى استطاعت بمساعدة وزراء يلتسين ـ بتوصية من صندوق النقد الدولى ـ انتزاع التكنولوچيا المتقدمة للاتحاد السوڤيتى السابق، الخاصة بإطلاق سلسلة الأقمار «بروتون» ـ إلى تسويق تلك التكنولوچيا المنتزعة، وإزاحة سلسلة الأقمار الأوروپية آريان من السوق العالمية.

أما بالنسبة لصناعة الصلب، ففى ٢٧ من يناير عام ١٩٩٣، قررت الولايات المتحدة رفع جماركها المقررة أمام واردات تسع عشرة دولة، من بينها سبعة بلدان أوروپية. بذلك حرّمت أمريكا على مصدرى الصلب الأوروپيين أى بيع فى السوق الأمريكية، مما عرض مليونى طن، أى ما يوازى إنتاج اللورين، للكساد.

كما أعلنت شركات چنرال موتورز وكريزلر وفورد هجمات مشابهة فى سوق السيارات.

كل هذا يظهر كيف تعمل منظمة التجارة العالمية، بالسير فى اتجاه واحد: حماية السوق الأمريكية (أولا) من المصدرين الأجانب، وفتح جميع الأسواق العالمية أمام المصدر الأمريكى.

أما فيما يخص الثقافة، فقد انهارت أوروپا أمام الغزو السينمائى والتليفزيونى الأمريكى، حيث يمثل المنتج التليفزيونى الأمريكى خمسة وعشرين ألف ساعة من أصل مائتين وخمسين ألف ساعة إرسال، إجمالى مجموع إنتاج الاثنتى عشرة دولة الأوروپية. فنصيب السينما الفرنسية فى السوق الأمريكية ٥ , ٠٪ ، بينما نصيب المنتج السينمائى الأمريكى فى السوق الفرنسية ٦٠٪ . تلك العلاقة (مائة وعشرون بالنسبة لواحد) تستطيع أن تعبر عن مدى الانقياد وراء شعب بمترووليوزات ترميناتور أو چيمس بوند الهوليوودى وسيطرة دالاس على العقل.

هذه السيطرة السياسية، المادية والروحية، على أوروبا، أدخلت العالم فى مرحلة جديدة من الاستعمار.

تهشم قوة الشرق، وأوروبا التى أصبحت تابعة، وبمعنى آخر «خارج اللعبة»، قد أخليا المجال أمام استعمار من نوع جديد: استعمار مختلف عما سبقه من إمبرياليات وإمبراطوريات أوروبية متصارعة. إنه استعمار مختلف مركزى وشمولى يسيطر على العالم بأسره حاملا الراية الأمريكية.

إن الحصيلة المأساوية لخمسة قرون سابقة من الاستعمار هى أنه: فى عام ١٩٩٣ أصبح أربعة أخماس الموارد الطبيعية على الكوكب فى يد خمس سكانه.

تفاقمت الهوة! فقد أشار برنامج الأمم المتحدة للتنمية إلى أن الفجوة بين دول الشمال الغنية ودول الجنوب الفقيرة تتسع تدريجياوستتضاعف بعد ثلاثين عاما، إذ تناقص نصيب إفريقيا من صافى الناتج المحلى العالمى خلال عشرين عاما من ٩ , ١٪ إلى ٢ , ١٪. إن ما أسماه بوش بالنظام العالمى الجديد، هو امتداد للعلاقة الاستعمارية السابقة بين المركز (الواحد حاليا) وباقى العالم والأطراف، كما كانت العلاقات فى السابق (لندن ـ دلهى، باريس ـ داكار). إن العلاقة الاستعمارية تعنى بوضوح: تبعية عسكرية وسياسية تسمح للمستعمر أو المهيمن بتحويل المستعمرة أو الدولة التابعة إلى ملحق للاقتصاد المركزى، كما تسمح له بفرض قواعد التبادل والجمارك أحادية الفائدة لصالحه.

هذا هو الهدف الذى أعلنه مرارا قادة الولايات المتحدة وبخاصة فى السنوات الثلاث الماضية: تأمين الهيمنة العالمية للولايات المتحدة الأمريكية.

ما الوسائل لتحقيق ذلك؟

متعددة .

أولاها الطرق التى تم اختبارها بالفعل .

منذ زمن فى أمريكا اللاتينية ، وبخاصة عقب الحرب العالمية الثانية ، حين رفع شعار «التعاون من أجل التقدم» الذى أطلقه الرئيس كنيدى ، وحتى مبادرة چورچ بوش لسوق موحد من ألاسكا حتى تييرادى فويجو (أرض النار ، أقاصى جنوب الأرچنتين وشيلى) ، والآليات بسيطة : اتفاق على الاستثمار ، قروض ، منح للدول اللاتينية لمساعدتها على التصنيع ، ولكن فى الحقيقة لكى يتمتع الشماليون بيد عاملة رخيصة وبنية تحتية مهيأة من قبل الحكومات ، مع استفادة برخص أسعار المواد الأولية ، والتى ينخفض سعرها باستمرار ، مما يجعل فى واقع الأمر أى تبادل غير عادل .

ففى عام ١٩٥٤ ، كان يكفى للبرازيلى ثمن أربعة عشر كيسا من البن لشراء سيارة چيب أمريكية ، لكن فى عام ١٩٦٢ ارتفع ما يلزمه لشرائها إلى تسعة وثلاثين كيسا . وفى عام ١٩٦٤ كان الچامايكى يستطيع أن يشترى الجرار الأمريكى بستمائة وثمانين طنا من السكر ، لكن هذا الرقم فى عام ١٩٦٨ ارتفع إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة طن .

وبذلك تستمر الدول الفقيرة فى دعم الدول الغنية .

فى الواقع تمثل فوائد الديون المسددة أضعاف رأس المال المقترض أصلا ، فكل دولار مدفوع قد أتى بدولارين أو ثلاثة دولارات إضافية على المدين . كما أن ميزانية سداد الديون فى الدول المدينة تساوى فى الأغلب - إن لم تكن تتعدى - مجموع الصادرات لتلك الدول ، مما يجعل أى تنمية مستحيلة بديهيا .

إن ذلك لا يعنى كما يُطلق عليها نفاقا «دولا فى الطريق إلى التنمية» إنما يعنى دولا محكوما عليها بمأساة متزايدة وتبعية مقيدة.

تعد المساعدات المزعومة لدول العالم الثالث من أنجح الوسائل لتقوية التبعية ودعم التخلف.

إن «المعونة» العامة والمتعددة النواحى فى العالم بأسره قد حددت بأقل من واحد فى المائة(٧ , ٠٪) من الناتج الصافى المحلى لمقدم المعونة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وما ينفق فى الواقع هو أقل من نصف هذا المبلغ المحدد.

إن ادعاء إدخال التصنيع وادعاء نقل التكنولوچيا فى بلاد العالم الثالث هما وسيلتان أخريان لفرض الهيمنة وزيادة الاستفادة بالنسبة للدول الغنية. فالمعجزة البرازيلية فى التنمية الصناعية تعد مثالا صارخا، مع التحفظ على التدخل البيئى للدول الغنية فى غابات الأمازون. النتيجة الواضحة لتلك المعجزة: أن أصبح هذا البلد ـ وهو من أكثر البلدان غنى بالموارد الطبيعية ـ مسكونا بالفقراء. فقد تركزت الثروة فى يد الأقلية، على نحو أدى إلى أنه من بين مائة وخمسين مليون مواطن برازيلى، يعيش مائة وثلاثون مليونا فى فقر مدقع، ونصف هؤلاء يعيشون فى بؤس تام.

«التدخل البيئى»: اسم جديد للتمشيط والنهب الاستعمارى، لا يظهر ذلك بوضوح تام فى مكان مثل ما يظهر فى الغابات الأمازونية: جود يير، نيبون ستيل، ڤولكس ڤاجن... وآخرون من الشركات متعددة الجنسيات، تلك الزمرة للدول الصناعية الكبرى التى تتحكم فى مصير الإنسانية، دمروا آلاف الهكتارات من الغابات، وغمروا بالماء

مئات أخرى من آلاف الهكتارات لبناء سدود هيدروكهروبائية . فى حين أن استخداماً عاقلا للقوة البشرية، وللثروة الزراعية، مع المحافظة على هذه الغابات، قد يسمح بإنتاج ما يساوى خمسة مليارات برميل بترول كل عام، (أى ما يوازى أكثر من إنتاج المملكة السعودية) . بيد أن متعددى الجنسيات لهم أهداف أخرى غير حماية التوازن البيئى فى أحد أهم رئات العالم، برغم ادعائهم ذلك : فتحت مسمى التعاون الاقتصادى، أى التعاون مع الشركات المحلية، تفرض هذه الشركات تكنولوچياتها مع عدم السماح بنقل خصوصياتها إلى الشركات المحلية، إن كان ذلك ضروريا .

فمثلا فى توكوروى، تم بناء سد هائل احتاج إلى قطع مئات الآلاف من الهكتارات من الغابة، وذلك لتوليد الطاقة اللازمة لمصانع معالجة البوكسيت الملوثة جداً للبيئة ـ لذلك لم تقم فى الولايات المتحدة ـ فثمن الطن مع النقل لهذا البترول القادم من البرازيل ١٦١ دولاراً بينما يصل ثمنه داخل السوق الأمريكية إلى ٢٨١ دولاراً .

هذا هو منطق المساهمين المفترس.

ففى شتى المجالات، يسيطر متعددو الجنسيات داخل البرازيل على الجانب الأكبر من الاقتصاد، ويشمل ذلك ٨٥ ٪ من إنتاج الكاكاو، و٩٠٪ من البن، و٦٠ ٪ من السكر، و٩٠ ٪ من القطن، و٩٠٪ من إنتاج الخشب. كما تسيطر الشركات الأجنبية كذلك على ٨٠٪ من صناعة البوكسيت و٨٠٪ من سوق الأحجار الكريمة، و١٠٠٪ من سوق (إنتاج واستخراج وبيع وتسويق) الكوارتز عالى الجودة الذى يعد حيويا للإلكترونيات.

تم بذلك إرساء قواعد تبعية اقتصادية كاملة. فقد تم خلق نموذج للتنمية تتخذ فيه القرارات من خارج البلاد. ففى باقى المجالات من سيارات، وإليكترونيات، واتصالات، وبتروكيمياويات. . . إلخ، بمساعدة قادة الصناعة المحليين، استقر هذا النموذج والنظام.

وتلك التبعية الاقتصادية وتلك الصورة المنحرفة للتنمية المفروضة على شعب بأكمله، استوجبت بالتالى تبعية سياسية، سواء مباشرة أو غير مباشرة، بداية لضمان سداد الديون. (فتحجز البرازيل ٤٠٪ من دخول صادراتها لسداد فوائد الديون الخارجية، بينما تحجز الأرجنتين ٥٤٪ للغرض نفسه).

الطريقة الأضمن هى زرع ديكتاتورية ـ ويا حبذا أن تكون عسكرية ـ فى السلطة. السطوة الإمبراطورية للولايات المتحدة تمارس بداية عبر متعددى الجنسيات، وعندما تتحدد أخطار جديدة يلزم التدخل، كما حدث فى شيلى بوصول نظام اشتراكى للحكم، فقد اقترحت مذكرات الآى تى تى ITT فرض عقوبات اقتصادية لإسقاط هذا النظام بإحراجه داخليا.

هذه الطريقة لا تلغى التدخل العسكرى المباشر للقوات الأمريكية إن لزم الأمر.

وذلك مثلما كان التدخل فى عام ١٩٥٤ فى جواتيمالا لحماية مصالح «شركة الفاكهة المتحدة»، أو فى كوبا عندما نظم كنيدى الإنزال فى «خليج الخنازير» عام ١٩٦١ بمساعدة مهاجرى كوبا أنصار الديكتاتور السابق باتيستا. وكما حدث عام ١٩٦٤ فى جويان البريطانية، وعام ١٩٦٥ فى جمهورية الدومينيكان، وأقرب الأمثلة إلى يومنا هذا فى جرينادا وبنما(١٥).

ولكن ما هو أنجح من ذلك، يتمثل فى تسهيل وصول ديكتاتورية عسكرية للحكم فى كل من هذه الدول، وذلك تحت مسمى العقيدة الأمريكية للأمن القومى المواجهة للشيوعية، إبان الخطر السوفيتى. وكان ذلك بالإمكان، بإقناع الناس بأن ارتباطهم بالولايات المتحدة ما هو إلا دفاع عن الديموقراطية وعن الاستقلال القومى. هكذا حكم الچنرالات البرازيل من كاستيلو برانكو عام ١٩٦٤ حتى جيسيل.

لم تكف ديون البلاد عن التضاعف فى ظل هذا الحكم المستقى شرعيته من لعبة التصنيع الذى تنفذه الشركات الأمريكية، ومن التسليح الذى يسمح باستخدام العنف والقمع والإرهاب ضد الشعب. فمثلا منذ عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٨٢ تضاعفت تلك الديون من ١٢ مليار دولار إلى ٦٠ مليار دولار، أى خمسة أضعاف فى عشر سنوات. «**لا شىء كديكتاتورية عسكرية يمكنه تحويل بلد إلى أقصى درجات الإفلاس**». إضافة إلى ديون الأرچنتين المتجاوزة بالفعل ٥٤ مليار دولار، وجهت عشرة مليارات أخرى من الدولارات لشراء الأسلحة تحت حكم الچنرالات. تسديد الديون والتسليح يمثلان ٥٠٪ من ميزانية پيرو قبل حكم آلان جارثيا. الرقم القياسى حققته شيلى فى عهد الچنرال پينوشيه(*) بألف وخمسمائة دولار دينا على كل مواطن. وضرب پينوشيه رقما قياسيا آخر: وهو الخاص بالليبرالية. فلقد فتح الرجل الباب على مصراعيه محققا أكبر قدر ممكن لاقتصاد السوق (متضمنا سوق المال) مطبقًا نظاما كاملا للخصخصة وذلك تمشيا مع الهبات

(*) دكتاتور شيلى الذى مارس كل أنواع القهر والتعذيب والخطف والقتل مع شعبه، وتتعالى صيحات ضحاياه من كل الجنسيات لمحاكمته، والمسألة ما زالت بيد القضاء الإنجليزى، ولا تكفى مساعى تاتشر وبوش - أول من استخدم مصطلح النظام العالمى الجديد - ومن خلفهما لمنع محاكمته.

الأمريكية الديمـوقراطية العظيمة، محققا بذلـك المنـاخ الأمثـل لسطوة الشركـات متعددة الجنسيات ومن خلفها أمريكا للتحكـم فى مصير بلاده الاقتصادى.

بفضل هذه الديكتاتوريات العسكرية، أصبحت التبعية الاقتصادية لدول أمريكا اللاتينية للولايات المتحدة حتمية، وبالتالى التبعية السياسية بسبب قوة الضغوط الاقتصادية على السلطات بمنح أو منع تقديم القروض أو الاستثمارات. ومنذ هذه اللحظة، أصبح بإمكان الولايات المتحدة استكمال أهدافها «تحرير السوق» بوسائل أخرى غير استخدام الديكتاتوريات العسكرية.

فلذلك، أصبح مقبولا تولى رؤساء منتخبين، وأن يستبدل بالقمع الفساد. هكذا قُبل قادة مثل كولور فى البرازيل أو منعم فى الأرچنتين ليحلوا محل چنرالات خائنين، ويطلب منهم فقط تسديد ديون بلادهم وتناسى جرائم سابقيهم.

يمكن أن تستمر سيادة صندوق النقد الدولى دون مخاطر فى بلاد مكبلة بالديون، واقتصادها مرهون فى أيدى الشركات الأجنبية. لذلك يمكن لصندوق النقد الدولى أن يفرض دون محاسبة، لاعلى العالم الثالث فحسب ولكن أيضًا على العالم بأجمعه، التنمية الأكثر تلاؤما مع مصالح المركز.

التقييم النهائى يؤكد ذلك: فقد انخفضت عائدات الأفراد بنسبة ١٥٪ فى أمريكا اللاتينية وبنسبة ٢٠٪ فى إفريقيا، منذ بداية الثمانينيات. «خطة الإصلاح الهيكلى» هو المسمى الملتوى الذى يحمله هذا النظام للهيمنة. ويعتمد هذا النظام على عدم منح أى مساعدات أو قروض وعدم الموافقة عليها إلا بعد الاستجابة لشروط سياسية مشددة. وتتمتع الدول التى تطبق حرفيا هذه البرامج لصندوق النقد الدولى بمعاملة مميزة من الولايات المتحدة وشركائها الأوربيين.

تتكون برامج الإصلاح فى الأغلب من :

ـ تعويم العملة .

ـ تخفيض للنفقات العامة وبخاصة فى النواحى الاجتماعية : تخفيض نفقات التعليم والصحة والإسكان ، وإلغاء الدعم بما فى ذلك الدعم الغذائى ، خصخصة الشركات والهيئات العامة أو رفع تعريفاتها (الكهرباء والماء ، والمواصلات . . . إلخ)

ـ إلغاء الرقابة على الأسعار .

لكن هذه السياسات الإصلاحية أدت إلى تظاهرات للجوعى ضد رفع سعر رغيف العيش فى المغرب عامى ١٩٨١ و ١٩٨٤ ، فى كاركاس عام ١٩٨٥ وفى مارس عام ١٩٨٩ ، فى الجزائر فى أكتوبر عام ١٩٨٨ وفى الأردن عام ١٩٩٦ .

.. فتلك البلاد المدينة، تنتج كثيرا مما لا تستهلكه، وتستهلك كثيرا مما لا تنتجه.

وهكذا ، ومنذ عشرين عاما ، يخرب صندوق النقد الدولى والبنك الدولى من ورائه ، القطاع الجنوبى من العالم من الأرجنتين حتى تنزانيا ومن پاكستان إلى الفلپيين . وقد بدأ الآن باتباع نفس الأسلوب مع دول الكتلة الشرقية . وللوصول إلى سوق عالمية موحدة ومتجانسة مبنية على عبادة المال ووحدانية السوق ، يتعين على صندوق النقد الدولى ومن خلفه البنك الدولى تنفيذ برامجه . كذلك يتعامل القادة الأمريكيون لتحقيق ذلك بوسائل مختلفة وطرق عديدة حسب القارة والبلد والنظام السياسى الحاكم ، وحسب الموقف العالمى .

ففى إفريقيا وحدها ، يمكن رصد ثلاثة مبادئ : عند زيارة الرئيس السنغالى عبده ضيوف للولايات المتحدة فى ١٠ من سبتمبر عام ١٩٩٦ ،

أعلن مساعد نائب وزير الخارجية للشئون الإفريقية هرمان كوهين أن فترة الثلاثين عاما التى قررتها المنظمة الإفريقية لتوحيد الاقتصاديات الإفريقية تعد فترة طويلة جداً. «فنحن نرى»، قال كوهين، «أن إزالة الحواجز التجارية الإفريقية يجب أن يتم سريعا». وقد بدا السيد ضيوف متفاهما، لذلك أعلن الرئيس بوش إلغاء جزء من الديون السنغالية(١٦).

فى الجزائر، تباين رد الفعل الأمريكى مع مبادئ دستورها المؤسس. وذلك عندما التقى الرفض الشعبى لسياسات صندوق النقد الدولى والذى ظهر بوضوح فى تظاهرات الجزائر عام ١٩٨٨، مع حركة إسلامية ترفض بوضوح مبدأ وحدانية السوق. بذلك عرضت جبهة الخلاص الإسلامى FIS موقفًا مهما رغم افتقادها لمشروع حقيقى، فإن رفضها لوحدانية السوق وتلك الليبرالية التى تؤدى إلى الانعزال والتهميش لأربعة أخماس العالم لحساب خمسه، مع ذلك فإنها وضعت الغرب الديموقراطى فى موقف حرج. فقد جعلها رفضها لمبادئ هذا النظام المشرع للهيمنة على العالم، قرينة للشر.

لم يكن دعم العسكريين لأسباب اقتصادية فقط (فالجزائر مدينة بمايقدر بـ ٢١ مليار دولار وتدفع كل عام ٥,٥ مليار دولار فوائد)، ولكن بسبب سياسى أكثر أهمية. وربما دينيا، مما يطرح سؤالا حول ماهية وأهداف المجتمع المبنى على أساس اقتصاد السوق.

لقد أعلن مدمرو الكوكب من أتباع الدين السرى الجديد «وحدانية السوق»، حربا حقيقية للدين، مع تحويل كل ما يخالف ديانتهم إلى شيطان.

بغض النظر عن المميزات والحسنات أو الجرائم والأخطاء، فإن كل من خالف معبودهم وهيمنتهم أصبح هتلر جديداً سواء كان أصوليا أو عراقيا أو حتى معارضًا من بيرو.

وبمباركة الديموقراطيين الأنقياء فى واشنطن وپاريس، تم استقبال الوضع الراهن فى الجزائر بحفاوة. وكما قال برتولد برخت: «لقد صوت الشعب ضد الحكومة. الحل الأبسط هو تغيير الشعب»!

أما فى الصومال، المثال الثالث البعيد كل البعد عن سابقيه، فقد استغل ما يجعل الإنسان يحلم أحلاما وردية: «حق التدخل الإنسانى» لحماية الإنسان. وهو حق استثنائى للغربيين. فلا يمكننا أن نتصور شعبا إفريقيا يستخدم هذا الحق فى محاربة التمييز العنصرى ضد السود أو الهنود داخل الولايات المتحدة، حتى بعد انفجار التظاهرات فى لوس أنچلوس! وهو حق يمكن تطبيقه، قياسا على ما حدث فى الصومال، على نصف البلدان الإفريقية.

لكن التدخل يكون انتقائيا.

ولقد أفصح الرئيس بوش بوضوح عن هذه النقطة فى خطابه الأخير فى الأكاديمية العسكرية وست پوينت: « **لا يجب أن نتدخل فى كل حالات العنف الإجرامى... إن أيديولوچيات الأمة لا يجب أن تتعارض مع مصالحها**».

هذا التباين بين المثل والمصالح يشرح سر التدخل فى الصومال. وتحديدا هناك أسباب ثلاثة:

- أهمية القرن الإفريقى للإشراف عن قرب على الخليج العربى / الفارسى.

- استمرار التنقيب الأمريكى عن البترول فى الصومال، والذى بدأ بأربع من كبريات شركات البترول الأمريكية، ويتوقف هذا الاستمرار على وجود نظام سياسى صديق ومستقر.

ـ وأخيراً، وضع دمية فى السلطة تقبل بلا مناقشة الفرمانات الأمريكية الصادرة من صندوق النقد الدولى. . . . (وقد برز هذا التدخل بإبعاد الأمريكيين بحنكة المحاولات الفرنسية الخجولة لترأس مفاوضات حول اقتراح مرشحين محتملين للرئاسة، إذ لا يزال الفرنسيون يعتقدون بأن إفريقيا هى مجالهم المحفوظ).

وهذا التدخل الإنسانى مبرر جيداً ومؤكد بمصالح إنسانية أمريكية.

ويتضح هذا الانتقاء بجلاء فى أمثلة مختلفة: مثلا نشر فرقة جوية أمريكية هائلة شمالى العراق لحماية الأكراد، أما بالنسبة لأكراد تركيا (بضعة ملايين) فلا حق لهم فى هذا التدخل الإنسانى الشهم(*).

كذلك يُعَدّ الفلسطينيون ـ مثلهم مثل الهايتيين ـ واحدا من الأمثلة الأكثر فضحا لهذا الكيل بأكثر من مكيال، فالهايتيون واقعون تحت إرهاب ميليشيات «تونتون ماكوت»، ويبعث إلى السلفادوريين فرق (عربات قطار) الموت. لذلك يعتبر الدفاع عن القانون الدولى وعن الديموقراطية مجرد مسميات تستخدم لستر وإخفاء معالم التدخل وحماية هذا الاستعمار الجديد.

ومأساة الشعب العراقى من الصور الأكثر بروزا لهذا التناقض.

بعد إمطار العراق وقت الحرب بما يوازى حجم المتفجرات التى ألقيت على هيروشيما ثمانى مرات، قاتلة حسب أدنى تقدير للصليب الأحمر

(*) رغم ما يلاقيه أكراد تركيا من اضطهاد وقمع يصل لدرجة الإبادة. وقد اشتركت أخيرا الـ .C.I.A مع الموساد ومع الحكومة التركية فى إحكام الحصار حول أوجلان ـ زعيم أكراد تركيا ـ ودفعه من دولة لأخرى حتى تم القبض عليه فى كينيا. حدث ذلك أثناء فرض الولايات المتحدة وإنجلترا حظراً على الطيران العراقى فى شمال بغداد، تحت زعم حماية أكراد العراق!

الدولى مائتين وعشرة آلاف من الأفراد. تلك هى خلاصة الحماية للقانون الدولى، الذى يسير دون أدنى شك فى اتجاه واحد: يستخدمونه لمواجهة ضم الكويت ويتناسونه عند تقييم قضية القدس. فى الحقيقة، القدس مدينة مقدسة، لكن مدينة الكويت هى أكثر تقديسا بآلاف المرات طالما هى محاطة بآبار البترول.

وكان كل هذا التدمير الهائل بمثابة المثل التحذيرى لكل دول العالم الثالث، وبخاصة إيران وليبيا (الهدفان القادمان) طالما ظلتا تمتلكان موارد بترولية بعيدة عن السيطرة الأمريكية.

* * *

من الطرق الأخرى، التى تمتاز بقلة التكلفة، أنه يكفى تأجيج القوميات أو المواجهات العرقية أو الدينية وتأليبها.

«القومية» هى اختراع أوروبى. دون أن نثير تاريخ القوميات فى أوروبا، خاصة عقب معاهدات «وستفاليا» (١٦٤٨) التى قرعت بشكل حاسم أجراس الموت للمسيحية التى كانت توحد أوروبا، فقد تكونت وحدات قومية على أساس اقتصادى. **وهو اقتصاد تحميه الدولة والجيش. تلك هى البداية.**

بعض تلك الوحدات قديمة، مثل فرنسا، حيث أصدر الملك شارل الخامس فى نهاية القرن الرابع عشر قرارا ينص على أن يكون للملك وحده كل المملكة، ومن حقه تنظيم كل الأسواق والمعارض، وأن يضع تحت رعايته وحمايته كل من يذهب ويبقى ويعود. وكان هذا القرار يقصد تخطى سلطات الإقطاعيين. ثم كان تحقيق هذه الوحدة الوطنية من عمل الثورة الفرنسية. وقد عبر عنه ذلك القسم الذى أقسم به «دى

لافاييت» فى عيد الاتحاد يوم ١٤ من يوليو عام ١٧٩٠ « بأن يحفظ الدستور، ويضمن الوحدة السياسية لفرنسا، وأن يحمى أمن الأشخاص والممتلكات وحرية انتقال البضائع».

وكان من أواخر تلك التجمعات القومية فى بداية القرن التاسع عشر، ألمانيا حين بدأت وحدتها بوحدة جمركية (زولفراين) فى عام ١٨٣٣، وهو ما حققته إيطاليا أيضا فى عهد كافور.

وكان القرن التاسع عشر هو القرن الذهبى للبرجوازية التجارية والصناعية، وتحققت الوحدة الوطنية التى أنهت صراعها ضد بقايا الإقطاع. وحتى تواجه المنافسين فى الخارج، كان لابد لها من البحث عن تبرير أيديولوچى.

استندت كل أمة على التراث الدينى المسيحى. فرفعت فرنسا شعارا لاتينيا معناه: « أن الله يحقق عمله بواسطة الفرنسيين! »، بينما أنشد الوطنيون الألمان «الله معنا!». ولكن بتدهور النفوذ الدينى، كان لا بد من البحث عن أسس أخرى للوطنية، مثل جغرافية الحدود الطبيعية (الأرض الموعودة) حسب قول بريس كولين الملهمة. ثم ظهرت الأسانيد البيولوچية أو الجنسية استنادا إلى نظريات جوبينو وشامبرلين. ثم أخيرا، ظهرت الأساطير التاريخية التى تزعم أن الأمة وجدت منذ آلاف السنين. وقد شاركت ملفات الأساطير الشعوب فى ألمانيا بالآثار الألمانية التاريخية لبرزت (١٨٢٤)، وفى فرنسا بالوثائق التى لم تنشر من تاريخ فرنسا للمؤرخ جيزو (١٨٣٣)، وفى إنجلترا بمسلسلات رولز عن أصول إنجلترا (١٨٣٨). ومع الغزوات الاستعمارية، كان كل مستعمر يحدد ـ على كل القارات ـ أماكن نفوذه، تلك التى أصبحت بعد ذلك دولاً. فعلى سبيل

المثال: الحدود القائمة الآن لدول أمريكا اللاتينية، تتفق تمامًا مع حدود الممالك القديمة والدوقيات الإسپانية والبرتغالية. والحدود القائمة الآن للبلاد الإفريقية، حددها من قبل المستعمرون الأوروپيون طبقا لمعاهدة برلين عام ١٨٨٥، وذلك نتيجة لعلاقات القوى بين المستعمرين، مطبقين آنذاك مبدأ: من يسيطر على الساحل يمتلك العمق الداخلى للبلاد، راسمين بذلك خطوطا رأسية إلى العمق من الساحل.

كما أدى تقسيم الدولة العثمانية بين المنتصريين فى الحرب العالمية الأولى إلى رسم حدود الدول العربية فى الشرقين الأدنى والأوسط، طبقا لأطماع المتنافسين إنجلترا وفرنسا والتى انتهت إلى التسوية فى اتفاقيات سايكس ـ بيكو (١٩١٧).

من الممكن تعداد الأمثلة على تصدير الوطنية والأيديولوچيات فى العالم بأسره بدءا من أوروپا الاستعمارية.

ففى عصر انتهاء الاستعمار، أصبحت المنازعات الوطنية والقومية بين من كانوا مستعمَرين أنفسهم، هى آخر انتصارات الاستعمار (الهند ـ پاكستان)، وذلك باستغلال القوميات لدحر بعضها البعض.

فقديما، كانت الجامعة العربية حلما يراود الإنجليز حين كانت المهمة هى تقسيم الإمبراطورية العثمانية بفصل العرب عن الأمة الإسلامية، بينما كانت القومية التركية ثمرة فكر رجل أوروبى هو فامبرى. وقد كانت القومية العربية «للبعث» من إبداع منظر مسيحى هو ميشيل عفلق. وعلى الصعيد السياسى، بين آلاف الأمثلة، نجد أن هذا ما قد ساعد فيما بعد على إشعال الصراع والحرب بين العرب والإيرانيين، بتمويل وتسليح العراق ضد إيران، بهدف إضعاف الطرف الأول وإعداد تدمير الطرف الآخر.

والآن، بعد تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي بطريقة شبهها خصومه بالمعجزة، فإن ما يكمل هذا التفكك في الواقع هو الحروب الداخلية التي تقع عند أطرافه بين المسلمين والقوميين في طاچيكستان، وبين الأرمن والآذر، وبمذابح إبخازيا وتشيشنيا.

ويكفي في هذه الطريقة السماح بمرور الأسلحة وتوفيرها حين يترنح أحد الأطراف للسماح بإنعاشه، حتى يتمكن الطرفان من تنفيذ تدميرهما الذاتي.

* * *

لقد حاولنا فهم واحتواء الخيط الرفيع الذي يسمح لنا بربط مشكلاتنا الدولية الرئيسة في نهاية القرن العشرين، وذلك بالعودة إلى أسبابها العميقة والدفينة والوحيدة برغم اختلاف الشكليات: وهي السيادة العالمية للولايات المتحدة، وتلك الوحدانية للسوق التي تعمل على فرضها عالميا. وستظل مستمرة طالما استمررنا:

ـ في تسمية اقتصاد السوق ـ بلا ضوابط ولا حدود ـ المحرك الوحيد للعلاقات الاجتماعية: «حرية».

ـ في تسمية الزيادة المطردة للقوى التكنيكية والعلمية للتحكم في الطبيعة والإنسان: «تقدما».

ـ في تسمية التوسع الأعمى للإنتاج والاستهلاك: «تنمية».

وسيتزايد الظلم والإقصاء والإبعاد والعنف.

* فلا توجد حرية أو ديموقراطية إلا حين يشارك كل فرد في القرارات التي تتحكم في مصيره.

* ولا يوجد تقدم إلا بأن تظهر الجماعية الحقيقية والإنسانية فى قلب هذا السواد، من غابة المنافسة وإرادة السيطرة وتزايد نشوة الأفراد والجماعات، بمعنى آخر، يظهر مجتمع معاكس للفردية، بحيث يشعر داخله كل فرد بضميره، وعن كونه مسئولا عن مصير جميع الآخرين.

* ولا توجد تنمية إلا بالإنسان.

فعلى عكس نظام يضع كل ثروته فى أيدى حفنة قليلة من الأفراد، ويُفقر الآخرين ثقافيا وماديا، يكون المجتمع متناميا ومتطورا عندما يخلق حالات اقتصادية وسياسية وثقافية وروحانية يتمتع فيها كل أفراده - من البداية - بفرص متساوية، لتنمية كل الإمكانات الإبداعية التى يحملونها داخلهم.

الفصل الخامس
تجارب الاشتراكية المجهضة

كان لابد من مضى قرنين من الزمان بعد الثورة الفرنسية، لاستنكار ما أسماه ماركس منذ منتصف القرن الماضى، بـ «ابتذالات الرأسمالية». وذلك بعد انتباهه إلى اتجاه العالم إلى العودة لعالم الغاب، بسيادة أيديولوچية حرية السوق وتطبيقاتها المتعددة، التى حولت العالم إلى شطرين: الشمال، والجنوب. هذا إلى جانب ما ينتج عن توابع النموذج الغربى للتنمية، الذى يكلف العالم كل يومين، ما يوازى ضحايا إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما. وكذلك داخل بلدان الشمال الغنية، لم تكف الفوارق الطبقية عن الاتساع، بين من يملكون ومن لا يملكون: حيث تتفشى البطالة، ويتعاظم الاغتراب، ويتفاقم الظلم وعدم المساواة. . وما زالت الهوة تتسع، ففى العالم الآن، ٢٨٠٠ مليون عامل، ثلثهم من العاطلين. وما بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩٣، انخفض إنتاج العالم الثالث، بنسبة ١٠٪.

والشيء نفسه، حدث مع عودة الرأسمالية إلى بلاد شرق أوروبا. وفى عام ١٩٩٢، تدنى دخل ٧٣٪ من العائلات البلغارية عن الحد الأدنى الرسمى للأجور، وكانت هذه النسبة عام ١٩٩٠ لا تزيد على ٤٢٪. وهبط دخل ٥٠٪ من العائلات البولندية، فى عام ١٩٩٢، إلى

أقل من مستوى خط الفقر، بعد أن كان هذا الرقم، ٤٠٪ فى عام ١٩٩١.

ووصل معدل البطالة إلى ٥١٪، فى دول جنوب الصحراء، أى إلى ضعف معدلاتها فى الخمسينيات. كما ارتفعت البطالة فى الحضر، فى أمريكا الجنوبية من ٤ ,١٣٪ إلى ٦ ,١٨٪.

بينما يتمتع ٣٥٠ شخصا، بعائد سنوى يتساوى مع عائدات مليارين ونصف من سكان هذا العالم!

لقد أحلت الثورة الفرنسية الترتيب التسلسلى الهرمى بالمال، محل النظام الذى كان قائما على التسلسل الوراثى بالدماء؛ وذلك مع تعمد حظر تنظيم العمال، بقانون «لوشابليه» (١٧ من يونيو عام ١٧٩١). إذ حرم هذا القانون مقدما، الطبقات الاجتماعية الفقيرة، التى كان يمكنها أن تتحدى النظام التسلسلى الاجتماعى الجديد، أو هذا النظام الطبقى الجديد، من تلك المواجهة. وظل هذا الحرمان سائدا قرنا، حتى تم البدء فى إنشاء النقابات، عام ١٨٧٧. ولقد أوضح بابيف (١٧٦٠ ـ ١٧٩٧) قصور هذه الثورة التى أنشأت علاقات جديدة، تقوم على الدفاع عن الملكية. فلقد أصبحت «الحرية» فى الواقع، هى تضاعف ملكية من يملكون، على حساب من لا يملكون.

فكتب بابيف فى العدد ٣٤، من جريدته «منبر الشعب»، يقول: «ما جوهر هذه الثورة الفرنسية؟ إنها حرب بين الأغنياء والفقراء، نبلاء روما وسادتها من جهة، وعبيدها وعامتها، من جهة أخرى». ولقد انتصر بابيف، الذى كتب ـ دوما ـ ضد هذه الإمارة الاقتصادية، لنظام

تيرميدورى في عام ١٧٩٥ ، وضد القانون البربرى ـ صنيعة رأس المال .
لقد انتحر ـ إذن ـ بابيف قبل إعدامه ، في ميدان الڤاندوم ، في ٢٨ من مايو عام ١٧٩٧ .

لقد رسخ ناپليون ـ في الحقيقة ـ بديكتاتوريته ، النظام القائم ، رافعا شعار الحرية . وقد كان أحد وزرائه ، وهو شامبينى ، ممثلاً حقيقيا للأرستقراطية الجديدة للمال . وقد كتب هذا الوزير إلى الكونت أنتريجو ، نصير الشرعية ، والذى ظل وفيا للنظام القديم : « لابد لنا من ملك ، يكون مالكا ، لأننى مالك» (خطاب فى ٢١ من أغسطس عام ١٨٠١) . لقد رسخ ناپليون وشرع ، قواعد الملكية والتجارة وتحرير الصناعة ، بفكر ثاقب ، في القانون الناپليوني عام ١٨٠٤ . وكانت فكرة «دعه يعمل ، دعه يمر» قد تبلورت منذ عام ١٧٨٩ .

لقد أعطى ناپليون ـ فى الواقع ـ المثل الأول لتلك الحقيقة ، مؤكدا منذ ذلك الوقت ، من لويس فيليب إلى ناپليون الثالث وحتى پينوشيه ، أن الليبرالية الاقتصادية على الرغم من صبغها بصبغة حرية الإنسان ، فإنها تتناغم مع نظام سياسى ديكتاتورى ، أو ديموقراطية تخفى تلك الديكتاتورية للمال .

يمكن لهذا النظام أن يجد مبرراته فى الدين ، وكذلك يمكنه أن يجدها فى الإلحاد . وهنا ـ أيضا ـ كان ناپليون سابقا لعصره . لقد سجل روديرير فى «مذكراته» ، ما يؤكد ثقة ناپليون «بأنه لا يمكن لمجتمع ما الوجود ، إلا مع عدم التساوى فى تقسيم الثروات ، وعدم التساوى فى الثروات لايمكن أن يقوم بلا دين . فعندما يتضور أحد الرجال جوعا ، ويجد إلى جانبه آخر ينتفخ من الطعام ، فإنه لا يمكنه تحمل ذلك ، إلا فى وجود سلطة تؤكد له ، أن الله يريدها كذلك ، وأنه يتعين أن يكون هناك فقراء

وأغنياء، وبعد هذه الحياة الدنيوية، وفى الحياة الأبدية، سيكون هذا التقسيم مختلفًا».

لذا صمم هذا الملحد، على أن يتوجه إلى البابا.

والفكرة ذاتها التى استخدمها ناپليون، استخدمها شاتوبريان ـ أيضا ـ بالإتقان ذاته، عند إعادة الملكية «فى دولة سياسية يمتلك بعض مواطنيها ثروات طائلة، بينما مواطنون آخرون يموتون من الجوع، فهل يمكن لهم أن يتبادلوا مواقعهم، إذا اختفى الدين بآماله الخارجة عن هذا العالم؛ حيث ينهض تبرير هذه التضحية؟».

(مذكرات ما وراء القبر، الجزء السادس، ص ٤٥١ الناشر برييه)

صرح لويس ڤيبوا (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) فى منتصف القرن التاسع عشر بأنه: «حين لا تؤمن بالله، يجب أن تكون مالكا؛ لتؤمن بالملكية».

(وفى هذا الإطار فقط، يجب أن نضع عبارة ماركس: «الدين أفيون الشعوب»).

لقد ولدت الاشتراكية ـ أساسا ـ كثورة على عدم إنسانية نظام الحرية الاقتصادية المفروض على المسيحيين، الذين رفضوا أن يشاركوا فى الحلم. ذلك لأن الأمر كما حلل الأب لوكاردير، مثلا، عن إعادته صياغة مبدإ عدم احترام آدمية الإنسان: « **فى صراع القوى والضعيف، «الحرية» هى التى تضطهد، والقانون (والمفروض فيه أن يكون قيداً على الجميع) هو الذى يحرر**».

وقد ولدت الاشتراكية من جراء البحث عن هذا القانون، الذى يسمح للإنسان بأن يكون إنسانًا. ولقد فشلت إلى الآن ثلاث مرات: فى عام ١٨٤٨، لم تكن سوى ثورة قُمعت فى ثلاثة أيام. فى عام ١٨٧١، لم

تعش كوميونة پاريس، سوى ثلاثة أشهر، وتحطمت أمام قوى بيسمارك - تيير المجتمعة، فقد حاصر الجيش البروسى پاريس، وسلمها لتيير. أما الفشل الأخير فهو للاتحاد السوڤيتى. فقد وُلد الأمل مع ثورة أكتوبر عام ١٩١٧، ودفن بعد ذلك بسبعين عاما، بعد أن عاش الاتحاد السوڤيتى، فى أحكام عرفية، وقانون طوارئ منذ ولادته، طبقا لإرادة كليمانصو وتشرشل مخترعى سياسة «خط الحديد الشائك»، الأوائل، وأجداد «حائط برلين».

لم يتوقف الحصار الرأسمالى طوال السبعين عاما سوى أربع سنوات، عندما غزا هتلر فرنسا وقصف إنجلترا بالقاذفات.

ولقد كان هتلر أفضل «الحوائط» ضد البولشفية، ولذلك احتفل الغربيون حين حصل على مقعد المستشار الألمانى، وأمدوه حتى عام ١٩٣٨ بالصلب، والنقود والامتيازات اللازمة (مثل ميونيخ فى عام ١٩٣٨)؛ للسماح له بلعب دور «الحائط ضد البولشفية».

لكن هتلر الذى قبل اللعب، كان قد وضع شروطا خاصة فى مخيلته. فقد رفض أن يظل في الكماشة بين الشرق والغرب. فغزا فرنسا، وقصف إنجلترا، وحيّد الاتحاد السوڤيتى، وظل شريكه، واستمر فى التعاون معه، إلى أن غزا الاتحاد السوڤيتى بثلثى جيشه. وقد حرر السوڤيت أوروپا من ستالينجراد، حتى برلين، محطمين القوة الألمانية. وقد دفع الاتحاد السوڤيتى فى هذه الحرب، ضريبة الفداء والبطولة (١٧ مليون قتيل). وقد استكمل إغلاق الدائرة من حوله، عقب هذه الحرب. فمنذ «خطاب فولتون» لتشرشل (١٩٤٦) أعلنت الحملة الصليبية الجديدة. وأصبح فيها الاتحاد السوڤيتى هو الهدف. ولم يسقط الاتحاد السوڤيتى بسبب هزيمة عسكرية، ولكن بسبب تردٍّ اقتصادى وسياسى. ثم إنه لم يسقط لأنه اتبع عقيدة ماركس، ولكن لأنه خانها.

ورأى مــاركس أن كــومــيــونة باريس هى المثال الشكلى للنظام الاشتراكى، الذى تمت ــ أخيرا ــ بلورته عبر هذه التجربة.

وكان ما يميز كوميونة باريس، على الصعيد الاقتصادى - فى الواقع - هو إدارة العمال أنفسهم لمؤسساتهم، التى تركها أصحابها الرأسماليون، وانضموا إلى الثورة المضادة لتيير، من ڤرساى. وهو ما أسماه لينين بعد ذلك، فى مقاله الأخير فى «البراڤدا»، «نظام المشاركة»، الذى يعنى بالنسبة إليه، قلب الاشتراكية، وما أسميناه فى عام ١٩٦٨، بـ «الإدارة الذاتية».

وعلى الصعيد السياسى، لم يكف ماركس منذ تأسيسه أول «أممية» (١٨٦٤)، عن رفض «الحزب الواحد». بل كان على النقيض من ذلك، عندما عبر عن رضاه فى مقالة له معروفة باسم «أخيرا وجدت الشكل» للنظام الاشتراكى، فى كوميونة باريس التى تألفت اللجنة المركزية لها من أغلبية عريضة من البرودونيين وأقلية من البرانكليين، وماركسى واحد. وهدفَ ماركس من ذلك إلى الدعوة لمبدئه القائم على التأليف بين كل الذين تتباين أيديولوچياتهم، ويرفضون النظام الرأسمالى.

وهكذا تألفت كوميونة باريس على الصعيد القومى، على أساس فيدرالية غير مركزية. وهى التى ما كان لها أن تتم، لولا أن باريس كانت معزولة عن باقى فرنسا بالقوات البروسية وقوات ڤرساى. وتأسست كوميونة مارسيليا، والتى لم تدم طويلاً، دون أدنى تدخل من باريس. وقد قام النظام السوڤيتى على العكس من هذه المبادئ، على مركزية التخطيط. وهو نظام لا يقوم فقط باستبعاد كل إدارة ذاتية، أو أى نظام

للمشاركة، بل إنه أيضا يفرض ــ دائما ــ تنفيذ الأوامر بالتهديدات والوعيد الصادر من المركز.

بذلك، يظل الحزب الواحد، بعيدا كل البعد عن القاعدة. بل يفرض دوجماتية وجموداً خانقا فى كل المجالات، من الاقتصاد إلى الدين والفن. وأصبحت الفيدرالية الاسمية وغير الحقيقية، متحكمة عبر هاتين المؤسستين السابقتين: مركزية التخطيط و«الحزب الواحد».

ــ ما جذور هذا التغير فى المسار؟

من البداية، ودون تجاهل الأسباب الثانوية، ظهرت مشكلات بناء الاشتراكية، ومشكلات إدارة عجلة التنمية، فى بلد كانت الرأسمالية فيه متخلفة، قياسا بالرأسماليات الأوروبية الغربية الأخرى. وبعد ذلك حاصرت هذه الرأسماليات الاتحاد السوڤيتى، وقاطعته، فحاول جاهدا العبور، إلى ما تجاوزته هذه الرأسمالية منذ زمن بعيد.

وكانت الخسائر المادية والعددية قد أرهقت الاتحاد السوڤيتى فى الحرب ضد هتلر. تلك الحرب التى كلفت الاتحاد السوڤيتى النصيب الأكبر من الخسائر. ثم بعد ذلك أدت النفقات الضخمة فى السباق الحقيقى للتسلح، والذى فرضته الولايات المتحدة وأتباعها أثناء الحرب الباردة، وكذلك ما لا يمكن حصره من الأسباب الداخلية، أدى كل ذلك إلى انهيار الاتحاد السوڤيتى.

وإلى جانب ذلك، يأتى السبب الأهم، وهو أننا ــ بقراءة أدبية وأصولية ـ لماركس ـ الذى افترض نظاما وتنمية، موضوعين طبقا لقوانين مغايرة تماما لقوانين وخواص الاتحاد السوڤيتى ـ نعلم أن ماركس لم يكن يضع الاتحاد السوڤيتى فى مخيلته.

١ ـ لقد افترض ماركس قوانين التنمية للرأسمالية الأكثر تقدما، والأقوى، فى وقته، وهى الرأسمالية الإنجليزية، بوضع علاقة بين الاستثمارات الموجهة لبناء قوى الإنتاج، وتلك الموجهة لإنتاج منتجات للاستهلاك. إنها النظرية الوحيدة للتنمية، والتى عاشت أكثر من قرن. وهكذا نقل الحواريون الدوجماتيون هذا القانون الوصفى للتطور الرأسمالى الإنجليزى، فى القرن التاسع عشر، إلى قانون دائم لتطور الاشتراكية الروسية فى القرن العشرين! خطأ قاتل منع الاشتراكية من تطوير نفسها، وأعطى الأولوية الكاملة ـ والتى سيطرت وفرضت ـ للصناعات الثقيلة، مكررة بذلك التصنيع غير الآدمى والوحشى، فى بدايات القرن التاسع عشر فى إنجلترا وفرنسا.

فى ظروف التخلف الاقتصادى لروسيا فى عام ١٩١٧، ثم إعادة البناء عقب خسائر الحرب العالمية الثانية، نشأت أولوية وجوب تزايد التصنيع، التى ظهرت كضرورة تاريخية لكى لا تتحطم روسيا، من خلال حصار القوى الرأسمالية. والكارثة الإنسانية لم تظهر بوضوح سوى بعد بزوغ الثورة الصناعية (١٩٣٧ والقضايا الكبرى)، ولكن نحيت جانبًا؛ نظرا إلى أهمية المواجهة أثناء الحرب، ومنع قيام الثورات الأولى فى ألمانيا، والمجر، ثم فى تشيكوسلوفاكيا، ثم عادت تلك المشكلات للظهور عقب إعاة البناء.

٢ ـ الكبوة الثانية كانت فى الخلط بين الاشتراكية وملكية الدولة.

لقد تهكم ماركس على الذين عرفوا الاشتراكية بالتأميمات. «بيسمارك ـ يقول ماركس ـ سيكون أكبر اشتراكى فى أوروبا لتأميمه البريد!!».

عندما زعم ستالين إعادة هيكلة الزراعة، فى أشهر قليلة، بطريقة أوتوقراطية، سقطت تلك الزراعة وإلى الآن لم تنهض.

قادت اشتراكية الاتحاد السوڤيتى وسائل الإنتاج فى بلد ذى رأسمالية متأخرة، لتحقيق تصنيع، ليس عن طريق تعاونيات تدار ذاتيا ولكن من أعلى، أى عبر قرارات الحكومة والدولة المركزية. فـ «الخطة» مثلا بدلا من أن تكون وسيلة لجعل الاقتصاد إنسانيا بتوجيه الاقتصاد، حسب الحاجات الإنسانية، وليس للكسب أو التفوق المادى البحت، أصبحت مؤسسة مسلسلة بطريقة شبه عسكرية، بدون اشتراك القاعدة، ويتحكم فيها التكنوقراط والبيروقراطيون وأعضاء جهاز الحزب، الذين يملكون كل القوى باسم العمال، الذين لم يستشاروا أصلا، أو بطريقة أخرى كانت مشاركتهم شكلية دون التأثير على القيادات المركزية متخذى القرارات الأصليين.

يختلف هذا المفهوم لدور الدولة جذريا، مع الدور الذى حدده ماركس لها.

٣ ـ التخبط فى التناقض أو الشذوذ الثالث الكبير، هو التخبط فى التخطيط، الذى لا دور له سوى توجيه طريقة التحكم من أعلى بتحديد الاستثمارات، والأسعار وطرق الإنتاج، والتوزيع السلعى، وتقدير القوى، عن طريق بيروقراطية مركزية، وأجهزة محلية تشكلها، هى نفسها.

تلك الانحرافات الثلاثة، قادت الاقتصاد إلى الفوضى، والحرية إلى المعتقل. لعل أسوأ ما كان فى تطور هذه الاشتراكية، هو الطابع المستمد

من الرأسمالية، بالإيمان الغربى بنموذج وحيد للتطور مختلط بالتزايد الكمى المؤكد بالعلوم والتكنولوچيا فى الغرب.

ما مات إذن مع الاتحاد السوڤيتى، لم تكن الماركسية، ولكن صورتها الكاريكاتيرية المأساوية. نعم، بل وعلى العكس، فإن رؤية ماركس تم تأكيدها، كما لم يحدث أبدا فى هذا القرن. ولكن بسقوط رؤية آدم سميث و«ليبراليته الاقتصادية».

القضية الكبرى لآدم سميث هى: «لو أن كل فرد حقق مصالحه الشخصية سيكون المجتمع عامة، فى أفضل حال وفى أمان». على مدى قرنين تركزت الثروة فى أيدى أقلية، والبطالة والإقصاء لأغلبية متزايدة من الإنسانية، ليس ـ فقط ـ فى البلاد المستعمرة قديما، ولكن ـ أيضا ـ لدى قدامى المستعمرين ومحدثيهم.

القضية لدى ماركس، هى أن الرأسمالية تخلق الثروات (ومن هذه النقطة لم يتودد لها كثيرا)، لكنها فى الوقت ذاته تخلق البؤس بعدم المساواة الذى تولده بالضرورة. المحصلة النهائية للنصر غير الدائم الذى حققته على الصعيد العالمى «الليبرالية الاقتصادية»، يمكن أن يتصف بهاتين السمتين أو الوضعين:

* عالم ممزق، حيث إن تقدم الغربيين يكلف العالم عدد ضحايا كارثة هيروشيما كل يومين بالنسبة إلى أربعة أخماس العالم.

* عالم مفتت، حيث إن الدول الغربية لا تكف عن مضاعفه أعداد العاطلين، والمبعدين، وفاقدى الأمل واليائسين.

ـ من كان ـ إذن ـ على صواب؟ آدم سميث أم كارل ماركس؟ التاريخ حكم بأن ما ميز القرن العشرين هو سقوط الليبرالية الاقتصادية، وليس

الاشتراكية. أمل الإنسانية في القرن الواحد والعشرين، شكل جديد من الاشتراكية، ينقذ الإنسانية من عالم الغابة الذى فيه الإنسان ذئب لأخيه الإنسان.

* * *

تتوجه اشتراكية كتلك، لخلق وحدة سيمفونية للعالم، من خلال التخصيب المتبادل بين كل الثقافات: ولا يمكن أن تولد من الحضارة الغربية وحدها.

ذكر لينين، وله الحق فى هذه النظرة الثاقبة، بأن فكر ماركس كانت له ثلاثة مصادر:

* الفلسفة الألمانية.

* الاقتصاد السياسى الإنجليزى.

* الاشتراكية الفرنسية.

ماركس نفسه يدرك بأن مساره التاريخى (الشيوعية البدائية، ثم العبودية، ثم الإقطاع، ثم رأسمالية، ثم اشتراكية، ثم شيوعية) لا يتفق عند الاقتضاء إلا مع الحضارات البحر متوسطية، مع الأخذ فى الاعتبار الخصوصيات الألمانية. ولم يكف عن نقد القراءات الإستاتيكية (سنقول: المتطرفة) لأعماله، آخذين مثلا ما كتبه ضد الصحفى الروسى ميخائيلوفسكى. كتب ماركس عام ١٨٧٧ لمدير المجلة: «ناقدى أحس أنه مضطر لتحويل بحثى التاريخى لتطور الرأسمالية فى أوروبا، إلى نظرية فلسفية تاريخية عامة، تفرض حتمية على مصير كل شعب - أيًا كانت الظروف التاريخية التى يوجد هذا الشعب فيها - بطريقة تمكنها من مجاراة

صورة الاقتصاد التى تضمن أكبر توسع للطاقات المنتجة للعمل لتنمية أكثر اكتمالا للإنسان. ولكنى أطلب الصفح منه، فما قال يجعلنى كثير الفخر وعظيم الخجل».

فى خطاب بعثه إلى ڤيرا زاسوليتش بتاريخ ٨ من مارس عام ١٨٨١، قال بعدم اعترافه بمن يدعون أنفسهم الماركسيين الروس، الذين لا يعبئون بالتطور التاريخى الخاص لبلدهم، وبالأخص فى ظل وجود مجتمعات ريفية، ومنها يمكن بزوغ اشتراكية مختلفة، عن تلك المبنية على أساس التضاد وتناقضات رأسمالية عالية التقدم مثل ما حدث فى إنجلترا. وذكر بأن مساره التوضيحى كان «مبنيّا تماما على أساس بلاد أوروپا الغربية».

فى مواضع مختلفة، وبخاصة فى مقدمة كتابه: «إسهامات فى نقد الاقتصاد السياسى»، تعرض لخصوصية «نمط الإنتاج الآسيوى» الذى درسه بناء على أبحاث قام بها على المجتمع الهندى، هذا المفهوم استبعده المنظرون الروس وتخلوا عنه رسميا، واتهموا المنادين به بأنهم ضد الماركسيين(!) فى أثناء مناقشات تيفليس ولينينجراد، فى عامى ١٩٣٠ و١٩٣١، بينما ماركس (طبقا للمعارف القليلة التى يمكن معرفتها فى وقته عن الحضارات غير الغربية) كان قد بدأ فى دراسة «أنماط إنتاج لما قبل الرأسمالية وأنواع الملكية» فى كتابه «مبادئ نقد الاقتصاد السياسى». من ١٨٥٧ـ١٨٥٨.

(انظر ماركس: أعمال .اقتصاد. المجلد الثانى، ص ٣١٢ إلى ٣٥٥ لابلياد)

* * *

واليوم يكون ضروريا محاكمة ثقافة وحضارة الغرب، على أساس دورها الهدام للثقافات الأخرى؛ طبقا للفكرة الملعونة «الشعب المختار» (التى تتم عبر رفض الآخر وإنكاره حتى إبادته).

الغرب يرفض ويدين المختلفين، وهو بهذا الرفض للأشكال الإنسانية الأخرى يحمل أسباب انهياره النهائى، ويضع مستقبل الإنسانية فى خطر حقيقى، فقد تخطى الزمن تلك الأحادية للثقافة الغربية وهيمنتها المهددة بالانشطار.

لقد حان الوقت للحوار بين الثقافات، لو أراد الإنسان أن يعبر دون أن يموت، العتبة الثالثة من تاريخه.

العتبة الأولى كانت ولادة الإنسان وأدواته الأولية التى ساعدته على مواجهة الحياة.

الثانية كانت ولادة الحضارة مع الزراعة.

الثالثة تتلاعب بالنواة والذرة وقلب المادة، ومن سماتها هذا التلاعب فى الچينات الذى هو قلب الحياة.

فللإنسان القدرة الآن على إلغاء كل إنجازاته ومكاسبه السابقة. وله أيضا القدرة التكنيكية على إرجاع الإنسان الحيوان الذى كان عليه قبل الأدوات. ولديه القدرة التكنيكية عبر سيطرته على الذرة أن ينهى أى أثر للحياة على الأرض.

قادت أحلام احتواء الطبيعة لديكارت وفاوست، إلى انهيار العالم وإهدار غالبية الطاقات الطبيعية. لقد قادت نظريات وعقائد آدم سميث إلى تحويل الإنسان إلى رجل آلى خاو يتلاعب بالعقول والقلوب. وهناك حضارات أخرى تلك التى فى آسيا، وأمريكا اللاتينية وإفريقيا والإسلام، عاشت على أسس علاقات أخرى مع الطبيعة والإنسان والله ـ (الإلهى). فالمشكلات المطروحة فى إطار كوكبى تتطلب إجابة فى إطار كوكبى.

لن تحل تلك المشكلات إلا إذا توجهنا وتوصلنا إلى إعادة تكوين النسيج الإنسانى المخرب والمدمر بأربعة قرون من الاستعمار والهيمنة الغربية. ولن نحلها إلا إذا توجهنا لتطوير حوار حقيقى للحضارات بين كل ثقافات العالم.

الهدف الرئيسى من حوار الحضارات هو مساعدة الآخرين.

ليس فقط عبر متخصصين أو بعض الفلاسفة، ولكن بالجموع الشعبية العريضة ـ من هنا فإن المشكلات العالمية المطروحة اليوم، وإن كان أهمها قد ولد بسبب هيمنة خاصة وطويلة للغرب، لا يمكن حلها إلا عن طريق حوار مع الحضارات غير الغربية، من أجل تخيل وتصور وتعايش علاقات جديدة بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والمقدس. هكذا فقط يمكن أن نفتح أفق ثقافة كوكبية، مرسخة عبر اتحاد حقيقى للإنسانية، لا عن طريق تركيبة تلفيقية، ولكن مبنية على مفهوم مغاير لفكر الهيمنة، بحيث تكون تركيبة سيمفونية تعزفها الثقافات المختلفة.

الفصل السادس
أفكار الغرب وأكاذيبه

إن الطريق مفتوح أمام الشعوب التى خضعت طويلا للغرب لكى تنجو من تنمية فَرضَها الاستعمار، وكانت تنمية أجنبية غريبة عن الثقافة الأصلية لتلك الشعوب.

ولا يعنى ذلك أبدا أن ننكر مساهمة الغرب. بل يعنى أن نعطى الغرب مكانه كاملاً وليس أكثر من مكانه. وخاصة فى تنسيق قوى العلم والتكنولوچيا مع أهداف إنسانية حقيقية.

وبهذه الطريقة وحدها يمكن استكمال الملحمة الإنسانية على ظهر هذا الكوكب. ولقد كتب رائد فضاء، حط قدميه على سطح القمر، عند عودته: «بدت الأرض من هنا رائعة الجمال، مضيئة، وبدت موحدة يسودها السلام». وكانت هذه أول مرة ترمق فيها عين بشرية الأرض بنظرة شاملة وفى فضاء لا يحده الأفق.

فهل سنصل إلى إدراك هذه الصورة، ونتمسك بها فى المستقبل؟

منذ الفجر الأول للحضارة الإنسانية، ومنذ أوائل توهجات الرواد والمبدعين فى الفكر والحب، إلى منظرى آمالنا ومشروعنا فى تحقيق الوحدة الإنسانية، قد أصبح من الآن إحداث تغيير جذرى فى العلاقات

الاجتماعية ممكنا، وخلق تنمية جديدة لا تكون ساحقة للإنسان وحريته، ولا تؤدى من جديد إلى إقامة «توازن الرعب»، ليصبح تهديداً ضد السلام وأمن الشعوب .

* إن التنمية التي نأملها هى تنمية كيفية وليست كمية، وهى تشبه ما تحلم به كل أم لطفلها وما يتمناه كل منا لكل من يحبه. تنمية بالمعنى الذى يفهمه سان جريجوار دى نيسه عندما قال: « إن الله هو الاكتشاف الأبدى والنمو الأبدى».

* يجب أن تنفتح أوروپا على العالم، وأولا على «العالم الثالث»، وأن تنصت إلى الثقافات الأخرى، لأن المشكلات التى يطرحها النموذج الغربى للتنمية مطروحة على مستوى الكون ولا يمكن حلها إلا بتنسيق مع الشعوب، والثقافات وحكمة العوالم الثلاثة الأخرى. إن هذا هو أحد الشروط الأساسية لإقامة سلام حقيقى بلا ظلم أو هيمنة.

* لا بد من إحداث تحول جذرى فى التعليم ليتخلص من استخدامه كوسيلة لأقلمة الإنسان مع حاجات النظام القائم، وليصبح التعليم وسيلة تعين الإنسان على ابتكار المستقبل. ومن أجل ذلك لا بد أن يتعلم الطفل أن العالم ليس حقيقة تم الانتهاء من صياغتها. ولكن العالم عمل ينتظر الابتكار.

* * *

إن المهمة الأولى للمثقفين هى كشف الأكاذيب التى تسود المراجع المدرسية، ووسائل الإعلام، وهما اللذان يخدمان الغرب للإبقاء على هيمنته بأيديولوچيات مغالطة عن «حداثته». وليس ثمة افتراض واحد عن تلك الحداثة المزعومة لا يعد افتراء وكذبا.

وأولهـا تلك المزاعم عن الديموقراطيـة، وحـماية حقـوق الإنسان، والحرية.

* فلقد كانت الديموقراطية دائما ستارا للأقلية، من ملاك العبيد حتى أساطين المال، وما كان يسمى «بديموقراطية أثينا» فى وقت پيركليس، والتى كان يضرب بها المثل كأم الديموقراطيات، لم تكن فى الحقيقة سوى سيادة عشرين ألف مواطن حر على مائة ألف عبد محروم من أى حق. إننا أمام حكم الأقلية المستعبدة، ويسمى «ديموقراطية». ديموقراطية السادة، وليست للآخرين. وإعلان استقلال الولايات المتحدة ينص على المساواة فى الحقوق بين المواطنين جميعا. وعقب هذا الإعلان الحاسم، تم الحفاظ على العبودية ـ بالقانون ـ لمدة زادت على قرن، وما زالت التفرقة العنصرية ضد السود باقية حتى الآن.

الديموقراطية للبيض، وليست للسود ولا للهنود.

يؤكد إعلان حقوق الإنسان والمواطن، إبان الثورة الفرنسية بجلال: «كل الناس يولدون أحراراً ليتساووا فى الحقوق». ولكن الدستور الذى يضع هذا الإعلان فى مقدمته، يستبعد ثلاثة أرباع الفرنسيين من حق التصويت، لأن الدستور يعتبر الفقير مواطنا «سلبيا». إنها ديموقراطية للأغنياء وليست للفقراء.

ونفس الشىء بالنسبة «لحقوق الإنسان»، فقد نص «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» الخاص بالأمم المتحدة على الحقوق ذاتها فى عام ١٩٤٨. ولكن كل ذلك عبارة عن تجريدات تتناقض بفظاعة مع الحقيقة. وسنكتفى بمثلين اثنين كدليل على هذا التناقض:

ـ ماذا يعنى إعلان «حق العمل»، إذا كان النظام يشمل ملايين العاطلين الذين لا يتوقفون عن الزيادة؟

ـ وماذا يعنى «حق الاقتراع»، وقد حلت الورقة المالية محل ورقة الانتخاب منذ وقت طويل؟

ليس هذا فقط. فالقيام بحملة انتخابية للفوز بمقعد عضو فى مجلس الشيوخ الأمريكى أو نائب فى الكونجرس، يحتاج إلى ملايين الدولارات، وتسمح الثروة فى كل الدول بشراء الأدوات اللازمة للسلطة: ومنها الإعلام للتلاعب بالرأى العام، وكذلك صناعات السلاح لإقناعهم فى نهاية المطاف إذا فشل الإعلام.

وهذا «الإعلان» «عالمى»!

وكل العالم يمكنه المطالبة بحقوق الإنسان وبمساواة كاملة أمام القانون.

للعاطل والمليارديرمعا الحق المتساوى فى إصدار صحيفة أو إقامة محطة تليفزيونية، ولكن ماذا عن القدرة على ذلك؟ كذلك تمنع تلك المساواة أمام القانون الملياردير أو العاطل من سرقة الخبز، لأنهما قد يواجهان عقوبة واحدة، ولكن ماذا عن حاجة كل منهما لذلك؟

ومن الملفت للنظر أن من يعلنون أنفسهم مدافعين عن «حقوق الإنسان» على الصعيد العالمى، مثل مجموعة السبعة أو عصابة الدول السبع الأغنى فى العالم والتى اجتمع قادتها، فى ليون عام ١٩٩٦ «لمكافحة الإرهاب»، هم فى الحقيقة رؤساء الدول الأكثر «إرهابا» فى تاريخ العالم وحاضره، وهم أيضا أبشع المعتدين على حقوق الإنسان. وليس تاريخهم القديم وحده دليلاً على ذلك (إبادة الهنود واستعباد الزنوج، وتلك خصوصية أمريكية، ثم شن الحروب واستعمار بلاد آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية من قبَل دول عصابة السبع)، وإنما جرائمهم القريبة دليل متجدد، مثل الكارثة المرعبة التى أحدثوها فى ڤيتنام بضربها بالناپالم. وكذلك توريد السلاح والأموال، فضلا عن خبراء التعذيب فى

رواندا مما أسفر عن ٤٠٠,٠٠٠ قتيل (أربعمائة ألف قتيل). وكذلك هم المسئولون عن قتل ٢٥٠,٠٠٠ (مائتان وخمسون ألف) طفل لا تزيد أعمارهم على خمس سنوات، فى المستشفيات وخارجها (طبقا لأرقام منظمة الصحة العالمية) بإصرارهم على فرض الحصار على العراق. ولا نمل من تكرار أن هؤلاء الذين يتخذون نموذج النمو «الليبرالى» يفرضون على بقية العالم كل يومين من الضحايا ما يوازى عدد قتلى هيروشيما.

* * *

إن أساتذة الأخلاق هؤلاء - على غرابتهم - يعطون للعالم مثال الأصولية الأشد تطرفا، لأن الأصولية هى ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة واحتكار الحق، بل والواجب فى فرضها على الآخرين. إن النموذج الأمثل للأصولية هو الاستعمار الذى كانت حجتاه الأيديولوچيتان نشر وإرساء «الإنجيلية» ليفرض على العالم مفهومه الخاص عن الدين، وليقوم العسكريون والتجار بالباقى، أى بالمجازر والاستغلال. وعندما يتراجع الدين، يتقدم نفس المنفذين ليفرضوا على العالم «حداثتهم».

ولم يكن توحد الاستعمار تحت قيادة الولايات المتحدة، فى «النظام العالمى الجديد» إلا استمرارا للفوضى الاستعمارية القديمة بصورة جديدة باسم «الليبرالية الاقتصادية الشاملة» لتجعل الهيمنة على العالم من الآن فصاعدا بوسائل اقتصادية (دون استبعاد التدمير العسكرى). وبعد القضاء على «التفرقة العنصرية» فى جنوب إفريقيا والتى كانت الصهيونية الإسرائيلية أفضل حلفائها، أصبحت تلك الصهيونية الإسرائيلية هى الممثل الأخير للاستعمار الكلاسيكى، أى الاستعمار العنصرى.

وقد تولدت الأصوليات الأخرى احتجاجًا على الأصولية الأساسية للغرب وشركائه (من إسرائيل، إلى إيران الشاه وإلى زائير أيام موبوتو).

الفصل السابع

الحضارة وإيمان الآخرين

«عقيدة التحرير»

اكتشاف المبادئ الأساسية للتنمية الحقيقية فى البلدان غير الغربية، من أكبر المصاعب التى لا يمكن مواجهتها بسهولة. وأقصد هنا تنمية الإنسان، لا نمو صافى الناتج القومى. وذلك بأن نعثر فى الثقافات التى تجمدت طيلة خمسة قرون بسبب الاستعمار، على أسرار عظمتها الأولى، وما قد يعيننا اليوم على بناء حضارة تقوم على علاقات أخرى: مع الطبيعة، ومع البشر، ومع الله، تختلف عن تلك التى تقوم الآن.

أما حول علاقتنا بالطبيعة، فعلينا ألا نعتبر الطبيعة مخزنا ومدفنا، أى مجرد مخزن نسحب منه الطاقة المخزونة والمواد الأولية، أو مجرد مدفن لنفاياتنا. إن علينا أن نسترجع أولا ذلك الإحساس بأن الطبيعة لا تنتمى إلينا، بل نحن الذين ننتمى إلى الطبيعة. وقد قال لى صديق إفريقى أسود ذات يوم: «إن الأرض تنتمى إلى مجتمع متسع الأطراف، مات البعض من قبل وما زال البعض حيا، وهناك آخرون لم يولدوا بعد. ونحن نحمل مسئولية كل شىء وكل كائن».

أما نحن، فهل نفكر ـ أيضا ـ فى أحفادنا الذين سيضطرون خلال قرون قادمة للدفاع عن حياتهم فى مواجهة إشعاعات مخلفاتنا النووية؟

قال زعيم هندى من مقاطعة ميلك ريڤر، قرب حدود مونتانا، للغزاة الأمريكيين الذين كانوا يضغطون عليه للتوقيع على اتفاقية «للتنازل عن الأرض» : «طالما ظلت الشمس تسطع، وظلت المياه تتدفق لتمد الإنسان والحيوان بالحياة، هل تظنون أن الخالق قد أرسلكم لتطويعنا حسب إرادتكم ؟! عليكم أن تدركوا جيدا سر حبى لهذه الأرض، وما جعلنى لم أنطق يوما بأن الأرض ملكى أستغلها كما أشاء. فلقد هيأتها لنا الروح الكبرى. ولا نقدر على بيعها . . لأننا لا نملكها».

ولكن ماذا يتبقى فينا من احترام للطبيعة وتبجيل لله فى نظام يباع كل شيء فيه ويشترى؟!

وفى لوحة للرسم الصينى فى عهد سونج (القرن الثامن) نعيش حضور «تاو» : أن يكون «الواحد مع الجميع».

إن شبكة الأنهار والجبال والسحب والأشجار، ووجود هذا الكائن البشرى الصغير وسط تدفق كل تلك الأشكال، يعطينا الإحساس بأن العين الهندسية الغربية ليست هى التى «تحدد» اللوحة، لأن المنظور ليس سوى الرمز المرئى للعالم أجمع . . بما يحتويه من قوى تتدفق مما هو أبعد من اللوحة ذاتها. وتفيض علينا بنوع من التوحد الكونى أقرب إلى الصلاة والتهدج عند الخطوط اللانهائية. فماذا يتبقى لنا فى حياتنا (وفى فنوننا المسماة بالمعاصرة) من هذا الإحساس الذى يسع المحيطات؟

وفى علاقتنا مع «الآخر» وبعيدا عن «أنانيتنا» الصغيرة، والتى نعتبرها مركز كل شيء ومقياسه، علينا أن نعثر على معنى «الجماعة»، أى معنى البشرية فى مجملها، والتى يشعر فيها كل فرد بأنه مسئول عن مصائر الآخرين.

لقد أقنعتنى بذلك تجربة الشهور الأربعة فى إحدى القرى الصغيرة النائية على حدود غينيا والسنغال، على بعد ألف كيلومتر من الساحل، حيث لا يوجد مسيحى أو مسلم، ولا يعيش فيها سوى من نسميهم على أفضل التعابير «المؤمنين بالأرواح». وحتى فى پاريس، وحين كنت أتردد على مجموعات من المهاجرين المغاربة أو السنغاليين، اقتنعت بأن هناك دائما ما يمكن أن نتعلمه منهم، عبر التعاون الإنسانى والإنصات إلى الثقافات الأخرى، وبخاصة تلك الإنسانية التى لم تلوثها الحضارة الحديثة.

أما فيما يتصل بعلاقتنا مع المقدس، فنحن بحاجة أيضا إلى إيمان الآخرين من شتى الثقافات الأخرى، وأيضا نحتاج لشكهم وتشككهم بل وعدم تصديقهم، حتى تتحقق لنا النجاة من آلهة القوة، ومن الملوك الذين يلوحون بالصواعق، مثل زيوس، وچوبيتر، ورب الجيوش مثل يهوا، وكل تلك الأصنام الوثنية الداعية لعبادة القوة والمال، وآلهة القبائل مثل أثينا، والآلهة الأخرى التى تهب النصر أو تأمر بالمذابح لحماية «شعبها المختار» ضد الآخرين. ولقد ظهر يسوع الآسيوى لكى يشهد على ضحالة كل الآلهة الوثنية القديمة وعجزها، مما أوجب القطيعة الجذرية معها، كما دعت من قبل تلك الحكمة الشرقية القديمة الخاصةبالڤيدا السنسكريتية منذ الألف الثانية قبل عصرنا، وذكر فيها حكيم هندى تلك الكلمات:

«إن ديانتنا الڤيدية الخالدة هى منبع كل الديانات وكل الثقافات وكل الحضارات».

ولقد قال الأب اليسوعى مونشانين عن الڤيدا: ـ إنها «الأنشودة الدينية المكتملة».

(الأب چول مونشانين، «صوفية الهند والغموض البراق فى المسيحية» الناشر فايار ١٩٧٤)

ولقد تغنت أناشيد «القيدا»، والتعليقات عليها فى «الأوبانيشاد» معلنة لأول مرة وحدة الكون، ووحدة الإنسان مع الله : « تعددت أسماؤه الحسنى، لكنه واحد أحد».

(١٠/ ١٤٥)

ولقد مجّدت الأنشودة اتحاد الله مع الكل، ما يقرب من ألف عام قبل أى روحانية أخرى.

(أنشودة ١/ ١٦٤ و١٧٠ و٣/ ٥ و٥/ ٣)

وتحمل أناشيد القيدا كذلك والتعليقات عليها، فى «الأوبانيشاد» بعد عدة قرون أخرى نفس الرؤية، وهى أكثر جوانية (*) للإنسان الذى يسكنه الإله : « أنت ذلك ـ البراهمان ـ تلك الوحدة للكل الذى نسميه الإله». إنه هو بأكمله فى الإنسان، تتوحد معه الأنا «الجوانية» الأعمق. إن البراهمان هو أبعد مما هو موجود، وماليس موجوداً. وهو داخل كل موجود، وخارج كل موجود. مثل المملكة التى سيعلنها لنا يسوع، تلك المملكة التى لاندخلها غزاة، بل ندخلها زاهدين.

وهكذا كانت أيضا تعاليم «ريشيس» لنساك الهند، والتى اشترطت الزهد فى كل شىء لنا، وبنا، وبما نملكه. الزهد فى رغباتنا المنحازة، وفى الأهداف التى نظن أننا نحققها بها. الزهد حتى نتوحد مع الحقيقة النهائية للعالم. تلك الحقيقة المطلقة التى لا ينفصم فيها الوجود والضمير والهناء الأعلى. وهذا المثلث الأولى.

(*) جوانية : التعبير الفلسفى لما هو داخل الإنسان، وقد أطلقه عثمان أمين تلميذ محمد عبده.

ولقد كتب رابندرانات طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) :

ـ « إن أسمى هدف وذروة اكتمال الإنسانية ، هو تلك الحالة التى نحققها بتقربنا مع الكل ، حين نمتزج بكل شىء عبر الوحدة مع الله» .

وكانت تلك أيضا هى رسالة التاوية الصينية ، كما كتب تشوانج تسو فى القرن الرابع قبل الميلاد : « كل الأحياء وأنا فى الأصل واحد» . «وكل الكائنات واحد فى الكل الهائل . واحد مع الكل» .

تلك الصوفية هى الملمح الداخلى لكل عمل إنسانى خالص . بمعنى أنه لا يحفل سوى بالكل ، ويخلو من كل غاية منحازة ، سواء كانت هدفًا ذاتيّا ، أو مصلحة جماعة منحازة . جنسًا كان أو أمة ، أو كنيسة ، أو حزبًا . وهذا فى مضمونه نقيض المفهوم القَبَلى « للشعب المختار» فى «العهد القديم» .

ولقد انقطع يسوع جذريّا عن هذا المفهوم . بل كانت هذه أيضا هى «الصحوة» التى كان بوذا شاهدًا عليها .

ولقد قصدت التذكير بحكمة القدماء ، والتذكير برسالة حياة المسيح وموته ، لأنه كان حامل الرسالة الأقرب ، رسالة الإيمان الواحد حين تتحول الحكمة إلى شخص ، وإلى إنسان يغيِّرنا حبه ليجعل للحياة التى نحياها معنى . إن موته هو بعثنا ، ليجعلنا نكون . وكما كتب زاهد بيزنطى فى القرن الرابع عشر : « أنا أحب ، إذن أنا موجود» .

إن يسوع هو الخروج أولا من الذات . وكذلك الخروج أيضا من انتماءاتنا المتحيزة . وهو القطيعة المطلقة مع «العهد القديم» الذى ينتهك كل القانون كما نتصوره منذ القديس بولس ، والذى لم يشر مطلقا إلى حياة المسيح وأقواله وأعماله !

إن مسيح القديس بولس ليس هو يسوع. مسيح بولس هو الترجمة اليونانية للمسيا اليهودى، الذى عليه أن يعيد مملكة داود. وعليه إذن أن يكون من نسل داود، وأن يتمم ما بدأه هذا القائد الحربى لحفنة من المرتزقة، حدثتنا كُتب «صمويل والملوك» عن مغامراتها الدموية الفظيعة.

لم يكن يسوع داود الجديد. كما لم يكن ابنًا لإله الحروب ورب الجيوش. ولم تكن المحبة التى بشر بها استكمالا لما ورد فى العهد القديم من عنصرية ودموية، والتى قصرت «أن يحب بعضكم بعضا»، على حدود القبيلة الضيقة. والنصوص التلمودية تقتضى هذا التفسير(١٧). بينما قال يسوع: هذه وصية جديدة لن تجدوها فى شريعة موسى «كما قلت لليهود: حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. أقول لكم أنتم الآن [للحواريين] وصية جديدة: تحبوا بعضكم بعضًا» (يوحنا ١٣ : ٣٣ ـ ٣٤).

وقد كتب المفسر الكبير «دود» فى كتابه «مؤسس المسيحية» (مطبوعات سيى١٩٧٢، ص ١٠٨) «إن المسيانية فى العقلية الدارجة قد ارتبطت بالدور السياسى والعسكرى «لنسل داود»، وهذا الدور كان آخر ما يرغبه عيسى عليه السلام».

وأضاف كذلك فى «مواعظ مملكة الرب»: «إن كلمات يسوع لا يوجد ما يوازيها فى التعاليم اليهودية، ولا يجب حسبان مهمة يسوع على أنها محاولة إصلاح اليهودية، فقد أتى يسوع بشىء مختلف عنها تمامًا، ويبتعد عنها كل البعد، ولا يمكن أن يتوافق مع النظام التقليدى».

(ص ٤٢، ٤٩)

وهناك مفسر آخر، مثل إيثلبرنت ستوفر، من جامعة علوم الدين بزيوريخ، كان أكثر جذرية حين قال: «المسيح يعلن رسالة جديدة من الله، ودينًا جديدًا، وأخلاقًا وقيمًا جديدة لم يعد لها أى اتصال بالتوراة».

(الترجمة الإنجليزية لكتاب «المسيح وتاريخه»، لندن١٩٦٠)

وكتب عالم آخر من علماء الدين، هو جنزاليس فوس: «إن الرب الذى دعا له يسوع ليس هو الرب الذى دعا إليه العهد القديم».

(فوس: «القرب من يسوع». الناشر سيجويم، سالامنكا ١٩٩٨ ص ١٦١)

ولقد كان بولس، بإعادته «تهويد المسيحية» هو الجد الأكبر لكل عقائد السيطرة[١٨]، التى بدأت فى القسطنطينية بربط الكنيسة بالسلطة منذ القرن الرابع، ثم الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، ثم الاستعمار الذى انقلب إلى تبشير دينى، وكذلك التعاون مع فرانكو، والتعاون مع بيتان، والردة التى تعارض الانفتاح الرسولى للفاتيكان. وكذلك التنديد بعقائد لاهوت التحرير، مع أنها إحدى الأمانى الكبرى فى عصرنا، لأنها تتمسك بالتسامى الإلهى حين تكشف عن اعتبار التسامى ظاهرة خارجية، وحين تسقط عن الإنسان مسئولياته فى مواجهة إله ينظم مصائر الناس «من أعلى» و«من الخارج».

ولقد فشلت التجارب التاريخية لإقامة الاشتراكية تحت اسم الماركسية المختلس، وتبلور الخطأ الأساسى إلى جانب الأخطاء الشخصية فى النظرية التى سميت «بالاشتراكية التاريخية»، حين ادعت تلك النظرية إمكانية «تحرير» الفرد بعد تجريده من بعده المتسامى.

ولم تشارك عقائد لاهوت التحرير هذا المفهوم المقلّص والمختزل للإنسان. بل انطلقت تلك العقائد من اليقين بأن كل معركة للتحرير فى حاجة إلى التسامى أكثر من حاجتها إلى الحتمية، وبهذا فتحت طريقا غير مسبوق، لاينفصم فيه الإيمان عن التاريخ. وبحركة واحدة، ذكّرت البعض بالبعد المتسامى فى التاريخ، وذكّرت البعض الآخر بالبعد التاريخى للتسامى.

وبذلك تجاوزت تلك العقائد التحررية ثنائيتين، متوازيتين ومتناقضتين، تمثلان عقبة كئودا فى طريق تحرر الإنسان تحرراً شاملا : **فإما الإيمان بالتسامى كنوع من مظاهر القيامة والبعث والحساب مع التقليل من (النضالات) التاريخية للإنسان، وإما الالتزام بالتاريخ والواقع دون مرجعية إلى المطلق**، وقد أدى هذا التحيز المضاعف فى الغرب إلى عجز بيّن لدى مسيحية لم تأخذ فى حسابها التاريخى حركات تحرر الإنسان، أو إفلاس الذين يتحاربون فى تاريخ منغلق. وتبذل عقائد لاهوت التحرر أقصى الجهد المعاصر لتنهى هذا الطلاق.

وليس من قبيل الصدفة التاريخية أن تولد عقائد لاهوت التحرر فى أول بلاد تم استعمارها فى أمريكا اللاتينية.

وقد ظهرت فى تلك البلاد بذرة الوعى بين الأكثر حرمانا، بأن الفقر لايعنى نهاية الدنيا. وظهر بينهم تصور للمحبة يحل محل ذلك التصور بأن ضمان الاستقرار لايتم إلا بمأساة إفقار الحشود فقرا مدقعا، ثم الثراء الفاجر فى أيدى الأقلية.

ومن هذا الموقف التاريخى الملموس، بحدته المحتدمة فى أمريكا اللاتينية وإفريقيا، توجه عقائديو التحرير فى كنيسة فتحها للعالم مجمع

الڤاتيكان والبابا يوحنا الثامن عشر لخدمة العالم وليس للسيطرة عليه. وتعهد عقائديو التحرير لتفسير هذا العالم على ضوء مطالب يسوع من هؤلاء الذين يريدون السير فى طريقه: بأن يتنازلوا عما يملكون، لا أن «يسعفوا» الفقراء، بل بأن يصبحوا فقراء بين الفقراء بأعمق المعانى: أى بين المسحوقين جسديًا والذين تسحقهم الجماعات المسيطرة، والمغتربين بالأيديولوچيات الكاسحة.

وقد تأكد هذا الاختيار المفضل من أجل الفقراء بفضل عقائديى التحرير، عام ١٩٦٨، فى ميدلين بكولومبيا، فى الاجتماع الاستثنائى لأساقفة مجموعة القارة، ومجلس أساقفة أمريكا اللاتينية (CELAM)، وبهذا حطَّم وهما قاتلا، كان يدعو لحياد السياسة عن الدين والمحبة، مما أدى إلى انقسام العالم بين أقلية من المترفين وأغلبية ساحقة من المسحوقين.

إن الوعى بوضع تاريخى على هدى يسوع، واتخاذ الموقف لمحاربة «اللامعنى» لذلك العالم الذى تضطهد فيه الأغلبية الساحقة من البشر - وخاصة فى العالم الثالث - سيؤدى إلى قراءة جديدة للأناجيل، وإلى تغيير جذرى للمسيرة الدينية التقليدية فى الغرب. وبدلاً من ادعاء «استخلاص» نظرية اجتماعية أو سياسية من نصوص الأناجيل دون اعتبار للحقائق التاريخية لكل عصر، تنطلق النظرية من تلك المواقف التاريخية المحددة لاستخلاص معانيها على هدى رسالة يسوع، وهنا ينقلب الوضع تماما فى مواجهة السلطات الدينية والسياسية.

إن هذا الانفراج الفريد الذى ضربه يسوع فى تاريخ الإنسان هو النموذج الخالد للتسامى فى التاريخ.

و«عقيدة التحرير» للأب جوتيريز فى پيرو، و«يسوع المحرر» للأب ليوناردو بوف فى البرازيل، و«تاريخ عقيدة التحرر» لإنريكو دوسيل فى الأرچنتين، و«تحرر العقيدة» للأب سيجوندو، علامات على ذلك المسعى، وهذا الانقلاب الكبير[١٩].

ولقد كانت انتقاداتهم للماركسية أيضا هى الأكثر عمقا. ولا يمكن رفض أى نظرية بجدية ما لم تستخلص كل قطرة من الحقيقة فيها، وما لم تنكشف أخطاء تلك النظرية من جذورها. ولقد ولدت الماركسية ـ مثل الاشتراكيات الخيالية اليوتوبية التى سبقتها ـ فى القرن التاسع عشر وفى الإطار التاريخى «للثورة الصناعية»، وزينت أداءها التكنولوچى أساطير فاوست أو پروميثيوس، بإيمان تبشيرى بالتطور.

وهكذا أبعدت فى الظل حياة ملايين من المسحوقين فى مدن أخطبوطية تحول فيها الإنسان إلى زوائد للآلة والسوق.

ولقد أثار منظرو لاهوت التحرر هذا السؤال الكبير:

ـ إن التغيير الجذرى الذى يحتاج إليه العالم ليتخطى اختلال المساواة (والعنف الذى يولده هذا الاختلال)، لا يمكن أن يتأسس على أيديولوچية حتمية. سواء كانت الحتمية الأيديولوچية «التقدم» التى يدعو إليها الليبراليون، أو فرعها «الديالكتيكى» عند أصوليى الاشتراكية المسماة «بالعلمية». (وهى فى الحقيقة وضعية، فقد توفِّر لنا العلوم وسائل رائعة، ولكنها تعجز عن أن تحدد لنا غايات نهائية).

وكل أمل فى تغيير انحرافاتنا الجديدة، لابد أن يفترض معارضة الحتمية بالتسامى. ويعنى ذلك التسامى إمكانية الإنسان فى مقاطعة

الغايات التى يفرضها النظام، وما أجدر أن توصف تلك الغايات بأنها على الأصح «لا غايات»! إن الإيمان بالتسامى رهان، ومطلب ضرورى.

هذا الاختيار وحده هو الذى يؤدى إلى أن يصبح لحياتنا معنى، حين يجعل الحياة مسئولية للتغلب على الشطط القاتل فى عصرنا. وهذا التسامى، مطلب لكل عمل تحررى.

القراءة التقليدية للرسالة المقدسة عند السلطات «من أعلى»، بينما قراءة منظرى التحرير «من أسفل»، بدءًا من المبعدين، والمغتربين والبؤساء والمحرومين، والذين يعيشون ويموتون دون أن يعرفوا: فيم يفيد عناؤهم وعيشهم وموتهم؟

لقد وجهت القراءة الجديدة لهؤلاء، لإصلاح مجتمعهم. وهؤلاء يصبح المستقبل عندهم هو الأمل الوحيد فى البعث، أى الانتقال من الموت إلى الحياة الحقيقية: لتصبح الحياة لها معنى. بذلك فتح منظرو التحرير طريقا من الموت إلى الحياة. وهنا لا يحيا العقائدى عقيدته كأنه يمارس مهنة ليبرالية، ولكن يعيشها كشهادة مناضل من أجل رسالة يسوع الذى واجه الموت، ولا يحدث ذلك إلا بأن يصبح واحدا من هؤلاء البؤساء، يشاركهم وجودهم، ويتقاسم معهم عذاباتهم، وأمانيهم. ولا يكفيه مجرد «العطف» عليهم.

إن العثور على جوهر هذه الرسالة التى لا غنى عنها، واتباع ندائها، هو الجديد والمهم أيضا فى عقائد التحرر، إذ يرى الأب جوستافو جوتيريز فى كتابه «عقيدة التحرير» موعظة الحساب الأخير عند متىّ على أنها «خلاصة الرسالة الإنجيلية»، فلن نحاسب على حبنا للآخرين بقانون ولا بحكمة ولا حتى بعقيدة، ما لم يصبح الحب عملا يعرّفه يسوع

بقوله : « بأن تطعم الجائع ، وتستر العارى ، وترحب بالغريب» و« إن ما تفعله لأقل الناس كأنك تفعله لى» .

ويقول الأب جوتيريز : يمثل هذا البيان الإنجيلى حقا أوّليا علينا تجاه الفقراء : « تستلزم محبة الأب وشهادته علينا أن نكافح ضد كل ظلم أو سلب أو استغلال ، وأن نلتزم بإقامة مجتمع أكثر أخوة وإنسانية» . ويقول : «الذين يضعون الإنجيل فى خدمة الأقوياء هم الذين ينظرون للإنجيل نظرة سياسية منحازة وقاصرة» .

ولقد أخذ منظرو التحرير إعلان البابا مأخذ الجد ، بأن حالة الدنيا الآن هى «حالة خطيئة» . ومفتاح كل تأمل سياسى أو دينى ، وكل عمل هو تغيير «حالة الخطيئة» تلك التى تشوه الإنسان بأشكال مختلفة : الإنسان الذى خلقه الله «على صورته» . فعليك أن تكون « أنت كلك من أجل الكل» . وهذا يقتضى إنهاء الانقسام القاتل ، لأن تحرير الإنسان والتحرر من الخطيئة شىء واحد . وما التاريخ المقدس والتاريخ كله سوى التاريخ الوحيد لهذا التحرر ، دينيا ودنيويا . إن التفرقة الخاطئة بين هذين المستويين ، وما بين التاريخ والعقيدة لا يؤدى إلى شىء سوى وضع الإنجيل فى خدمة الأقوياء .

وقد انعكس هذا التناقض فى أمريكا اللاتينية بين صورتين ليسوع فى الكنائس ، بلوحاتها المصورة وتماثيلها «للمسيح المنتصر» ، وللسيدة مريم ، فى ثياب الملك والملكة ، والصورة المناقضة ليسوع وهو عار غائر العظام ومصلوب . بين صورتى مسيح المنتصرين والأغنياء والأقوياء ، ومسيح الفقراء والمقهورين والمعذبين . يقول الأب ليوناردو بوف :

« إن صورة يسوع تصل إلينا محملة بالألقاب ومثقلة بالبيانات العقائدية ، تكاد تخفى أصالته ، وتحجب وجهه الإنسانى ، وكأنها تقصيه

فى التاريخ، تفترضه كأنه نصف إله، لا علاقة له بعالمنا. وعلى الإيمان أن يحرر صورة المسيح مما يقلل من شأنه. إن القول بأنه المسيح القائد، ابن داود، ابن الله، لا يجعلنا نؤمن به لفضل تلك المسميات فقط، ولكن للحقيقة الأهم وهى ما تعنيه تلك المسميات بالنسبة لعالمنا. إن قمة الإيمان بالمسيح بالنسبة لى هو أن أواجه حياتى الشخصية والاجتماعية، والكنائسية والثقافية والعامة، بواقعية المسيح وعلى نفس النحو الذى واجهه هو».

هكذا ـ فقط ـ يتوقف الدين عن الاستمرار كأفيون ومخدر للشعوب، يبرر الظلم، والاضطهاد. وهذا يتم عندما يصبح الدين فاعلا فى المجتمع بقيم الحب والإحسان والمساواة.

إن أحد الملامح الأكثر تجديدا فى عقيدة التحرير، هو إنهاء هذا الاستعمار الدينى لتلك الثيولوچية التى تفرض نفسها على أنها نهاية التاريخ اليهودى، بأن تصبح أوروبية، من خلال الفلسفة الإغريقية، وبأن يعتمد تنظيمها على الطراز الإمبراطورى الرومانى.

ولا يمكن لبقية العالم أن يقبل رسالة يسوع، إذا ظلت الرسالة حبيسة ثقافة واحدة، أو حين تقول إنه لم يكن هناك تاريخ مقدس سوى تاريخ الشعب اليهودى، كما لم تكن هناك لغات مقدسة سوى العبرية واليونانية واللاتينية.

وكما كتب أنريكو دوسيل: الكنيسة المسيحية فى أمريكا اللاتينية (وأيضا فى إفريقيا وآسيا) كانت استكمالاً لعمل البعثات الاستعمارية

(نفس المرجع السابق، ص ٣٧)

ويضيف (ص ٣٨) :

«الأوروبيون هم الذين «اكتشفوا» المذاهب الأخرى، وسيطروا عليها بقوة السلاح، والبارود، والخيول ، والقوافل. . . وفي المستقبل القريب يصبح هذا هو «المشروع العالمي» المحدد، وهذا هو المشروع الإنساني المقبل الذي سوف ينفتح الأوروبيون عليه. . بالطفل الوليد الذي لا ينتسب إلى الهند الأمريكية، ولا إلى إسپانيا، ولا إلى أوروپا، ولا لحضارتي الإنكاس والأزتيك بالمكسيك. إنه شيء جديد: ثقافة مهجنة ومختلطة».

وهكذا ولد في أمريكا اللاتينية هذا التصور للعالم، ليكنس التصور اللعين للشعب المختار، ذلك التصور الذي كان ذريعة للاستعمار الذي يتخفى وراء التبشير. وقد توسع هذا التحرير إلى القارتين الأخريين اللتين استعمرتهما الأسلحة والتجارة، كما استعمرتهما الكنائس من الناحية الروحية.

وخلال خمسة قرون من الحكم ـ دون منازع ـ للاستعمار الديني الذي فرض المسيحية على القارات الثلاث بأشكالها الثقافية التي توشحت بها في الغرب، قدمت هذه الديانة كما لو أن الله لم يتخذ صورة «الإنسان» بل صورة «الرجل الغربي».

إن العلاقة مع الله تكون أكثر يسرا لو تخلصنا من ثقافة يهودية إغريقية ضيقة ومنحازة.

* * *

ومن الهند، أقدم الروحانيات تبزغ عقيدة من الظل. ومنذ بضع سنوات أرسى عقائديو الهند أسس عقيدة تقوم على التفكير وتجربة الإيمان في إطار خصوصية كل بلد يعملون فيه.

وفى ١٢ من مارس عام ١٩٩٢، عقدت ندوة فى هونج كونج اشترك فيها عقائديون من أنحاء مختلفة من آسيا. وانتهى هذا اللقاء بوثيقة نقدية حول هذا المحور: «مستقبل الفكر المسيحى الاجتماعى». وقَّع على الوثيقة كل المشاركين. وفيها يستنكر الجميع ذلك الطابع المنحصر فى الذات فى أوروبا للتعليم الاجتماعى للكنيسة، والذى لا يعترف بمساهمات المؤتمرات الدينية الإقليمية، ولا يعبأ كذلك بخصوصيات الكنائس المحلية.

وقد حاول قساوسة من آسيا الربط بين التعاليم الكاثوليكية والمصاعب التى تحياها آسيا بطريقة ابتكارية. ولسوء الحظ تحاول اليوم تبشيرية سلفية قادمة من روما اختراق آسيا، تحكم على الآخرين بطريقة تبسيطية تسطيحية، ومن بعيد. وتتصور ـ بطريقة خاطئة ـ أنهم لا يتكلمون إلا عن الحوار والتحرير وفقدان الثقافة، مهملين فى ذلك دعوة عيسى المسيح. وتثير هذه التبشيرية تصوراً محزنا للنمو والتطور المتوافق مع أفكار المجتمعات الأسقفية فى آسيا (FABC)».

ويقول رجل الدين الهندى فيلكس ويلفريد:

« لابد أن نأمل ألا يكون استيراد هذه التبشيرية الهَرِمة السابقة على الڤاتيكان، سوى ظاهرة عابرة، ونأمل أن يستمر اتحاد المجامع فى اتباع نفس الخط لإبراز صور جديدة ليسوع تتوافق مع عبقرية آسيا».

ولقد وضع قسيس نشيط وماهر على جدار كنيسته الرعوية إعلانا ضخما كتب عليه: « يسوع هو الحل». ثم صحا ليكتشف أن فريقا من الصبية الساخرين كتبوا تحت الإعلان:

ـ ولكن ما هو السؤال؟

وخلال قرون، حاول المسيحيون اكتشاف يسوع المسيح: الشخصية والحياة والرسالة، من خلال أسئلتهم الخاصة، التى ولدت من ثقافة العصر ومجتمعه: أيجب علينا رفض الإمكانية نفسها أمام آسيا اليوم؟ وهل نصدر إلى آسيا الإجابات دون أن نعبأ بأسئلتها؟ لنترك إذن آسيا لتكتشف وتعيد اكتشاف الصورة الأنسب ليسوع لمواجهة تحديات تلك القارة.

وهكذا تنبه الفاتيكان لتصميم عقائديى آسيا على التفكير فى مستقبل الكنيسة فى هذه القارة بطريقة تختلف عن الخطاب الرسمى الرومانى.

ولقد ولد إليوسيوس بيريس، اليسوعى، فى سرى لانكا. وهو مؤسس مركز أبحاث طولانا فى كيلانيا بالقرب من كولومبو. وهو متخصص فى الهند الكلاسيكية والفلسفة البوذية. ويقوم ببرنامج للأبحاث عن الأدب الفلسفى (البوذى) الوسيط فى بالى. وهو رئيس تحرير «ديالوج» أو حوار، المجلة الدولية للبوذيين والمسيحيين، والتى يصدرها المعهد المسكونى (الإكليروسى) فى كولومبو. وقد كتب كثيرا عن عقائد الأديان، وعقيدة التحرر الآسيوى وعلم البوذية.

وريمون بانيكار، من أب هندى وأم كاتالونية، بذل جهدا كبيرا ليثبت اقتراب ملامح الثالوث المسيحى مع حكمة الهند.

وحاول أن يفسر عقيدة الثالوث بالتأمل المعاش فى نظرية «إدفاييتا»، وقال إن الصوفية الهندية تدرّس النهاية الأخيرة لكل إنسان، بالتعرف على «الذات» أو «الأتمان»(*) الهندية، وهى متوحدة مع «البراهمان» (الكل)، أو كما تقول الأوبانيشاد «أنت ذلك». فالهندوسية تعيننا على تخطى الوهم بأن التسامى يتحقق من الخارج.

(*) Atman: فكر دينى هندوسى.

انعقد عام ١٩٧٧ فى ساحل العاج (الكوت ديفوار) تحت رئاسة مطران أبيدچان، الأسقف ياجو، مؤتمر لرجال الدين المسيحيين فى إفريقيا السوداء، تحت شعار: الحضارة الزنجية والكنيسة الكاثوليكية.

وذكّرنا الأب چان مارك إيلا، باسم العالمية المسيحية بأن «الثقافة اليهودية البحر متوسطية التى قادت المسيحية، ليست سوى ثقافة من بين ثقافات أخرى.. والكاثوليكية لاترادف الرومانية». وعبر عن تلك الإرادة فى نزع استعمارية الإيمان، واعتبار الثقافة الغربية نسبية لا مطلقة. كما صرح اليسوعى الكميرونى الأب هيجبا، فى «تحرير الكنائس من الوصاية»، بقوله: المسيحية ليست ديانة غربية، ولكنها ديانة شرقية احتكرها الغرب، وختمها بطابع فلسفته الخاصة، وبتشريعاته، وثقافته، كى تقدم نفسها على هذا النحو لبقية شعوب العالم. ولا بد لنا من أن نطبع بطابعنا الخاص نفس الديانة، وذلك بألا نرفع الفلسفة الأرسطية ـ القومية إلى مراتب الوحى الإلهى، ولا الفكر البروتستانتى الألمانى، أو الأنجلوسكسونى، أو الإسپانى أو الألمانى التى نصرتها أوروپا ثم رفعتها إلى مراتب القداسة».

يستخلص الأب أوسانا النتائج من المطران زوا، مطران ياوندى:

«إننا الورثة الشرعيون للديانات الإفريقية التقليدية التى أعدت الإنسان الإفريقى، أكثر من أى شىء آخر لقدوم المسيح. ودورها يشبه دور العهد القديم».

إن التأمل الجديد لوحدة متسامية للحكمة والأديان فى العالم، لابديل عنه لتفتيح الآفاق للثقافات وللإيمان الخاص بكل الشعوب فى مجمل الإنسانية. إن إعادة قراءة رسالة المسيح لا علاقة لها بالكهنوت. إنها

تعنى، بحث ما هو عالمى ليساعدنا مع ثقافتنا الخاصة على فهم خصوصية بشارة عيسى عليه السلام. لم يأت المسيح ـ فقط ـ لإتمام وعود كتابات قديمة. إنما أتى ليجيب عن تساؤل هائل لكل إنسان حول معنى الموت والحياة. فالإيمان أولا هو الزهد، والتسامى، وتجربة الاستغناء، والتحرر.

ويظهر دائما بوضوح فى حياة وكلمات المسيح أنه دائما يكون حيث لانتوقعه. إننا نتوقع دائما كلمة أو فعلا يستكمل غرائزنا البيولوچية، رغباتنا، ومصالحنا، لتاريخنا الخاص، ولثقافتنا أو لقوانيننا. ولكن ما يميز حياة وموت المسيح أنهما يهربان من كل الصيغ الشرطية البيولوچية والجسدية أو الاجتماعية. إنها حياة لم تكن روتينية أبدا. حيث لا يوجد فيها ما هو نتيجة للماضى، حيث كان كل شىء فيها هو نتيجة اختيار حر، ونزع الأنانية أو العادات، قرار جديد، وإبداع شعرى للإنسان.

الحياة حسب ما لا أدعوه «قانون» المسيح، وإنما ما أسميه «شاعرية» المسيح، وهو الإحساس بطبيعتى فى القدرة على تجاوز الطبيعة، الإحساس بكل فعل من أفعالى، بكل حدث أشهده، أشارك فيه: إن حياتى الشخصية، كالمجتمع أو التاريخ الذى أعيش فيه: ما هى إلا العلاقة بالغاية النهائية؛ هذا هو المعنى العميق لما أعلنه المسيح عن «المملكة».

فلم يعن ما أراد الإشارة إليه (إقامة هذه المملكة فى مكان ما فى الفضاء البعيد أو فى أى وقت فى المستقبل مثل أى يوتوبيا) وإنما يعنى الإحساس باقترابها، كما لو كان كل ما أؤمن بكونه مهما فى الحياة، مثله مثل لمساتى وحياتى، سينهار فى اللحظات التى تأتى، وكما لو كان على أن أراجع كل

أحكامى وكل تصرفاتى من خلال هذه الحقيقة الأعمق، والأكثر من المعية، وذلك لأن المملكة هى بالفعل، داخل كل منا وخارجه.

إن مملكة المسيح لا يحكمها عدل القانون وإنما مبدأ المحبة.

يظهر الإيمان عندما أكف ـ فقط ـ عن طرح سؤال «كم وكيف؟»، وعندما أتساءل «لماذا؟». عندما أستفهم عن الغايات وليس فقط الوسائل.

ـ إنها إعادة هيكلة جوهرية لأهدافى الشخصية والاجتماعية.

ـ كما أن فعل الإيمان يكسر دائرة عاداتى ومؤكداتى.

فعندما يتوقف رجل السياسة عن الاهتمام بوسائل الوصول للسلطة وحماية الكرسى، ويتساءل عن غايات المجتمع الجماعية، ويعمل على الاهتمام بها والبحث عما يحمله كل إنسان من إمكانية للمشاركة، تصبح السياسة حاملة للرسالة.

وعندما يتوقف كل فنان عن تأكيد فرديته، ويعمل على أن يصبح ضمير مجتمعه ومسئولا عنه.. وعندما لا يكون عمله تأثرا بالواقع، لكن على العكس تجربة ما يمكن أن يكون، فإن هذا الفنان يساعد بذلك مجتمعه لتحديد مشروعه، وآماله ومستقبله، وهكذا يصبح الفنان نفسه مبدعًا.

وعندما يعيش العاشق حبه، ليس عن طريق الأخذ ولكن بالجود والعطاء، وإلى أن يفضل حياة محبوبته على حياته الخاصة، فإنه حينئذ يتعلم كما يقول الشاعر روزبهان الشيرازى: «أن الحب الإنسانى يكشف لغة الحب الإلهى»[٢٠]، والمحب يصبح صوفيًا.

ولكن هذه القطيعة، وذلك التسامى، ليس هو كل الإيمان بعد.

الإيمان هو الارتقاء بالنفس بالتخلص من الذات. إنه تجربة الخلاء و«الليل الدامس» للقديس چان دى لاكروا.

أن أسكت الشهوات التى تقوى فى داخلى، وأن أنزع نفسى من محيطى الاجتماعى، وأن أمحو كل الصور التى تشغلنى دون أن تضيئنى، وأن أنفصل عن الكلمات المفاهيم التى صنعت للتلاعب بالأشياء.

إن هذه الحياة الجديدة هى أولا الضمير، بألاّ أكتفى بذاتى، لأننى لا أوجد إلا بعلاقتى مع الآخر. وكل آخر. وكما قالت الصيغة التى تشبه الومض الوضاءللصوفي البيزنطى كاليست فى القرن الرابع عشر:

- أنا أحب إذن أنا موجود.

إننا هنا بعيدون عن التهافت الديكارتى حين يقول: «أنا أفكر إذن أنا موجود».

ولقد اكتشف الصوفى المسلم، الشيخ أبو سعيد - من القرن الثالث عشر - ما سماه سر الشيطان، بأن الشيطان يوسوس للإنسان قائلا له: «حين تقول «أنا» تصبح شبيهًا لى».

والإيمان هو فعل استقبال تلك الحياة الجديرة به، وهو فيض هذه القوة، وفيض تلك الغبطة وذلك الفرح.

الإيمان هو اختبار للمنابع.

والإيمان ليس اختبارا لحدودى، وإنما اختبار للمقدرة التى لا يمكن توقعها، لتجاوز حدودى.

والإيمان ليس تجربة فقدان. إنه الزيادة. وكما قال بونهوفر:

- « ليس الإيمان هو الأطراف، بل هو القلب».

الفصل الثامن

ما هو الحل؟

إن الحل، يبدأ من الحساب الختامى للثقافة الغربية التى تنتهى إلى الإفلاس، وعلينا الآن إبراز الأخطار قبل وقوع الكارثة: كيف نخرج من تناقضات وأنفاق نظام لا يقود إلا نحو الهلاك؟

علينا التغيير أو الفناء.

فما هى الإستراتيچية التى يمكنها أن تسمح لنا فى القرن الواحد والعشرين ببناء عالم بوجه إنسانى؟

فيما يخص آفاق فلسفة «الفعل»، علينا أن نتحرر من قيود غذتها فلسفات «الوجود» التى أسسها الغرب منذ خمسة وعشرين قرنا. وللخروج من هذه الإشكالية المزيفة، يتوجب علينا أولا تغيير الفرد لتغيير العالم، أو تغيير القواعد، بحيث يظهر إنسان جديد يكون قادراً على تغيير ما حوله.

فالأخلاقيون، وبخاصة أتباع مسيحية بولس، راهنوا منذ بداية الطريق على تحرير الإنسان، ولكنهم لم يفلحوا، برغم مواعظ قساوستهم فى تحرير البشر من السيطرة والتهميش وكان ذلك منذ ألفى عام. كما اعتبر

آخرون أنفسهم أكثر واقعية، وراهنوا على طريق آخر، للفكرة ذاتها «المسيح المنقذ». وظلوا طوال ثلثى قرن فى الاتحاد السوفيتى يحملون وهما موازيا ـ تماما ـ للوهم الأول لتحرير الإنسان، ولكن هذه المرة بإنقاذه عبر «وضع نهاية للملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتمليكها للدولة»، أى باختلاف جذرى فى البنية الاقتصادية التحتية، وأعلنوا «ولادة إنسان جديد».

ومع ذلك، لم «يولد» فى الحقيقة هذا الإنسان. ولكن إعادة الرأسمالية هناك ـ فقط ـ سمحت «بولادة» «مافيا» تتضاعف ثروتها وحجمها بطريقة عشوائية و«مرضية»، تماما مثل نبات الفطر البرى، وذلك بتوسعها فى استغلال البؤس وانتشار الفساد، وامتهان الدعارة، وتجارة المخدرات. وظهرت هناك فى موسكو كل المظاهر المميزة للانحطاط «الليبرالى». وكانت تلك هى الولادة الوحيدة التى حدثت فى تلك البقعة من العالم.

«الإيمان» و«الفعل» ليسا سوى باطن وظاهر الإنسان بصفة عامة. والإيمان المفصول عن الفعل ينفصل بالإنسان عن الواقع، والفعل المفصول عن الإيمان يقود الإنسان إلى حيوانيته الأولى.

إن الروحانية تنصهر فى النضال للتغيير دون أن تفقد أى صفة من أبعادها الداخلية. ولا بد لنا من العودة للتأمل فى الغايات النهائية لأفعالنا، ولوحدتنا «الروحية» أو الصوفية مع «الكل». كما يجب ألا تنحصر أفعالنا فى البحث عن الوسائل، والإنتاجية والفاعلية، ولكن على أن نعى أن الطبيعة كلها تكمن داخلنا، وبأن كل الثقافات الإنسانية فى مجمل تاريخنا تسكن روحنا. فلا مكان «لأنا» منعزلة، عن إيماننا.

وأسمى ثقافة هى تلك التى تجمع بين كل الثقافات، وتلك التى تلتقى بتجارب ثقافات أخرى .

إن هذه التركيبة كثيرا ما تشوهت وأفسدها لوكيير الذى لخص تلك الرؤية المحدودة للإنسان، فقال :

« نحن نفعل، وإننا فاعلون ما نفعل، ولا نكون أى شىء آخر سوى ما نفعله» .

إن غلو تلك العبارة يكمن فى حرمان «الفعل» من أبعاده الخصوصية وفاعليته الإنسانية .

إن المعركة إذن هى لبناء عالم آخر مختلف، وليس عالما جديداً من النشوة واليوتوبيا . وتطور هذا العالم يكمن فى ثلاثة مستويات محددة : النهضة بالتعليم وإعادة صياغته، وإعادة تقييم الفنون الإنسانية ووضعها فى الإطار الذى تستحقه، ومراجعة الرؤية السياسية بطريقة تجعل فعل «الإيمان» و«الإبداع» و«السياسة» فعلا واحدا .

* * *

(أ) إعادة صياغة التعليم :

هذا لا يعنى اقتراح إصلاحات فى النظام التعليمى ـ لكون المحتويات مثلها مثل المؤسسات التعليمية الحالية ليست فاعلة ـ ولكن ما نحن بصدده هو إعادة القيم الإنسانية إلى مكانتها . ذلك لأنه، وبدون الدخول فى تفاصيل نقدية للنظام التعليمى، يمكن أن نلاحظ بسهولة أن هذا النظام التعليمى القائم يحمل داخله هدفا وحيدا، هو تكريس الوضع القائم

والمقرر على كل التلاميذ والطلاب جيلا بعد جيل . وهذا مما يؤدى ـ دون شك ـ إلى تحجيم ، بل فى بعض الأحيان إلى قتل ، القدرة الإبداعية للتلاميذ والطلاب وفرض مسلمات تؤدى إلى أحادية الفكر .

إن نظامنا الحالى يرجع محتواه إلى المبادئ الأولى التى وُضعت عبر رؤية شاملة لخدمة مجموعة من الأهداف عقب الثورة الفرنسية من قبل نابليون ، الذى كان همه الأول من تأسيس الليسيه (*) تكوين «كوادر مؤهلة لجيوشه» ، وإدارته ، وإعادة تكرار هذا الإفراز عاما بعد عام .

ومنذ ذلك الوقت ، تم فى عهد دى فاتيمسنيل ، إبان عودة الملكية ، وحتى فى عهد وزراء التعليم الحاليين ، إجراء العديد من الإصلاحات من أجل الإجابة بفاعلية عن احتياجات جديدة . فعلى سبيل المثال ، عند تطور الصناعة وظهور الاحتياج إلى مهندسين فى كل المجالات ، تم تطويع النظام التعليمى لذلك ، بدءاً من المدارس الابتدائية ، وحتى المدارس الفنية ، ولإعداد العمال الذين لم يعد بإمكانهم البقاء دون تعلم نظرا للتعقيد المتزايد لتكنولوچيا العمل ، مروراً بتعليم المهندسين والكوادر ، الأمر الذى قاد إلى إصلاح المحتوى إصلاحا كيفيا ، وذلك بإسقاط اللغة اللاتينية من على عرش العلم ووضع تاج العلم على رأس الثقافة ، واعتمدت «علامة» الرجل المثقف ، كشعار للمرحلة ، مثقف فى الرياضيات والعلوم الأساسية لكل التقنيات الحديثة .

ولكن ما تلا ذلك من استخدامات للحاجات الجديدة «للنظام» الاجتماعى ، لم توضح ما هو أهم ، أى ما بعد استمرارية النظام فى

(*) المدارس غير الدينية الفرنسية .

تكوين وتعليم «صفوة» من «الخاصة» يتخصصون أكثر فأكثر فى الفيزياء النووية والعلوم الوراثية والاقتصاد السياسى وعلوم الحاسوب والمعلوماتية. فأفرز النظام متخصصين يتمتعون بثقافة ليست «عامة»، إنما «محددة». وبذلك لم يطرح التعليم قضية «الغايات» النهائية لأبحاث هؤلاء وتدقيقاتهم الشخصية، واهتم بالوسيلة وأهمل الغاية.

إن ما نطرحه لا يعنى إذن إصلاح النظام، وإنما قلبه جذريا. هذا لن يتحقق عن طريق «الإصلاح» ولو للمرة المائة؛ من نوعية ذلك الإصلاح الذى يتم فرضه أو حتى التصويت عليه، لكن عن طريق تغيير العقليات التى يغذيها باستمرار نظام هدفه الوحيد رفع «صافى الناتج القومى»، والاستهلاك والقدرة، وغزو الأسواق والمنافسة.

هل نحن بصدد «غاية» أن نكوِّن فى مدارسنا أطباء أسنان أو عسكريين، أم أن الهدف هو إعدادهم لكى يصبحوا رجالا «مبدعين»؟ إن ذلك يستدعى - بلا تجزئة - تحولات جذرية فى مضمون وهيكل التعليم.

فى البداية، علينا مراجعة ثقافتنا الغربية. فالتعليم ليس فقط «الكوليج دى فرانس»، و«الدراسات العليا» أو «اللغات الشرقية»، لكنه الأساس بالنسبة إلى الجموع البشرية وثقافة الآخرين، فتعليم الجماهير هو الأهم. والتغيير لا يتم فقط فى المدرسة بإضافات للمنهج، إنما المشكلة هى أننا لا نملك فى الأصل المربين القادرين على بدء هذا التحول وزراعة قيم الإنسانية، لأننا فى المدرسة الأوروبية نكوِّنهم متمركزين حول ذاتهم. فإذا لم نأخذ سوى مثال واحد هو الأكثر وضوحا: مثال الفلسفة. فعندما نضع برنامج ومنهج شهادة الأستاذية (أعلى شهادة فرنسية). هل ننظر

إلى ما هو أبعد من الفكر المحدود من أفلاطون إلى هيديجر، بإضافة فلسفة تشو وانج تسو وأنكارا والغزالى؟

على الرغم من أن ذلك خارج المدرسة، فإننا لا نعدم فرصة لمقابلة هؤلاء الذين يحملون ذلك الفكر معهم وداخلهم: فى أوروبا كما فى الولايات المتحدة، فلا يغيب الصينيون أو الهنود فى إنجلترا، ولا العرب فى فرنسا، ولا الأتراك فى ألمانيا.

ربما من هذا المنظور، يجب أن تبدأ الأمور: فى نظرة ومعاملة مختلفة فيما يخص المهاجرين الذين يحملون داخلهم، ربما فى بعض الأحيان عبر اللاوعى، قيم مجتمعات كاملة بإيمانها وثقافتها. هكذا يمكن البدء فيما يخص تنوع البشرية، هذا الإحساس بالآخر وتقبله وتقبل الثراء الإنسانى الذى يحمله داخله، والاقتناع بأن هناك شيئا يمكننا أن نتعلمه منه، وليس البحث بنظرة تعال نابعة من تقوقعنا داخل أوروبيتنا وحول ذاتنا عن نقاط التشابه والتماثل التى تظل علامة على اضمحلالنا.

* حيث تحول العلم إلى «علومية».

* الفنية (التقنية) إلى «تكنوقراطية».

* السياسة إلى «ميكيافيلية».

«العلومية» هى شكل من الخرافة، أو على الأقرب أصولية شمولية، مؤسسة على هذا الافتراض السائد: «العلم» يمكن أن يحل المشكلات كافة. إن ما لا يمكن قياسه وتجربته والتنبؤ به لا وجود له أصلا. لأن تلك «الوضعية» المحجّمة تستبعد الأبعاد والمعانى العليا والأسمى للحياة: الحب والإبداع الفنى والإيمان.

«التكنوقراطية» هى تلك الطريقة فى السير نيامًا من تكنيك لأجل التكنيك، دون أن يُطرح أبدا سؤال عن الغاية. إنها قائمة على هذا الافتراض: كل ما هو جائز تقنيًا مرغوب فيه وضرورى، بما يشمل ذلك من صناعة الأسلحة النووية و«حرب النجوم». إن التكنوقراطية هى ديانة الوسائل.

أما «الميكيافيلية»، فهى حيوانية سياسية معنيّة بتقنية الحصول على القوة والسلطة. **والسياسة فى الأصل هى لمصالح المجتمع الإنسانى، ثم تأتى الوسائل لتحقيق هذه الأهداف الإنسانية. وما يحدث هو عكس ذلك!** فالأصل اليوم مقياس القوة الذى يحدد مصير الإنسانية. وليست الإنسانية هى التى تحدد اتجاه القوة. ألهذا السبب نحن نفخر اليوم بالضم والدمج لأى شىء بغض النظر عما يحتويه أو ما تستخلصه الإنسانية من ذلك؟ أم أننا نسعى إلى إضافة «إنسانية» حقيقية؟ فالوعى الذى أثرى الثقافة الفرنسية منذ قرون، كان عبر «تمازج العشرين عرقا على مر القرون»، كما قال ميشيليه أو رينان.

فرنسا ليست كيانا سابقا على الفرنسيين «أجدادنا الغاليين»، وكأننا لا نحمل فى عروقنا سوى ڤرسنجيتوركس، أو فى ثقافتنا انقلاب كلوفيس، والأساطير المستخدمة إلى الآن عبر القوميين الأكثر تطرفا. وكأننا لم نكن رومانيين عبر احتلالهم للغال، أو ألمانا عبر قبائل الفرنج، أوسلتيين مع وجود البريتون والغزوات النورمندية، أو عربًا عبر شعراء الأندلس الذين حملوا تراثهم إلى التروبادور فى أوكيتانيا. **ولكننا كنا كل ذلك، وكان هؤلاء جميعًا أجدادنا.**

ربما من أجل انتقال هذا الجزء من المفهوم الاستعمارى لمفهوم

سيمفونى للعلاقة بين الحضارات البشرية ، علينا أن نغير نظام التصدير الثقافى الذى نتبعه عبر نظام المعاونين(*).

وطالما حلمت هذا الحلم المستقبلى : أن نرسل «معاونين» من أصول آسيوية ، فى الألفية الثالثة ، لعمل دراسة عن الأصول العرقية للقبائل التى تعيش على شبه الجزيرة هذه القائمة « فى أطراف آسيا» والمسماة بأوروپا .

وهذا الباحث فى علم الأعراق الذى سيقوم بالبحث، يكون متعلما ومتمرسا حسب مبادئ بوذا، القائمة على التحكم والسيطرة على الشهوات، بل التمكن من إطفائها : سيوجه هذا الباحث أبحاثه للتقرير عن تطوير تقنيات الطمع فى عالم ما قبل التاريخ (لهذه القبائل البدائية). من «الإعلان» إلى «التسويق» حتى نهاية الألفية الثانية . وسيذكر بذلك الاهتمام البحثى مصادره من سوفسطائيى أثينا، إلى أقوال أفلاطون، والتى تعتبر أن أمثل الأوضاع هو امتلاك الرغبات الأكثر قوة والبحث عن إمكانات تحقيقها. كما سيتمكن هذا الباحث من رصد نظام مهيمن للتنمية فى العصر الأركيولوچى فى النصف الثانى من القرن العشرين. نظام «للتنمية» يستند على مفاهيم السوفسطائية اليونانية وتقنيات الجشع والنهم (من الدعاية وحتى التسويق ، إلخ)، تلك القيم التى خلقت الحاجة إلى الاستهلاك، لتعطى الفرصة كاملة لحركة الشركات المتعددة الجنسيات على ظهر الكوكب بأكمله.

(*) معلمون شبان فرنسيون ، يعملون على سبيل المثال فى المراكز الثقافية الفرنسية ، والجامعات والمدارس ، وهو نظام متبع لنشر الثقافة الفرنسية .

وإذا تطرقنا إلى الجانب الدينى من هذه الوحدانية للسوق وديانة «التنمية» فى العشيرة السابقة للتاريخ، ستدرس طرق تعليم طبقة رجال الدين للتكنوقراط وطلبة المدارس الإكليريكية المتلهفين على التليفزيون ووسائل «الإعلام الأخرى». وبدءا من هذه العقيدة الأساسية: يتم استبعاد كل الأسئلة التى تطرح «لماذا؟» و«ما الهدف من ذلك؟».

إذا دقق الباحث فى بيولوجية زماننا، سيصل إلى هذه الخلاصة المستوحاة من شرح لابوريت، بأن الحيوان القريب من الإنسان، والذى يسكن شبه الجزيرة [أوروبا] لم يستخدم أبدا «عقل الزواحف» الذى يمتلكه!

إذا تطرق هذا الباحث فى الأعراق «المستغرب» إلى بحث «الاستشراق» فى تلك المرحلة، أى منذ ما قبل التاريخ البشرى الذى ظل متقوقعا حول العرق ـــ أى أيامنا هذه ـــ فإن قرار الاتهام سيكون شديدا، ربما يكون عاما، لكنه مستقى من بعض الأمثلة المصورة، التى لا يمكن للأسف إنكارها. فعلى سبيل المثال، سيلفستر دى ساسى، الرائد، والمستشرق، وأستاذ الجميع، الذى لفت نظر جوته للحضارات الشرقية، كان هو نفسه الذى حرر إعلان بونابرت الذى ألقاه وقت غزو مصر، وبيانات الجيش الفرنسى عند غزو الجزائر. وماكس مولر، أحد أهم رجالات الاستشراق التقليدى، كان يحاضر فى كامبريدج لإعداد حكام الهند من الإنجليز المستعمرين. ومدام روس بينيديكت التى كتبت هذا الكتاب الجميل «السيف والأقحوان» حول اليابان، كانت قد كتبت هذا الكتاب طبقا لأوامر «وزارة الحربية» للچنرال ماك آرثر، وذلك لإدخال نظام السياسة الأمريكية إلى اليابان.

***

لقد أدت تلك الحقيقة المفجعة للاستشراق إلى اقتراحى بأن نصبح «مستغربين»، بمعنى أن نضع الغرب تحت الميكروسكوب، مثلما يراقب عالم الحشرات الحشرات. وكما يرى الغربيون ويراقبون الدول غير الغربية!

ولن تتغير هذه النظرة الغربية لباقى الحضارات عن طريق المدارس أو الجامعات، وإنما من خلال تغيير نظرة الجماهير والعامة. والتغيير يجب أن يتم « من تحت» لأنه لا حكومات اليمين أو اليسار ولا الأحزاب والسلطة الدينية بتسلسلها، تتجه فى هذا الاتجاه.

الشيء نفسه فى التاريخ، كما قال پول ڤاليرى فى كتابه «نظرات إلى عالم اليوم»: **«التاريخ هو أخطر كيمياء يفرزه الفكر. فالتاريخ يصوغ الأحلام، ويسكر الشعوب، ويغذيها بذكريات مزيفة، ويبالغ فى أهميتها، ويقض مضاجعها، ويقودها إلى هوس العظمة، أو جنون الاضطهاد، ويحيل الأمم إلى المرارة والعجرفة والغطرسة التى لاتطاق. فالتاريخ يبرر ما نريد. إنه يحتوى على كل شيء ويعطى المثل لكل شيء».**

إننا نرى المثل لدور التاريخ فى التاريخ الرسمى للأيديولوچيات القومية.

ونرى الشيء نفسه فى تبرير الاستثنائية الغربية بتقديم معركة ماراتون أيام الإغريق والفرس، ومعركة پواتييه أيام العرب وأوروپا، بطريقة مشوهة وسخيفة على أنها انتصارات حاسمة للغرب على الشرق. بينما وبعد قرن من معركة ماراتون التى بالغ هيرودوت فى أهميتها (حين أفرط فى مديح الأثينيين لما يملكونه من المال كما كشف بلوتارك)، استطاع

«تيريباز» باسم ملك الفرس إملاء شروطه على المدن الإغريقية بصلف واستعلاء أثارا سخط إيسوقريطس، حتى قال: «إنه ينظم شئون الإغريق، ويأمر بما يفعله كل إنسان، ويمنع إقامة حكومات فى المدن. . فهل نسميه الملك الأعظم كما لو كنا أسرى بين يديه؟» (بانيجرك، ص ١٢٠ـ١٢١).

والشيء نفسه، وبعد قرون عدة من معركة پواتييه، صعد العرب إلى مدينة ناربون، ووادى الرون، كما تشهد بذلك النقوش ذات الطابع الصوفى على كاتدرائية پوى. وتبقى قرطبة خلال ستة قرون مركز إشعاع الثقافة والعلوم فى أوروپا، كما يشهد بذلك «روچر بيكون»، وتشهد أشعار أوكستانيا اللاتينية الوسيطة وأشعار التروبادور الجوالين، وأشعار دانتى.

إن استخدام التاريخ لأهداف سياسية يتضخم فى الفترة المعاصرة. ويكفى مثال واحد: لتبرير سباق التسلح أو السيطرة الاقتصادية، يصطنع تاريخ الخصم على أنه شيطان. فقد كان الاتحاد السوڤيتى هو «إمبراطورية الشر»، وبعد انهياره، وجد چورچ بوش فى الإسلام بديلاً ليبرر السياسة نفسها. وعلى النقيض من ذلك، ظهر «تاريخ مقدس»، كان فى البداية تاريخ العبرانيين، ثم استولى عليه المسيحيون الذين ادعوا وراثتهم ليبرروا حملاتهم الصليبية، ثم استعمارهم.

ولا يمكن إعادة كتابة التاريخ بدءاً من هؤلاء المؤرخين الذين تكونوا فى هذه المدرسة، بل بالتغيير الحقيقى فى العلاقات بين الشعوب، وخاصة مع الشعوب غير الغربية.

إن هذا الابتعاد عن المركزية العنصرية الغربية ضرورى فى التعليم (وسنرى فيما بعد أنه لا يقتصر على المدرسة وحدها)، للتعرف على مساهمة كل شعب فى أنسنة الإنسان.

ويلعب التاريخ الرسمى دورا قاتلا. ويشهد على ذلك أن كل الاختراعات الصينية والهندية والإسلامية، والتى سبقت سيطرة الغرب على العالم، قد وضعت فى خدمة الغرب وبطشه وثرائه. والتاريخ الرسمى الذى نتعلمه فى المدرسة أو فى الموسوعات، لم يكتبه سوى المنتصرين. وقد شاءوا أن يبينوا أن سيطرتهم كانت نتيجة تميز ثقافتهم، ولم تكن بفضل أسلحتهم فقط، فلم نسمع من إمكانات البشر سوى إنجاز المنتصرين، والتاريخ هو تاريخ المسيطرين.

وهكذا تحددت معالم التاريخ من منظور أوروبى بالاكتشافات التقنية. وحتى ما قبل التاريخ، هناك العصر الحجرى، والعصر الحجرى المصقول، والبرونزى، وعصر النار، كما بدأت معالم التاريخ «الحديث» من عام ١٤٩٢ مع بدايات الاستعمار بعصر الآلة البخارية، والكهرباء، والطاقة النووية.

هذا هو المقياس الوحيد «للتقدم»، والسيطرة، لأن تقسيم المراحل التاريخية يبدأ بالإمبراطوريات سواء فى مصر الفرعونية، أو الإمبراطورية الرومانية المنغلقة فى حدود قلاعها وجيوشها، وما عداها لم يكن سوى «البربرية».

ولكن ماذا لو اخترنا معياراً آخر؟ مثلا، الفن. وقد ترك آثاره. حينئذ يصبح التاريخ شيئا آخر. ويصبح رسم الثور للفنان لاسكو معاصراً لمنحنيات ماتيس. فهل تصبح اللفافة الصينية المرسومة من عهد سونج فى

القرن الثالث عشر أقدم من روزنبرج أو طبعات أندى وارهول الخشبية؟ أليست كاتدرائية شارتر من الناحية الإنسانية أسمى من أعمدة بورين فى القصر الملكى؟

وهل يستحق معماريو تاج محل تحامل كريستو؟ أين نضع ملحمة الرامايانا الهندية لو قورنت بملاحم «طرزان» و«المدمر»، أو «بروميثيوس المكبل بالأغلال» لأشيل لو قورنت بـ «سوف أبصق على قبوركم» لبوريس ڤيان؟

ولسوف تتغير معايير التقدم إذا قارناها بالأخلاقيات والأديان. ولدينا علامات من الكتب المقدسة.

وهنا أيضا إحدى النقائص الكبرى فى تعليمنا.

وهناك مفهوم خاطئ للعلمانية يخلط فى العلاقات بين مؤسستين: الكنيسة والدولة، حيث كان الفصل بينهما فى فرنسا فتحا عظيما فى بداية القرن(*)، وبين العلاقات بين بعدين من أبعاد الإنسان: الإيمان الذى يبحث عن «الغايات» النهائية للحياة، وبين السياسة التى تستخدم الوسائل لتحقيق غايات أخرى.

هذا المفهوم الثانى قد حرم المدرسة من التفكير فى الغايات، باستبعاد التعليم الدينى أحادى النظرة، (وكان ذلك من أجل مكافحة عقائدية تسلطية)، ولكنه بضربة واحدة أبعد أيضا دراسة البهجاڤاد جيتا، وأنبياء بنى إسرائيل، والقرآن والإنجيل. وليس المطلوب أن نضعها جميعا فى برنامج تعليمى (إذ يصعب توافر المعلمين القادرين على الابتعاد عن دينهم

(*) عنى فصل الدين عن الدولة فى أوروبا، وإنهاء سيطرة الكنيسة والبابا على الأمور الدنيوية.

أو إلحادهم ليساعدوا على التأمل فى الغايات فى هذه الثقافات جميعا)، ولكن المطلوب أن نوفر هذه النصوص فى قاعات خاصة لاستخدام الراشدين من كل مستويات الثقافة. وهنا قد تتأهل طلائع التأمل فى الغايات، أو يظهر جيل من المواطنين الذين يؤمنون بقضية «معنى الحياة».

(ب) الفنون، «التاريخ المقدس» للإنسانية:

إن المبادرة بسؤال ماذا يجعل الإنسان إنسانا، يمكن أن تأتى عبر الأعمال الفنية. ففى كل لحظات التاريخ الفاصلة، تظهر موجة من الإمكانات التى تتفتح أمام الإنسان. والموجة التى انتصرت هى التى سجلها التاريخ. ولا توجد شواهد أخرى على بقية الإمكانات سوى الأعمال الفنية التى تبشر بالمستقبل. ليست فقط تلك الأعمال فى البلاد المستعمَرة، والتى لم يكن لها حتى وقت قريب مكان سوى فى متاحف علوم الإنسان، باعتبارها «بدائية» تتجلى فى الأقنعة الإفريقية أو البلونيزية. حتى فترة التكعيبية التى استلهمتها، أو تلك الفنون الهندو أمريكية التى أذهلت «دوهرر»، والتى أمر المطران دييجو دى لاندا بإحراقها، باعتبارها لونا من الفسق وكتب قصائد مقدسة مثل قصيدة بوبل ڤُه يدعو لتحطيمها إذا كانت على شكل أصنام، أو اكتفى الجنود المرتزقة بتحويل سبائكها الذهبية إلى قلائد.

وحتى فى داخل أوروبا، كان انحسارها داخل أسوار الأمم، يتكرر فى المدرسة. فلم تسمح ببعث تلك الأعمال الفنية التى تطرح مشكلة «معنى الحياة». وكان لابد لاختيار النموذج الروسى لبعث دراما ديستويفسكى فى روايته «الممسوسون» و«الإخوة كرامازوف»، أو نموذج يسوع الفارس فى عالم مستحيل، كما فى دون كيشوت لثر فانتس وهو فارس نبى يعتقد أن المثالى أكثر حقيقة من الواقع. وكان علينا أن نختار النموذج الإنجليزى

لنعيد عصر النهضة فى روائع شكسپير، أو النموذج الألمانى لنعيد مسرحية خوذة المعلم لجوته، أو أشعار هولدرن.

وحتى فى الأدب الفرنسى، نجد كتبا كثيرة تفسح المجال لچان چينيه أكثر من رومان رولان وچورچ برنانوس وفرانسوا مورياك، ونادرا ما يجرؤ أحد على الصراخ أمام عبثية مركز بوبورج (بومبيدو) الأكثر حظا فى وسائل الإعلام، والأكثر نصيبا من الزائرين ـ نادراً ما يجرؤ على أن يقول: إن الملك عار! من أمثال الرسامين ماثيو والپروفيسور فومارولى اللذين ينددان بالأسواق التجارية فى الفنون.

كم من الناس يجرءون على أن يقولوا، لكىَ لا يهمشوا: إن الموسيقى عند مقدار ١٢٠ ديسيبل يجب أن تدخل عالم الضوضاء، لا عالم الفن؟ وهل سيستمر القرن الواحد والعشرون زمنا يكفى ليصدر مؤرخ حكمه على الثلث الأخير من القرن العشرين، ويستطيع، بعيدا عن الموضة، والآراء الأحادية، والإرهاب الفكرى، أن يصدر حكمه على الثقافة التى استطاع الإعلام ـ التليفزيون والدعاية وقاعات العرض ـ أن يوهمنا بأن نيكى دى سان فال كان نحاتا، وأن برنارد ـ هنرى ليفى كان فيلسوفا، وكونينج كان رساما؟

إنها حقا جريمة ترتكب فى پاريس باسم «الحداثة» حين يقوم صغار تبدو عليهم الشيخوخة، بتشويه بهو متحف اللوڤر والبتى باليه وبون نيف، بمساندة وزارات اللاثقافة.

إن التكوين الجمالى الحقيقى لابد أن يبدأ فى المدرسة ومنذ الطفولة. ولابد أن يفسح المجال لتعليم الرسم والرقص، فى السنوات الأولى، كما يحظى تدريس القراءة والكتابة والحساب واستخدام الحاسوب، لتهيئة الذاكرة وحتى لا نتخمها، وحتى نفسح المجال اللائق للروح الإبداعية

بعيدا عن الآلة. وكل ذلك التكوين الجمالى يمكن أن نمارسه ـ أفضل مما يحدث الآن ـ بالذاكرة والترابط، وحين يعمد العمل الإبداعى لكل عمل من أعمالنا بغايات عالمية.

ولكن التعليم فى هيكله الخاص لا يمكن أن يتحقق فى المدرسة وحدها ولا يبدأ فقط فى بداية الحياة. إن تطورات العلوم والتقنيات، والعلاقات بين الأفراد والشعوب على مستوى العالم تتلاحق بسرعة شديدة. وكأن الإنسان الذى بلغ اليوم الثمانين عاما يولد وسط التاريخ الإنسانى. فلقد حدث فى هذا القرن أكثر مما حدث خلال ستة آلاف عام من التاريخ المدون. ويكفى مثال واحد. إذ يستطيع أستاذ كبير فى الطب بلغ هذه السن، أن يقول: «إننى لم أتعلم وأنا طالب سوى ٣٪ مما أستخدمه اليوم».

وإذا أصبح عالم الطبيعة النووية فى الثمانين معاصراً لعلمه، فإن أى متخصص فى المعلوماتية فى الخمسين يصبح معاصرا لعلمه. وناهيك عما كان طلاب عام ١٩٦٨ يقولونه عن حق، ويسجلونه فى لافتة يرفعونها أمام مدخل جامعة السوربون وعليها هذه العبارة: «كلية الآداب والعلوم اللاإنسانية».

فالمدرسة فى مقتبل العمر لا يمكن إذن أن تكون «منحصرة»، مثل الكانتونات، ولابد أن تتواءم المدرسة مع الحياة كلها، لتنجب لنا شعراء فى الفنون كافة، يلبون أسمى حاجيات الإبداع.

ولابد أن يتم التدريب، بدءاً من المهام الحرفية للصناعة إلى إعداد كوادر الباحثين فى الأماكن التى تشهد تغيرات مستمرة لا تتوقف: فى المصنع، ومراكز الإدارة، والبحث، وفى مجالات الإبداع والتجديد دون توقف للعمل الإنسانى.

إن المدرسة كما هى الآن أصبحت مؤسسة عفا عليها الزمان: لأنها استجابت لاحتياجات فترة من التاريخ، ولم تعد تستجيب للضرورات الراهنة. ويعود غضب التلاميذ والطلاب، ويأس المعلمين إلى هذا السبب الأولى. وقد فشل كل «إصلاح» فى النظام التعليمى لا يفسح المجال ليصبح التعليم وسيلة صياغة المستقبل. وأفضل مواقع التأهيل للعمل الإبداعى هو الفنون. حين لا تصبح الفنون أثناء الانحطاط انعكاسا للانحطاط المحيط، أو مجرد تمرد ونكران سلبى.

ولابد أن نتذكر أن الفن له رسالة أولى، وهى خلق إمكانات جديدة لتقدم وحدة الإنسان. وينتفى الفن إذا فقد وعيه بهذه الرسالة، وتخلى عن النداء بتعالى الإنسان، وتنازل عن تلك الجوانيه الإبداعية والتضامنية التى نشهدها عند شعراء المهابهاراتا الهندية، ورسامى التاوية الصينيين، وعند الرهبان الذين ترجموا صوفيتهم بالرسوم والألوان، ومثل معماريى معبد بوروبودور فى إندونيسيا، ومثل مسجد قرطبة، أو كاتدرائية شارتر، ومثل ڤان جوخ، ومثل أساتذة التجريد المفعم بالغنائية: ما نيسييه وما تيو.

فمن الذى يستطيع أن يعطينا من جديد تلك الوثبة الروحية لبروميثيوس كما صورها مايكل أنجلو فى لوحته «عبيد فى الأغلال»؟ ومن ذا الذى يعيد «التركز على الذات» بالصورة التى صورها ماتورا لبوذا «المتيقظ العظيم»؟

هنا أيضا، وخارج المدرسة، نستطيع باستخدام فنون نسخ روائع الرسم من كل أنحاء العالم أن نوفر للجميع تلك الروائع دون تشويه الألوان، ونستطيع أن نوفر نسخا من تماثيل الفنون العالمية، بفضل التقدم

التكنيكى الذى يحافظ على الأصل بدقة شديدة، وبهذا تصفو الأذهان من اللامعنى والعدم.

إن مثل هذه النسخ لا يكلف ثمن وجبة. ولكنها تسمح لنا، لو توافرت كل يوم ولكل عين، أن نتخلص من تدافع الرعب والعنف و«المؤثرات الخاصة» الذى تصبه هوليوود على شاشاتنا الصغيرة. لأن هذا النوع من البرامج يدمر روح النقد. «فالحلم» الأمريكى ليس حلما، ولكنه كابوس أمريكى. بأوهام مسلسلات «دالاس» المتخمة بالجشع، ورعب الديناصورات، و«الإفيهات» الطريفة الخاصة فى «يوم الاستقلال»، وكلها فارغة من أى مضمون إنسانى.

(جـ) سياسة وغايات إنسانية:

لا يظهر هذا الكابوس على شاشاتنا فقط، ولكن فى قلب حياتنا أيضا، وعلى هذا الصعيد يجب مواجهته. فالسياسة ليست سوى خارجيات وداخليات الفنون والإيمان. إن توجهات الهيمنة الأمريكية أصبحت بالغة الوضوح (بأطلال الحياة التى تسعى لتصديرها وفرضها على العالم بأسره)، وتثير غضبا واستياءً على الصعيد العالمى. وحتى أوروبا التى تشترك فى التمتع بميزات الغرب، بدأت فى الإفاقة من الغيبوبة الطويلة التى أعاقت إدراكها بأنها فى الطريق للتحول ليس لأن تصير تابعة بل إلى أن تكون مستعمَرة.

ففى قلب بلدان شركاء الولايات المتحدة، يتحكم القادة الصهاينة الذين هم فى الوقت ذاته محركو القرار الأمريكى وسادته، بشأن إدارة الرأى العام. فلهم القدرة على الإيقاع به وتضليله، بفضل قبضتهم

المحكمة على الإعلام، بوسائله المختلفة من السينما إلى النشر، ومن الراديو والتليفزيون إلى الصحافة المكتوبة.

إنهم يتمكنون - ولو إلى حين - من إخفاء الوجه القاتل لمعطيات سياسة الهيمنة الأمريكية التى يوجهونها ويحددون أهدافها: مثلا، بالعراق لتدميره أولا بالسلاح، ثم «بالحصار» الذى يقتل أكثر مما قتل السلاح. وهم يضعون كذلك تحت أعينهم إيران، وكوبا، وليبيا، وكل الذين يرفضون فرمانات صندوق النقد الدولى - القاتلة لكل الشعوب - ويرفضون الهيمنة الأمريكية.

* * *

تمثل اضطرابات الشيباس فى المكسيك رد الفعل الانفجارى لوحدانية السوق وسياسة الاقتصاد الحر، والتى سمحت للأقوياء أن يسيطروا وأن يستغلوا الأكثر ضعفا.

لقد انفجرت هذه الاضطرابات بسبب سياسة صندوق النقد الدولى والتى فرضت، ليس - فقط - سياسة الخصخصة وكل الإجراءات الأخرى التى تسمح للولايات المتحدة بأن تسيطر على كل الدول الخاضعة لهذه الفرمانات، بل فرضت - أيضا - ضغط النفقات الاجتماعية لكى تدفع هذه الدول ديونها وفوائدها.

لقد برزت المقاومة بوضوح - خصوصا فى المكسيك - حيث تدعمت هذه السياسة التوسعية الإمبريالية عبر اتفاقية «التبادل الحر» - «النافتا» - بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، والتى أزالت كل عوائق التبادل التجارى وعوائق الاستثمار.

يتزايد العجز التجارى فى المكسيك ، بينها وبين الولايات المتحدة، كل عام. والمادة ١٠٢ من المعاهدة تنص بالنسبة للبلدان الثلاثة على ما يلى :

ـ إزالة عوائق التجارة وتسهيل حركة دخول وخروج الأموال والخدمات.

ـ تهيئة كل ظروف المنافسة النزيهة.

ـ الزيادة الجوهرية لفرص الاستثمار.

فلا تقتصر معاهدة «النافتا» ، أو معاهدة حرية التبادل لدول أمريكا الشمالية، على التبادلات التجارية وحدها. إنما يأخذ الاستثمار ـ أيضا ـ حصة من الاتفاقات (مادة : ١٠٢) :

«تعطى كل دولة لمستثمرى الدول الأخرى الموقعة على الاتفاقية، على الأقل، نفس الحقوق المعطاة لمستثمريها، فيما يخص البناء، والتملك، والتوسع، والإدارة، والبيع والمتعلقات الأخرى بالاستثمار» .

(ميشال هوسون وألفونسو مونجوى فى "Flaticpac" رقم ٤ فبراير عام ١٩٩٥)

فى المكسيك، اتجهت ٦٠٪ من رءوس الأموال الأجنبية إلى البورصة والـ ٤٠٪ الباقية اتجه معظمها إلى شراء مؤسسات الدولة المخصخصة. ليس فى أى من ذلك إسهامًا فى إنتاج منتجات جديدة أو فرص عمل، بل على العكسّ، عملت على تقليل الأخيرة، كنتيجة للخصخصة. وأصبحت سمة النظام اليومى، الكسب السهل فى البورصة، و ـ أيضا ـ إمكانية تبخر رءوس الأموال. وفى حالة وقوع مشكلات أو فى حالة تضاؤل المكسب، تسحب رءوس الأموال هذه إلى خارج البلاد فى التو واللحظة.

وأدت تبعية الاقتصاد المكسيكى لرءوس الأموال الأجنبية إلى فقدان السيادة الوطنية. فبالنظر إلى التفوق التكنولوچى فى كل من كندا والولايات المتحدة على الجانب المكسيكى، نجد أن رءوس الأموال المستثمرة فى الإنتاج تبحث ـ وهذا بديهى فى عالم لا يهتم إلا بالربح وخفض التكاليف والقدرة على المنافسة، فى عالم يشل يد الحكومات الصغيرة عن حماية شعوبها ـ عن المصانع والماكينات وقطع الغيار المستوردة من المؤسسات الأكثر تقدما، ومن هنا يأتى إغلاق أبواب الشركات والمؤسسات المكسيكية وانخفاض فرص العمل.

أما فيما يتعلق بالزراعة، فإن المكسيك قد استعدت لدخول «النافتا» عبر تعديل إمكانية نقل ملكية الأرض والتنظيمات الخاصة بذلك فى الدستور. وصار من الواجب أن يواجه المزارعون ـ تحت حجة الإنتاجية فى المنطق الليبرالى الجديد ـ أن يواجهوا كبار الملاك العقاريين والشركات متعددة الجنسيات فى مجال الأغذية الزراعية. وقد حتم هذا الأمر فى النهاية، كرد فعل أخير لمواجهة البؤس، على هؤلاء المزارعين الصغار أن يبيعوا أراضيهم، وبذلك فقدوا وسيلتهم الوحيدة للقوت.

وتأتى ثورة جيش زاباتا للتحرير الوطنى نتيجة لهذا الوضع. لقد أدى تحريم دعم الدولة للإنتاج الزراعى، كما ورد فى المادة ٧٠٤ من المعاهدة، إلى أن يفقد المنتجون فى المكسيك القدرة على المنافسة الزراعية أمام نظرائهم من الولايات المتحدة وكندا.

هذا القانون الأخير يحرم على العمال المكسيكيين حق الإضراب من أجل زيادة الرواتب. من الآن فصاعدا، فقط سيتم السماح بالإضرابات فى حال الأمور المتعلقة بالإخلال بالعقود. لقد خضعت

المكسيك تماما «للنافتا». لقد بدأنا نشهد إغلاق المئات من الشركات الصغيرة المكسيكية . . . . *لقد قيل لنا إنه لا يمكننا منافسة المنتجات الأجنبية ، وإذا كنا فعلا نريد مساعدة أصحاب العمل على إبقاء المصانع والمؤسسات مفتوحة ، فيجب علينا أن «نتعاون»* . والتهديد بإغلاق المصّانع يستخدم لاقتناص التنازل تلو التنازل من جانب العمال لصالح أرباب العمل (. . .) .

وحسب اتفاقية «النافتا» ، حدثت سلسلة من خصخصة الشركات المؤممة ومؤسسات الخدمات العامة .

المنافسة بين بلدان غير متكافئة ينتهى بتدمير الأضعف.

إن ما يحدث هناك مرتبط بالأيديولوچية الليبرالية الجديدة . فالأربعة وعشرون ملياردير مكسيكى والذين يتعدى دخلهم المليار دولار ، هم مستفيدو «النافتا» الوحيدون فى المكسيك .

وهذه التجربة الأولى التى نتجت عن إدخال التبادل الحر بين دول قوية ودول ضعيفة اقتصاديا يؤدى إلى خضوع وتبعية الضعفاء الكاملة للأقوياء ، وهذا يمثل ما سيحدث على الصعيد العالمى لو أفلح القادة الأمريكيون فى فرض «عولمتهم» الإمپريالية .

كما تبرز لنا التجربة ذاتها أصوات التحرير : وحدة كل قوى العمل والعقل ضد القمع .

(وقد سبق أن استخدمت جماعات هندية السلاح فى شيباس فى الأول من يناير عام ١٩١٤ ، تحت اسم «جيش زاباتا للتحرير» (EZLN) ،

وزاباتا كان اسم الرئيس الكاريزمى لأول تمرد للهنود والفلاحين فى عام ١٩١١ ، والذى أعطى بصيصا من الأمل لكل المضطهدين).

وقد تلقت الحركة دفعات دعم قوية من مطران الشيباس. (من الجدير بالذكر أن أول مطران لشيباس عقب الغزو الإسپانى لـ«دى كورتيس»، كان بارتولومى دى لاس كاساس، المدافع عن الهنود).

وقد وصل هذا المطران، الأب صامويل رويس لمقاطعة شيباس فى عام ١٩٦٥ ، وقد اشترك فى عام ١٩٦٨ فى مؤتمر الأساقفة الأمريكيين اللاتين الذى ولد فيه لاهوت التحرير. وقد نشر الأب رويس فى عام ١٩٧٥ «لاهوت الإنجيل للتحرير» (الناشر «جوس» فى المكسيك)، والذى مثل فيه المسيح كنبى ثائر، وأسس تحت رعايته ٢٦٠٠ خلية رئيسية.

ولقد أدانت كل من الولايات المتحدة والمكسيك هذا الموقف من المطران، واتهمته حكومتاهما بـ«إثارة الهنود»، مما أدى إلى أن يصدر له الأب چون بول الثانى الأمر بالاستقالة، عبر الضغط على المجمع الكنسى المكسيكى لتنفيذ هذا الأمر بالإقالة. لكن أمام اتساع الحركة، استعانت حكومة المكسيك بالأب رويس كـ«وسيط» لحل الأزمة. فبقى الأب إذن فى الإقليم وأوضح، فى مؤتمر عام، أسباب الانتفاضة:

«فى الحقيقة، لقد أنهك القرويون من الهنود من جراء عدم تنفيذ الوعود الحكومية، واعتبروا أنه لا مفر أمامهم سوى اللجوء إلى رفع السلاح. لقد دُفعوا إلى ذلك بعد نفاد صبرهم..»

(القضية، المكسيك، ١٠ من يناير عام ١٩٩٤، ص ٢٤)

وأصر على إيضاح المثال المكسيكى لثلاثة أسباب :

١ - أن وضعها الحالى لا يمكن فهمه إلا فى إطار التاريخ الأمريكى اللاتينى، ومن خلال الاستعمار المتزايد لهذا الجزء من العالم من الولايات المتحدة الأمريكية.

وهى بذلك ترسم المستقبل المنتظر وما سيئول إليه حال دول أمريكا اللاتينية الأخرى.

٢ - وتمثل الأزمة الحالية أول مظاهر الانهيار - ولو بعد مدة - للنموذج «الليبرالى الجديد» المبنى على «وحدانية السوق» بتناقضاته الداخلية والمعارضة المتزايدة التى يولدها لدى الشعوب والتى تفرض ذاتها (ثورة الشيباس هى مثال واضح، سيتكرر عاجلا أو آجلا، فى عالم كل المقموعين).

٣ - تتماثل اتفاقية «النافتا»، الموقعة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، «للتبادل الحر»، مع اتفاقية «ماستريخت» الأوروپية والتى تعتبر أكثر توسعا، وتعبر عن المنطق التجارى للسوق والمال الذى تسعى الولايات المتحدة إلى فرضه على العالم بأسره.

ومنذ ذلك الحين، فإن الحركة التى تُعدّ مثالا للمقاومة ضد الهيمنة الأمريكية، قد اتخذت أبعادا جديدة. وعندما، قرر كلينتون، لأغراض انتخابية، استقطاب مؤيدى الجمهوريين من الناخبين، وبخاصة المعارضة الكوبية فى فلوريدا، قرر تدعيم الحصار ضد كوبا بقبوله القوانين المقترع عليها من قبل الجمهوريين، خصوصا قانون «هلمز - برتون» الذى يعاقب الشركات التى تستثمر أو تمارس التجارة مع كوبا،

وكذلك قانون «دماتو ـ كنيدى» الذى يفرض عقوبات على الشركات التى تستثمر فى إيران وليبيا .

وجدير بالذكر أن قانون «هلمز ـ برتون» الذى وافق الكونجرس عليه بعد أن طرحه الجمهوريون، فى الثالث من يناير عام ١٩٩٦ ، ووقعه كلينتون فى الثانى عشر من مارس قد صدر «لكى تغرى القيود الاقتصادية بإسقاط الرئيس كاسترو، ويتم دعم نظرية إقامة حكومة منتخبة ديموقراطيا فى كوبا» .

وهكذا يظهر مرة أخرى دَجَل نظرية «التعددية الحزبية» فى الولايات المتحدة، حيث يسود حكم «الحزب الواحد» حزب المال . ويستولى على قادة «الحزب الواحد»، سواء من الديموقراطيين أو من الجمهوريين، هَمٌّ عظيم هو فرض هيمنتهم على العالم بأسره، لكى يفتحوا لشركاتهم ومؤسساتهم أسواقًا بلا حدود .

الضحية الأولى كانت المكسيك، المشار إليها، بما أنها قد قبلت قيود «النافتا» وأقرتها . لقد استثمرت شركة دوموس المكسيكية المتخصصة فى الاتصالات سبعمائة مليون دولار فى كوبا؛ مما تسبب فى منع رؤسائها الخمسة وعائلاتهم منذ بدء العمل بقانون «هلمز ـ برتون» فى ٢٤ من أغسطس عام ١٩٩٦ من دخول الولايات المتحدة الأمريكية . بذلك يكون لقانون أمريكى فاعلية التطبيق خارج الولايات المتحدة، وبذلك يصبح الأمريكيون مشرعين للعالم . وتدخلهم لاينتهى هنا .

فى الرابع والعشرين من أغسطس، وعبر التطبيق لنفس القانون الأمريكى، أبلغت الشركة الكندية «شيريت إنترنشيونال» عبر نفس الانفراد الأحادى الرغبة، أبلغت بمهلة أقصاها خمسة وأربعون يوما

لتصفى استغلالها للمناجم المعدنية ومشروعاتها فى نفس المجال (وبخاصة استخراج ومعالجة النيكل) فى كوبا. وفى نهاية هذه المهلة إن لم يخضعوا، ستتخذ شرطة الحدود والجمارك الإجراءات الخاصة بمنع رؤساء المؤسسة (بينهم بريطانيان) وعائلاتهم من دخول الولايات المتحدة الأمريكية. وإجراء مثل هذا أثار مخاوف الحكومة الكندية، لأن كندا هى «الشريك التجارى الأول» لكوبا.

إن اتفاقية «النافتا» إذن (للتبادل الحر بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك) تعبر بكل المقاييس والاتجاهات عن كونها: أول تجربة لهيمنة الولايات المتحدة على «شركائها» التابعين، وفرضها حريتها عليهم!

وقد أعلنت الحكومة المكسيكية، ومن ورائها القطاع الخاص المكسيكى، أن هذه الإجراءات «غير مقبولة» و«مخالفة لمبادئ القانون الدولى»، ومن ثم أعلنت الأحزاب الأربعة الرئيسية فى المكسيك عن اقتراح قانون للرد على التعدى على سيادتهم الوطنية: « يجب علينا، كما يقولون، تطبيق القصاص: العين بالعين والسن بالسن». على سبيل المثال، حرم على الشركات الوطنية الخضوع لضغوط دولة أخرى، وكذلك وضع نظام للمساعدة ومساندة الشركات التى تتعرض للخسارة نتيجة لرفضها تنفيذ قوانين أجنبية.

بل إن حكومة زديّو ـ المطيعة عادة للأوامر الأمريكية ـ عقدت مباحثات ثنائية مع الحكومة الكندية، لتكوين جبهة مشتركة أمام مثل هذه التعديات من مجلس «النافتا»، الذى تقرر المادتان ١١٠٥ و ١٦٠٣ من معاهدته أنها معاهدة ذات حقوق متساوية لموقعيها (!)، وبالنسبة للاستثمارات وحرية انتقال رجال الأعمال بين الدول الموقعة على الاتفاقية، فهى بنود تنتهكها

الولايات المتحدة بفجاجة ومن جانب واحد من ناحيتها بتطبيق قانون «هلمز - برتون».

كما قررت الحكومة المكسيكية اللجوء إلى «منظمة الدول الأمريكية»، و - أيضا - «منظمة الوحدة الأوروبية» من أجل دعم موقفها فى الجبهة الموحدة ضد الموقف الأمريكى. وقد سبق أن عارضت «منظمة الدول الأمريكية» فى مناسبات عدة، إضافة عقوبات جديدة على كوبا.

أما بالنسبة لأوروبا، فهى تشعر أيضا بالموقف الأمريكى الذى يسعى لتحويل كل حلفائه إلى «تابعين»، كما نصت من قبل النصوص المكملة لمعاهدة ماستريخت: «أوروبا لا يمكن أن تكون سوى الدعامة الأوروبية للتحالف الأطلنطى».

«مثل هذه الإجراءات لا يمكن لنا أن نقبلها، فهى غير معقولة». صرح بذلك المتحدث الرسمى لمنظمة الوحدة الأوروبية، كلاوس ڤان درباس، عقب قرار الولايات المتحدة بمنع الرؤساء الخمسة لشركة «دوموس» المكسيكية للاتصالات من دخول أراضيها.

« وعلى صعيد الحقوق»، يكمل ڤان درباس، « فإن أحادية القرار الأمريكى توضح إلى أى مدى وصل انحراف قانون «هلمز - برتون»». فلقد قررت الولايات المتحدة الأمريكية، دون استشارة أحد، أن تطبق نصوص القانون الذى أقرته على مواطنين غير أمريكيين فيما يخص أمورا تتم خارج أراضيها. وذلك فى الوقت ذاته الذى تحاول فيه أغلبية الدول عبر منظمة التجارة العالمية أن تنشئ قواعد متعددة الأطراف لإدارة التجارة العالمية.

لهـذا فـقـد بدا الموقف الموحـد للدول الأوروبيـة برفض هذا القـانون «هلمز ـ برتون»، واضحا حتى من البريطانيين أيضا .

ومنذ إعلان العقوبات على غير رغبة المجتمع الدولى، صرح المتحدث الرسمى بـ «كيه دورساى» (*) من جانبه : « إن ما حدث بتطبيق القانون المدعو «هلمز ـ برتون»، الذى أعربت الولايات المتحدة بموجبه عن عزمها منع رؤساء شركة مكسيكية تستثمر فى كوبا من دخول أراضيها، فإننا نعتبر هذا الإجراء المتخذ من جانب واحد، متعارضا مع قواعد التجارة الدولية، ونعتبره غير مقبول. وفرنسا تندد بهذه الإجراءات الجديدة المتخذة بشأن موضوع ستعارضه هى وشركاؤها فى مجموعة الوحدة الأوروبية معارضة شديدة.

كما ستواصل الحكومة الفرنسية الاتصال بالحكومة المكسيكية للتباحث فى هذا الشأن».

ما سنعلمه قريبا هو إذا ما كانت هذه الكلمات سيعقبها أفعال تؤكدها أم لا، وخاصة أن شركة أوروبية، وهى الشركة الإيطالية «ستيت» (التى اشترت من دوموس جزءا من شركتها للاتصالات فى كوبا)، تواجه تنفيذ قانون «هلمز ـ برتون» عليها. كما تقع الشركة الإيطالية تحت طائلة المادة ٣ من القانون الذى يسمح للأمريكيين بمقاضاة الشركات الأجنبية التى تستخدم أغراضا سبق نزع ملكيتها بواسطة الثورة الكوبية، وقد بدأ العمل بالقانون من أول فبراير عام ١٩٩٧ . (تخيل إذا كان لفرنسا القوة لتنفذ مثل تلك العقوبات على الشركات الأمريكية فى الجزائر والتى تستخدم

(*) كيه دورساى : رئاسة الوزارة الفرنسية.

ممتلكات الشركات الفرنسية القديمة التى سبق أن تملكتها وقت احتلالها الجزائر قبل الاستقلال!).

هل ستنضم أوروپا للطلب الملح داخل منظمة التجارة العالمية، بأن تصبح التجارة حرة من منطلق مبدإ شامل يتساوى فى تنفيذ بنوده كل الأعضاء بحقوق متعادلة؟ بل هل ستقاضى الولايات المتحدة أمام محكمة العدل الدولية؟

وهذا سيكون منطقيا، لأن الدول الخمس عشرة (المجموعة الأوروپية) تدرس مشروعا لمقاطعة قانونى «هلمز - برتون» و«دماتو - كنيدى»، اللذين يلزمانهم بتشديد الحصار ضد إيران وليبيا. ولكن من غير المستبعد أيضا أن يتخلى بعض الشركاء المختلفين عن مقاومتهم للهيمنة الأمريكية، مثل المكسيك، لأن ميزان القوة فى غير صالحهم، ومثل كندا، لأن تعاملاتهم مع الولايات المتحدة تمثل الجانب الأكبر من تعاملاتهم الخارجية، أو لأن الولايات المتحدة تمارس الضغوط، مثل زيارة فى شهر سبتمبر عام ١٩٩٦، قام بها الممثل الخاص للبيت الأبيض ستيوارت إيزنستاد الذى كشف حينئذ عن إنذاره الأخير. كما بدا - أيضا - تراجع الشركاء الأوروپيين، كحالة شركة شل، التى تخلت عن مشروعاتها البترولية فى إيران. ومثل اليابان التى انسحبت هى الأخرى. ولم تبق سوى معارضات قليلة وردود فعل ضعيفة على الصعيد العالمى، تعبر عن الإحساس بأن سياسة الولايات المتحدة تشكل خطراً كبيراً على استقلال كل الدول والشعوب.

إن حل مشكلاتنا إذن، سواء أكانت بخصوص المجاعة فى الجنوب أم البطالة والتهميش والإقصاء اللذين يظهرون فى أوروپا كلها، يتوقف على قدرتنا على جمع شمل كل ضحايا الهيمنة الأمريكية، بغرض عزل قادتها عن المجموعة أو الاتحاد المزمع تكوينه، بمؤتمر باندونج جديد، لتلك الشعوب التى ترفض الهيمنة الاستعمارية للولايات المتحدة .

إن أوروپا التى استفادت دائمًا من كونها مهيمنة واستعمارية تجد نفسها اليوم فى الطريق إلى أن تصبح هى مستعمَرة .

فى رأيى، فإنه يمكن لبرنامج محدد لهذا التحرير المزدوج أن يتضح من خلال التقاء ظاهرتين :

أولاهما، بالنسبة للجنوب : من أجل باندونج جديد .

أخراهما، بالنسبة لأوروپا : من أجل وحدة سيمفونية للعالم .

* * *

الفصل التاسع
إعلان عالمى للواجبات

لا يمكن أن تكون المبادئ الرئيسية لهذا التحرر الخاص والداعى إلى «وحدانية السوق»، هى نفس المبادئ التى أعلنتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، فى «إعلان حقوق الإنسان»، والتى كان لها فضل إنهاء الفوارق والامتيازات المكتسبة عن طريقة الوراثة. ولكنها أقامت فوارق وامتيازات أخرى عن طريق المال.

لقد أقامتها بانغلاق الفرد فى أنانيته النفعية و«ملكيته الخاصة»، وانتصرت فقط على إلغاء «النظام القديم»، نظام الوراثة للملوك والنبلاء، ثم تركت كل الحرية للذين يملكون كى يستغلوا جموع المحرومين.

ولابد لنا اليوم من شىء آخر غير مجرد «إلغاء» الماضى القريب. لابد من الارتقاء إلى ما هو أبعد من كل نظم الهيمنة وادعاء الخصوصية والتميز الغربى، للعثور على المسار الرئيسى والعالمى حتى يصبح الإنسان إنسانًا.

وبدءا، نقدم «إعلان الواجبات» الذى يحدد المسئولية لكل إنسان، بأن نذكره بخصوصياته التى تتجاوز المادة، مما يجعل الإنسان إنسانا حقيقيا وأصيلا.

وهذه هى الصيغة الأولية التى نقترحها للإعلان العالمى للواجبات.

مقدمـة :

إن «إعلان الواجبات» ينبع من التمييز بين الإنسان وبقية الكائنات الحية، والفرق الأساسى بين التطور البيولوچى والتاريخ الإنسانى. وهذا الفرق واضح لأن الإنسان لا يد له فى التطور البيولوچى، بينما التاريخ الإنسانى من صميم عمله. والإنسان هو الذى يكتب كل حرف من تاريخه منذ بدايته. والإنسان لا يتميز بأن له طبيعة فقط، بل يتميز أيضا بأنه له تاريخ. فالإنسان يحتوى - بوعى أو بغير وعى - كل إبداعات سابقيه، ويضم كل الثقافات الإنسانية والتى اكتسبها بتجاربه وخبراته، وتجارب سابقيه وخبراتهم على ظهر هذا الكوكب.

إن الإنسان مستفيد من هذا الإرث، ومسئول عنه. وهذا ما يحمِّله واجب المشاركة الإبداعية لإثراء ذلك التراث حتى تستمر أنسنة الإنسان.

ومن هذا الواجب الأساسى تنبع بقية الواجبات.

* * *

١ - إن «أنسنة» الإنسان مهمة كل ثقافات جميع عائلات هذه الأرض ولا بد من أن تتسق كل واجباتنا مع هذه العالمية.

ولا يمكن لأى فكر أو عمل أن يكتسب قيمة إنسانية إلا إذا سعى هذا الفكر وهذا العمل لكى يستمتع كل طفل وكل امرأة وكل رجل - أيا كانت ثقافته الأصلية أو عقيدته أو محل مولده - بالوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية أو الروحية، التى تنمى كل إمكاناته الإنسانية والإبداعية.

وكل منظمة اجتماعية تكرس نفسها لخدمة الإنسانية لا يمكن أن يكون لها هدف آخر غير ذلك.

ولابد من إلغاء الزعم ـ أيا كان صاحبه أو مدعيه ـ بأنه «شعب مختار»، لأن فى ذلك الادعاء نفيا قبليا لوحدة الإنسان والمساواة بين البشر.

٢ ـ وكل سلطة يتولاها أى إنسان بوصوله إلى موقع الإدارة أو التنظيم فى كنيسة أو حكومة أو مؤسسة إنتاجية أو خدمية، أو أىّ مسئولية مهنية أو فنية، أو أى شكل من أشكال خدمة المجتمع، تتطلب من شاغلها واجبات إضافية، وبخاصة واجب الحرص الشديد أثناء ممارسة مهام هذه السلطة تجاه مجتمعه، على ألا يضر عمله هذا بأى مجتمع آخر، حتى على المستوى العالمى.

مثلاً، إذا تولى إنسان سلطة دينية، عليه ألا يعمل لكى تقوم هذه السلطة بإقصاء أو اضطهاد الآخرين. ولابد لمن يتولى السلطة فى الأمة، أيا كان مستوى هذه السلطة، خصوصا فى المستويات العليا، أن يسهر على ألا تفترض المصالح الخاصة لهذا الشعب أى امتياز لمصلحته على مصالح الشعوب، ومن باب أولى أى سيطرة على شعب آخر.

٣ ـ توجب الملكية استثمارها لخدمة الإنسانية كلها، لأن هذه الثروة هى ناتج علوم وتقنيات الإنسان. إنها تنتمى منذ آلاف السنين لأجيال متعاقبة أبدعت أنواع الزراعة الجديدة ووسائل التقنيات الصناعية والتبادل، كما كانت ثمرة العلوم والفنون التى أبدعتها وطورتها.

وكل من يتولى ذلك لمدة ما، بصفة خاصة أو عامة، يعتبر مديراً مسئولاً. فإذا لم يقم بواجبه، حق للجماعة التى ينتمى إليها، بل كان من واجبها أن تعفيه من تلك المسئولية لتسندها إلى شخص آخر. ويتساوى الفرد والجماعة فى ضرورة الوعى بهذه الالتزامات.

٤ ـ إن الواجبات تجاه الطبيعة هى حالة خاصة من الواجبات نحو الملكية. فليس من حق الأفراد أو الجماعات ادعاء التميز بحق استهلاكها، أو

تشويهها، أو تدمير ثرواتها من أجل التمتع الخاص. ذلك، لأن الطبيعة كما ورثناها اليوم، أكسبها الإنسان فى الغالب طبيعة إنسانية نتيجة العمل الإنسانى خلال أجيال عديدة.

ولا يمكن اعتبار الطبيعة كمخزن لا ينفد من الثروات لإرضاء شهواتنا العاجلة. ولا يمكن اعتبار الطبيعة مدفنًا لنفاياتنا: أى أن الطبيعة لا تنتمى فقط للمليارات الموتى الذين أخصبوها، بل أيضا للمليارات الذين لم يولدوا بعد. وعلينا جميعا واجب أن نجعلها أكثر خصوبة وأكثر جمالا مما تسلمناها دون أن نصادر المستقبل.

٥ ـ ولا يمكن للحرية أن تصبح أسيرة المصالح الخاصة أو المطامع الضيقة للمجتمع الذى ننتمى إليه، ولابد للحرية أن تخدم تقدم كل أعضاء المجتمع فى الكون كله.

والحرية ليست صفة للفرد (وفى اليونانية تعنى كلمة الذرة الانفصال عن الآخرين فى الفضاء). وفى المجتمعات الغربية، الفرد مركز ومقياس كل شىء، وهو منفصل عن الآخرين بحواجز «حقوقه». وعلى العكس، لابد أن يعى كل شخص بواجباته. ولابد أن يتضامن بمسئولية مع مصائر الآخرين.

٦ ـ وينبع من هذا التضامن بين الواعين تماما لواجباتهم، الأمن ومقاومة كل اضطهاد (وهو لا ينشأ إلا من أفراد وجماعات ترفض واجباتها الإنسانية)، ولا تستطيع أى قوة مادية أن تنتصر طويلا على جماعة يوحدها الضمير العام بواجباتها الإنسانية العالمية (وقد أمدنا التاريخ بالأمثلة العديدة على الانهيار النهائى لكل الإمبراطوريات).

٧ ـ وعلى كل رجل أو امرأة أيا كان مستوى السلطة السياسية أو الثقافية أو الروحية التى يتولاها، واجب أن يسائل نفسه عن الهدف، أى معنى

وهدف نشاطه: وهل يخدم ذلك ازدهار الإنسان وكل إنسان أو يعمل على تدهوره وتحطيمه؟

- فإذا كان هذا النشاط فى باب الإنتاج، نكتفى بذكر البحث عن أعلى الأرباح فى صناعة السلاح وزراعة المخدرات.

- وإذا كان النشاط فى باب الخدمات، نذكر تلك التى تملك أقوى القدرات فى التلاعب بالأرواح (سواء فى الإعلام أو التعليم أو الديانات أو الفنون).

٨ - إن «حقوق» الإنسان تنبع من تلك الواجبات وتتلخص فى «حق» واحد.

إزالة الحدود والسدود (سواء كان ذلك قيودا أو تمييزا اقتصاديا أو سياسيا أو ثقافيا أو روحيا) التى تعوق قيامه بواجباته تجاه المجتمع الكونى.

٩ - إن مجموع هذه الواجبات تصب فى واجب واحد بشرت به أقدم الروحانيات فى تاريخنا. حين يعى الإنسان تماما إنسانيته، أى خصوصية الإنسان بين كل المخلوقات الأخرى. ذلك لأن «الطبيعة» لاتستبعد الصراع حتى الموت بين الأجناس، ولا تستبعد إبادة ملايين البذور. ولا يمكن لتلك القاعدة أن تنطبق على البشر. إن الواجب الأوحد، الذى تنبع منه بقية الواجبات، هو ذلك الواجب الخالد والواعى والإنسانى: بأن يكون «الواحد» مع «الكل».

الفصل العاشر

برنامج محدد

(أ) للعالم الثالث : باندونج جديدة :

هذا هو الخيار الذى نقترحه حتى ينهى القرن الواحد والعشرون عصر «التاريخ الحيوانى» للإنسان، حيث تقوم قلة ضئيلة فى عالم ممزق بفرض التبعية والاستغلال، وتهميش السواد الأعظم من البشرية :

١ ـ لا يمكن أن تتحقق نهضة الوحدة الإنسانية بنفس الأداة التى مزقتها : العنف والسلاح، ولكنها تتحقق بكل قواها الإنسانية : من الاقتصاد إلى الثقافة إلى الإيمان.

٢ ـ ويعود ضعف الشعوب المقهورة الآن فى أغلبه إلى انقسام تلك الشعوب بالمنازعات والحروب التى تُدفع إليها، والتى يمولها سادة العالم الحاليين.

والمهمة الأولى إذن هى إنهاء تلك الصراعات بالمفاوضات السلمية، لأنها منازعات يتلاعب بها الطغاة.

٣ ـ إننا نرفض جماعيًا سداد الديون المزعومة لصندوق النقد الدولى، وذلك لأسباب ثلاثة رئيسية :

أ ـ من المدين؟

على الغرب للعالم الثالث دين رهيب.

* فمن الذى يعيد لبيرو الـ ١٨٥ ألف كيلو جرام من الذهب، والـ ١٦ مليون كيلو جرام من الفضة، والتى اعترف «بيت العقود التجارية» لأشبيلية بنزحها ما بين عامى ١٥٠٣ و١٦٦٠؟!

ومن الذى يعوض هنود أمريكا عن قتلاهم وعن نهب واغتصاب قارتهم؟!

* ومن الذى يعوض الهند القديمة، المصدرة العالمية للنسيج، عن ملايين أطنان القطن المنهوبة من زارعيها بأسعار بخسة؟! ومن يعوضها عن تدمير وحرق الأنوال اليدوية لصالح مصانع لانكشاير الكبرى؟! ومن يعيد إلى إفريقيا حياة الملايين من أبنائها الأشدّاء الذين نقلوا عبيداً للأمريكتين عن طريق النخاسين الغربيين طوال ثلاثة قرون؟!

ب ــ وما سبب تلك المديونية؟!

لقد دمرت الدول الاستعمارية القديمة الاقتصاديات المحلية، بالتضحية بزراعات التغذية لصالح إنتاج المحصول الواحد، مما جعل هذه الاقتصاديات كالزوائد، وألحقها باقتصاديات القارة الأوروبية لصالح أرباحها وحدها. ولم تستطع تلك الاقتصاديات تأمين استقلال هذه البلاد، كما لم تحقق اكتفاءها الغذائى، كما لم تتوافق الأيدى العاملة الصناعية مع احتياجات تلك البلاد.

وهكذا استمرت التبعية، وأصبحت القروض ضرورة.

جـ ــ ولقد تم منذ وقت طويل سداد تلك القروض بدفع الفوائد الربوية للدائنين الأجانب. (مثلا تدفع الجزائر ٦ مليارات دولار فوائد سنويا عن ديون لا تزيد على ٢٦ مليار دولار). ولهذا أصبح أى إصلاح مستحيلا، وهنا يكمن المصدر الرئيسى للأصوليات. ولقد تعدّت فوائد الديون منذ

فترة طويلة القيمة الأصلية للديون. والمعونة ـ المزعومة ـ التافهة أقل كثيراً من أقساط تلك الديون.

* إننا نرفض أن نصبح رهائن. وأن ندفع لصندوق النقد الدولى هذه الديون المزورة، وتلك الفوائد الربوية المضافة.

* ونرفض كذلك المعونة ـ الزائفة ـ التافهة(*) التى تهدف لوضع القناع على تلك المظالم التى استمرت مئات السنين.

* وسوف نؤسس مع إلغاء الديون وفوائدها «صندوق تضامن» سيعوض تلك «المعونة» المزعومة التى يقدمها مستغلونا.

٤ ـ إننا نعارض كل أنواع «الحصار» التى يتحكم فى فرضها «سادة العالم» المؤقتون على البلاد التى ترفض سيطرتهم.

ولن نقيم لهم وزنا بعد الآن، وسنتاجر مع إخواننا المعتدى عليهم.

٥ ـ وبطريقة أكثر عمومية، فإننا نقرر إنشاء «سوق مشتركة» لشعوبنا، لمضاعفة التبادل بين الجنوب والجنوب، وهو يملك ٨٠٪ من الموارد

(*) تستحق قضية المعونة دراسة جادة. فما الذى يجعل الغرب الذى خرجت جيوشه طوال قرون لغزو العالم وفتح أسواقه واستنزاف ثرواته، وأشعلت فى سبيل ذلك الحروب الطويلة، بما فى ذلك الحربان العالميتان، ما الذى يجعله يرتدى مسوح المصلحين الكرام الزهاد الذين يقدمون المعونة للشعوب المنكوبة؟ ولنأخذ مثلاً واحداً من بين مئات الأمثلة: لماذا لا تزيل إنجلترا وألمانيا ملايين الألغام التى زرعتاها فى صحراء مصر الغربية خلال الحرب العالمية الثانية؟ وهذه الصحراء هى المجال الأمثل لتوسيع الرقعة الزراعية فى مصر. لماذا لا تقوم الدولتان بإزالة ما زرعتاه فى مصر فى أثناء حرب لم يكن لمصر فيها ناقة ولا جمل؟! لماذا تحرمان شعب مصر من استغلال أرضه ـ ناهيك عن المسلسل المستمر لضحايا الألغام ـ بدلاً من التشدق بكلمة المعونة؟

الطبيعية فى العالم. وسوف نقوم بهذا التبادل على أساس «المقايضة» دون المرور عن طريق عملات الشمال، وبخاصة الدولار، وحتى نعمل دائبين على القضاء نهائيا على المضاربة بحيث لا تقع أبدا فى بلادنا، وذلك تمهيدا لإصدار عملة موحدة بين دول الجنوب.

٦ - إن هذا يستلزم مقاطعة مطلقة للولايات المتحدة، وأتباعها، وبخاصة إسرائيل المرتزقة حليفة الغرب ضد ثقافاتنا وضد السلام.

* إننا نريد القضاء على الهيمنة الاقتصادية والاعتداءات الثقافية.

* إننا سنناضل ضد أعداء الثقافة وديناصورات هوليوود وأدوات تسليتهم وكل مظاهر انحطاطهم الأخلاقية والمادية.

٧ - ويقتضى هذا على الصعيد السياسى، الانسحاب الجماعى من كل المنظمات التى تزعم العالمية، والتى أصبحت أدوات الهيمنة لدولة واحدة، أو أصبحت ستاراً لاعتداءاتها العسكرية والاقتصادية والثقافية، كهيئة الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية، ومثل فروعها التى تتواطأ معها من أجل فرض سيطرة إمبريالية على العالم تهدد قيمة الإنسان، وتعتبره مجرد مستهلك ومنتج، ولا تحركها سوى مصلحتها الخاصة، وترفض أن تعطى أى قيمة للإنسان سوى أن يعمل أكثر ليستهلك أكثر، أو لا يعمل ليصبح متعطلا أو مستعمَرًا أو مستعبَداً.

٨ - إن التهديدات أو الاعتداءات على أحد منا توجب الرد عليها بكل الوسائل من المجتمع العالمى.

٩ - ويهدف هذا المجتمع العالمى إلى إقامة عالم له وجهه الإنسانى، ولا يتضمن أى إقصاء دينى أو سياسى، لأن هدفه هو تحقيق وحدته لا على النهج الإمبريالى، ولكن ليؤلف سيمفونية إنسانية يشارك فيها

كل شعب وكل مجموعة، بثروته الخاصة التى تجود بها أرضه وثقافته وعقيدته.

إن الباب إذن مفتوح أمام الدول التى تشاركنا هذا المثل الإنسانى، كما أن الباب مفتوح أمام الأقليات المضطهدة، بشرط وحيد هو أن تحقق فى كل بلد وحدتها على أسس مبادئنا المشتركة.

لقد كان هدف مؤتمر باندونج الأول هو رفض الانحياز لأحد القطبين فى عالم ثنائى الأقطاب للحفاظ على الاستقلال. وسيبقى هذا المفهوم مبدأنا.

ولكن الظروف التاريخية تغيرت.

إننا نعيش الآن عالما أحادى الأقطاب. وعلينا الدفاع عن هويتنا من الثقافة إلى الاقتصاد، ضد مخططى الهيمنة على العالم عن طريق «وحدانية السوق»، التى تكرس للأقوى الحرية فى أن يفتك بالأضعف، وليجعل السوق أو المال هو المنظم الأوحد للعلاقات الاجتماعية.

إننا نرفض تلك الرؤية للعالم دون إنسان، ونرفض تلك الحياة دون مشروع إنسانى، ونتحد لإقامة عالم واحد، غنى بتنوعه، واثق بمستقبله باتفاق الشعوب والثقافات على إيمان مشترك، تغذيه تجربة وثقافة كل عضو فيه، ويحركه مشروع مشترك بأن نوفر لكل طفل وكل امرأة، وكل رجل، أيا كان أصله وتقاليده الخاصة، كل الوسائل لتزدهر تماما إمكاناته كلها.

(ب) من أجل أوروپا : ومن أجل وحدة سيمفونية للعالم!

١ ـ إن السياسة الوحيدة التى لها مستقبل هى السياسة التى تجد حلاً لمشكلاتنا الرئيسية وهى :

* البطالة .

* الهجرة .

* الجوع والتهميش فى العالم .

مع كل نتائج تلك المشكلات أخلاقيًا وثقافيا .

إن هذه المشكلات الثلاث ليست سوى مشكلة واحدة . وما يقدم لنا ليس سوى حلول خاطئة . بل وأكثرها خداعًا أن يقال :

- إن هذه المشكلات تحلها التنمية .

- وإن أوروپا قد حلت هذه المشكلات .

وهنا تكمن أكثر الأكاذيب القاتلة :

لأن التنمية - على الطريقة الغربية - لن تحل شيئا من مشكلاتنا الحيوية .

إن الدول والأحزاب فى البلاد الغربية لا تتعامل مع المشكلة مطلقا . لأنها مهووسة منذ عدة قرون بأوهام التنمية التى تقوم على الإنتاج أكثر وأكثر ، وبأقصى سرعة لأى شىء : مفيد أو غير مفيد أو مضر ، أو حتى قاتل (كالمخدرات والسلاح) .

هذه التنمية ، تقدمها السياسات ووسائل الإعلام كأنها دواء سحرى للخروج من الأزمة ، والبطالة ، بينما تحققت التنمية بصورة هائلة منذ عام ١٩٧٥ ، فزاد الإنتاج ، بفضل العلوم والتكنولوچيا ، ولكن لم يحل ذلك مشكلة البطالة ، وعلى العكس عطل الثروة البشرية ، بإحلال الآلة مكان الأيدى العاملة . ففى عام ١٩٨٠ كانت بلچيكا تنتج ١٠ ملايين طن من الصلب بـ ٤٠ ألف عامل ، وهى فى عام ١٩٩٠ تنتج ١٢ مليون طن بـ ٢٢ ألف عامل فقط .

إن ما يدفع «التنمية» هى أرباح الإنتاجية التى تحل الآلات محل العمل الإنسانى، بفضل العلم والتكنولوچيا، بل وبتطور المعلوماتية والإنسان الآلى أو «الروبوت».

ومن السخف اتهام العلوم والتكنولوچيا، لأن الكارثة فى طريقة استخدامها. مثلا، منذ عام ١٩٧٠، زادت الإنتاجية بنسبة ٨٩٪ نتيجة اكتشافاتها. وهذا من حظ الإنسانية لإنقاذها من الأعمال المتكررة. ولكن من سوء الحظ أن مدة العمل لم تقل، والبطالة تضاعفت أكثر من عشرة أضعاف. ومعنى ذلك أن الإنتاجية لم تفد مجموع الإنسانية، بل أفادت مالكى وسائل الإنتاج وحدهم.

لا علاقة بين التنمية والبطالة. ففى فرنسا على سبيل المثال:

* فى عام ١٩٩١ بلغت نسبة التنمية ٠,٧٪، وفى فرنسا ٢,٣٤٨,٠٠٠ متعطل عن العمل (بنسبة ٩,٤٪).

* وفى عام ١٩٩٢ تضاعفت التنمية: ١,٤٪ وكان عدد العاطلين ٢,٥٠٠,٠٠٠ عاطل (بنسبة ١٠,٤٪).

* وفى عام ١٩٩٣ هبطت التنمية إلى ١٪ بالناقص، وبلغ عدد العاطلين ٢,٩٠٠,٠٠٠ (بنسبة ١١,٦٪).

* وفى إبريل عام ١٩٩٤ بلغ عدد العاطلين ٣,٢٠٠,٠٠٠ (طبقا للاحصاءات الرسمية).

ولايعنى ذلك أننا نعارض التنمية، أو نعادى تقدم العلوم والتكنولوچيا، ما دام ذلك التقدم يقلل من عناء الإنسانية، ولا يقود لاستعبادها أو اغترابها، ولكننا لم نذكر سوى مثال واحد من «طرق الإعلام» لتضليل الرأى العام لخدمة الهيمنة الأمريكية.

لكن نمو الإنتاجية، لن يحل مشكلة البطالة. وأكثر من ذلك، فإن النمو وتعظيمه كما يريد أصحاب الأعمال والحكومة بتخفيض الأجور وضغط التأمين الاجتماعى، قد يسمح بقضم بضعة أجزاء من السوق أمام المنافس الأوروبى والأمريكى واليابانى. ولكنها كلها حلول هشة.

٢ ـ الكذبة الأخرى بعد كذبة التنمية، هى أن الوحدة الأوروبية هى الدواء الوحيد الأكيد لأوروبا. **والواقع أنه لن تحل أى مشكلة حيوية فى إطار أوروبا.**

فقد وعدونا بسوق أوروبية تشمل ٣٠٠ مليون زبون، وأغفلوا أننا أيضا أمام ٣٠٠ مليون متنافس فى سوق «العمل». لأن اقتصاديات أوروبا فى أساسها ليست متكاملة، ولكنها اقتصاديات متنافسة. هذا إلى جانب اقتصاديات أمريكا واليابان.

هل يعنى ذلك أن البديل الوحيد أمام أوروبا هو انسحاب وطنى داخل حدودها، وانغلاق داخل أسوار دفاعية واقية؟ إن هذا الخيار سيكون، على العكس، اختناقًا.

إنما الحل الوحيد الممكن هو الانفتاح على العالم أجمع، طالما أنه، وبعد ٥٠٠ عام من الاستعمار و٥٠ عاما من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، يعيش هذا العالم محطمًا، باقتصاده المشوه، نهب فيه الغرب ثروات أربعة أخماس سكان العالم، ليصبح خاوى الوفاض، يدهمه الجوع والبطالة، بينما تصبح الهجرة هى الجسر الوحيد، للعبور من عالم الجوع إلى عالم البطالة.

وحتى لو فكرنا بمنطق السوق وحده، فكيف نأمل فى توفير العمل

للبعض، بينما مليارات من البشر فى نفس الوقت لا يملكون الحد الأدنى لسد الرمق؟

إن الحل الوحيد الممكن للجوع والبطالة وهجرة الجائعين بحثًا عن العمل، هو تغيير علاقاتنا مع العالم الثالث تغييراً جذريًا، لننهى سيطرة الغرب وتبعية الجنوب، لأن هذه التبعية معناها التخلف.

إننا نعيش فى عالم «محطم»، بين الشمال والجنوب، بين الذين يملكون والذين لا يملكون فى الشمال والجنوب، حيث يسيطر ٢٠٪ من سكان العالم على ٨٠٪ من موارد العالم الطبيعية. ويسيطر ٢٠٪ من الأكثر غنى فى العالم على ٨٣٪ من الدخل العالمى، بينما يملك ٢٠٪ من الأكثر فقرا ٤,١٪ فقط[٢١]. ونتيجة هذا الحطام، يموت ٤٠ ألفا من البشر كل يوم من الجوع أو سوء التغذية.

ويكلف هذا النموذج الغربى للتنمية الجنوب، ما يوازى ضحايا هيروشيما كل يومين!

والفجوة تزداد اتساعًا : ففى السنوات الثلاثين الأخيرة، زادت الفوارق بين الدول الغنية والدول الفقيرة من واحد إلى ثلاثين إلى واحد إلى مائة وخمسين![٢٢] ونظرا لما اقترفه الاستعمار خلال خمسة قرون من اختلال المساواة بين الشعوب، فلن يؤدى «التبادل الحر» إلا إلى مضاعفة السيطرة والتبعية.

فكيف نقلب تلك الانحرافات القائمة؟

أولاً: بالقضاء على تلك الأسطورة التى تربط بين «الديمقراطية» و«حرية السوق»: لأن السوق الحرة تغتال الديموقراطية، بتراكم الثروات فى ركن من العالم، وتفاقم الفقر فى ركنه الآخر.

ويستدعى ذلك بعض قرارات سياسية ترمى إلى التحرر من «عولمة» الاقتصاد المزعومة، أى مشيئة أمريكا أن تجعل من فرنسا، ومن أوروپا وبقية العالم، مستعمَرة تفتح السبل أمام اقتصادها فى كل المجالات: من الزراعة الغذائية إلى علوم الفضاء، ومن الإعلام إلى السينما.

وكل يوم، يتضح أكثر أن «ماستريخت» هى السبب الرئيسى لكوارث الزراعيين، بترك بعض الأراضى دون زراعة، ولكوارث العمال بتخفيض مستواهم المعيشى بدعوى تشجيع التنافس الأوروپى، مما يؤدى إلى تصفية صناعاتنا، من الطيران إلى المعلوماتية، ويؤدى إلى الاستهزاء بثقافتنا بغزو السينما الأمريكية والتليفزيون الأمريكى، وبأن يصبح جيشنا احتياطيا للتدخلات الأمريكية.

إن معاهدة «ماستريخت» تعلن أن أوروپا لا تستطيع أن تكون سوى «ركيزة أوروپية لحلف الأطلنطى».

وفى الاقتصاد، تنص المادة ٣٠١ من القانون الأمريكى على حماية منتجاتها الخاصة، بينما «الجات» (الذى أصبح يسمى منظمة التجارة العالمية) يفرض على الآخرين التبادل الحر الذى يفتح كل الأبواب أمام الواردات الأمريكية.

وهكذا، فإن قوانين «هلمز - برتون» عام ١٩٩٦، وقوانين «دماتو - كنيدى»، والتى صوّت عليها الكونجرس الأمريكى وحده، تزعم حقها فى أن تفرض نفسها على كل المجتمع الدولى، بأن تمنع أى تجارة مع البلاد التى تحددها أمريكا بمفردها. وهكذا، أصبح القادة الأمريكيون يشرّعون للعالم بأسره.

إن «مقاومة» جديدة تعنى إلغاء ماستريخت، بل الانسحاب من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، ومن كل المنظمات التى أصبحت أداة الرغبة فى الهيمنة العالمية.

ثانيا: إنشاء علاقات جذرية جديدة مع العالم الثالث، وتشجيع شعوب أوروبية أخرى للسير فى الطريق نفسه:

١- إلغاء الديون إلغاءً نهائيا، فليس لها تبرير أو أساس تاريخى.

٢- وقف كل معونة مالية لحكومات العالم الثالث. فمثلا: ٤٠ مليار فرنك فرنسى للتنمية، توازى ميزانية المعونة العامة لفرنسا، وهدفها الرسمى هو المعونة للدول الأكثر فقرا فى العالم، بينما ٩٥٪ من هذه الأموال ليست معونة، ولا تؤدى إلى أى تنمية، وهى فى أحسن صورها تنظف جيوب دافعى الضرائب لتملأ جيوب بعض الحكوميين (فى الشمال والجنوب). وفى أبشع صورها، تقتل.

وآخر الأمثلة على ذلك:

- فى رواندا، تمويل حكومة القتلة لإبقائها فى كراسى الحكم، ثم تمويل عملية «التوركواز» لتسهيل العبور إلى زائير حيث يأخذون بثأرهم.

- وفى الجزائر، ٦ مليارات، للحكومة التى عطلت الانتخابات دون سند شرعى. وبيع مروحيات «هليوكوبترات» لها (وهى السلاح الفعال لمقاومة العصابات).

٣- تقديم القروض العامة أو الخاصة لا للحكومات، بل تقديمها مباشرة للتنظيمات الأساسية (مثل التعاونيات، والنقابات، وجماعات المنتجين، وأحيانا لتشجيع إنشائها)، ولمشروعات الصالح العام، وخاصة

في المناطق الزراعية، وهدفها الاكتفاء الغذائى (وتشمل المعدات الزراعية، وشق الطرق، وحفر الآبار، وإقامة المدارس والمستشفيات. . . إلخ).

٤ـ أن نقبل سداد هذه القروض بالعملات المحلية (لتشجيع إعادة الاستثمار فى البلد نفسه، بدلا من نزيف الأرباح المنقولة إلى الخارج)، أو قبول سداد القروض بالمقايضة بالمنتجات المحلية.

٥ ـ تحقيق توازن نزيه لأسعار المنتجات التى تبيعها دول الجنوب مع أسعار المنتجات التى تبيعها دول الشمال.

٦ ـ الوقوف ضد توغل المنشآت العملاقة وخاصة شركات الاستثمار الكبرى، واحترام تاريخ وثقافات كل شعب، واستخدام التقنية المحلية؛ لأنها فى أغلب الأحوال أكثر تواؤما وفعالية، وتتمشى مع الحاجات المحلية.

وبذلك تكون «التنمية» «منسجمة» مع الحاجات الحقيقية، بدلاً من أن تصبح «مفروضة من الخارج»، تستلهم نموذجها من الغرب طبقا لمصالح المؤسسات الأجنبية الكبرى.

إن «إعادة تحويل» الصناعة، لتسدّ حاجات الجنوب الحقيقية، تبدأ من إعادة تحويل عقلياتنا لكى تستجيب أيضا لحاجاتنا الحقيقية بدلا من إنتاج الأسلحة ومنتجات الرفاهية وإضاعة الوقت والمادة، وألعاب التسالى.

٧ـ وبالنسبة لمصادر الطاقة، إعطاء الأولوية (ما لم يكن ذلك مستحيلا) لاستخدام الطاقات المتجددة (الطاقة الشمسية والطاقة البشرية).

فكيف يمكن الحديث عن السوق العالمية، وثلاثة مليارات نسمة من بين خمسة مليارات من البشر عاجزون عن الوفاء بديونهم؟!

فهل نقبل بحتمية هذا الاختلال العالمى، ونقبل ذلك الوضع الذى يقوم على الإقصاء والعنف والقوميات والأصوليات؟ وهل نستسلم لكل ذلك دون أن نتساءل عن أسس هذه الفوضى العالمية القائمة؟

لا بد لنا من إنشاء عالمية حقيقية بدلاً من أكاذيب «العولمة» الاقتصادية التى ليست سوى الوريث للهيمنة الاستعمارية والتى تتوحد تحت قيادة الولايات المتحدة.

خاتمـــة

الهدف من هذه الأفكار المتنوعة هو الإعداد للقرن الحادى والعشرين لنحياه كاملا. ذلك، لأننا إذا واصلنا هذه الانحرافات القائمة، فإننا نوشك على تدمير الإنسان، وقتل مليارات من البشر جوعًا فى الجنوب، وتحميله باتباع نموذج التنمية الغربى ما يوازى ضحايا هيروشيما كل يومين. تصبح الحياة بلا هدف أو أفق، مالم نوقف هذا الشرخ المتعاظم فى العالم، بتفاقم البطالة والإقصاء والعنف والمخدرات.

إن هذا الكتاب نداء للمقاومة ضد تفريغ العالم من المعنى، ونداء لتشييد عالم موحد وواحد، يتأسس على مبادئ تختلف تماما عن تلك المبادئ التى قادت الغرب بأجمعه إلى الانحطاط، وقادت العالم إلى الاحتضار. فلقد ماتت الآمال خلال النصف الأخير من القرن، نتيجة حربين مات فيها ٨٠مليون قتيل، وبعد إفلاس ثورة، قامت على أطلال الحرب العالمية الأولى، وأنعشت الآمال بعض الوقت، واستطاعت خلال الحرب العالمية الثانية دفع ضريبة البطولة والتضحيات للتغلب على العدو النازى. ولكنها خانت الاشتراكية بتقليدها نموذج التنمية الغربى، واعتمادها على بيروقراطية مركزية مستبدة مجنونة.

ولقد تحول الوهم الذى دام مائة عام بالحلم الأمريكى إلى كابوس أمريكى بسبب رغبة قادة أمريكا فى السيطرة على العالم، وبسبب

جموحها البربرى فى التسلح، وبسبب نفاق تلك «الليبرالية» الاقتصادية المفروضة على الشعوب لامتلاك أسواقها بإنشاء عدة إمبراطوريات للشر متعاقبة، تبرر إرهابها الخاص باسم محاربة الإرهاب، وتبرر «جرائمها ضد الإنسانية»:

ضد الهنود والسود والفيتناميين، والحصار المفروض على كوبا وليبيا وإيران. والعراق الذى يشهد الصليب الأحمر الآن بأن أكثر من مائتين وخمسين ألف من أطفاله قد ماتوا، فى الوقت الذى تشهد فيه أيضا منظمة «اليونيسيف» بأن طفلاً من بين ثمانية أطفال فى أمريكا نفسها لا يجدون ما يسد رمقهم.

إن هؤلاء المدافعين عن «حقوق الإنسان»، إلى جانب جرائمهم ضد الإنسانية، يسجلون الأرقام القياسية العالمية فى تعاطى المخدرات، وانتحار المراهقين، وعدد الجرائم والفساد والمسجونين والموضوعين تحت المراقبة. وتغطى السينما الأمريكية، بالديكورات الحالمة، شراهة حيتان مسلسل «دالاس»، كما تخفى حقيقة عنف ديناصوراتهم، ومدمريهم من أفلام شوازينجر. إن إعلامهم وجميع وسائله هى شعاع الموت الذى يحطم على المستوى العالمى روح النقد، بل الروح ذاتها، فى الثقافة، والأمل، والحب، عند خمسة مليارات من البشر. وهذا الكتاب مشروع يوضح أن النهضة الإنسانية، بل ومجرد بقاء الإنسانية، يستلزم بناء المستقبل على أسس أخرى.

إن كشف حساب هذا القرن لا يوضح إفلاس ماركس الذى خانوا اشتراكيته، بل يوضح إفلاس آدم سميث الذى اندفعت ليبراليته إلى نتائجها القصوى، فأصبحنا مهددين بانتحار كوكبى.

فكيف نفتح آفاقا جديدة ومستقبلا يتسم بالإنسانية بعيداً عن حقول

الأطلال التى خلفهـا التـاريـخ الحـيـوانـى للإنسان والـذى يكتـمل مع القرن العشرين؟

لا بد إذن من كشف الأخطاء فى بوصلة التاريخ الإنسانى .

فلقد كان الانفصال الأول للغرب هو ما قام به سقراط (والذى يقول عنه نيتشه إنه كان بداية الانحطاط)، وتابعاه أفلاطون وأرسطو . فلقد أفسدوا التاريخ العقلى للغرب بفلسفة «الوجود» التى كانت أساسًا لكل الهيمنة . ولقد حاولنا أن نستعيد «فلسفة العمل»، وهى فلسفة بقية الإنسانية منذ ميلاد الأداة الأولى، من المقبرة الأولى ومن الحلم الأول فى حياة خالدة إبداعية .

وكـان الانفـصـال الثـانى للغـرب هو الحروب الصليبيـة وحروب الاستيلاء ومحاكم التفتيش ضد حكمة الشرق .

وكـان الانفـصـال الثـالث لـلغـرب تلك «النهـضـة» المزعـومـة التى استخدمت الاكتشافات العلمية والتكنولوچية فى الشرق (مثل البوصلة، والبـارود، والمطبـعـة) لتـحـويلهـا إلى أدوات السيطرة على الشـعـوب والأرواح .

لقـد بدأ هذا الانفصـال عـام ١٤٩٢، مع الإبعاد الأخيـر للثقـافـات الشرقية، بالاستيلاء على غرناطة، وغزو وتحطيم ثقافات سكان أمريكا الأصليين، بالجوع إلى الذهب بدءا بكريستوفر كولومبوس .

إنهـا إذن ٢٥٠٠ سنة من فلسفة السيطرة . ولابد من تحـديهـا، وفـتح آفاق جديدة أمام الإنسان، واقتراح أن تستبدل بوحدة العالم تحت سيطرة الإمبريالية تلك الوحدة السيمفونية، ويستلزم ذلك الاستعانة بحكمة وثقافة العوالم الثلاثة لنضع الإنسانية فى الطريق الصحيح للازدهار

المتبادل لكل الثقافات، ولكى نصد المرامى القاتلة للمركزية العنصرية الغربية، ونوقف الهيمنة.

ويدعو هذا الكتاب أيضا إلى العثور على معايير أخرى للتقدم، تختلف عن معايير قوة التقنيات والثروة و« الناتج القومى »، لنعرف التنمية بازدهار الإنسان وليس بالنمو الاقتصادى.

ويفترض هذا على المستوى العقائدى أن نعطى الإنسان بعده الأساسى: وهو التسامى. على ألا يكون التسامى . . تعبيراً عن الإله الملك، الذى يحكم مصائر البشر والإمبراطوريات من الخارج ومن أعلى، ولكن أن يكون ذلك التسامى منبثقًا من عمل الإنسان الخلاق، مع الوعى بأن الله حين خلق الإنسان فلكى يكدح الإنسان لملاقاة الله متخذاً منه مثلاً أعلى. ولذلك لا بد من التخلى عن الظن الخاطئ بأن «التاريخ المقدس» إنما هو تاريخ قبيلة واحدة، ذلك أن هذا التاريخ ينبع من كل عائلات العالم، ومن كل الثقافات، وكل الحضارات، ومن الهند الأمريكية ومن إفريقيا وآسيا.

وهذا يفترض أيضا على الصعيد الجمالى، تغيير دراسة العمل الإبداعى للإنسان، حتى لا نحصر الجمال فى النماذج الغربية وحدها، والتى قدمها الإغريق وعصر النهضة فى القرن السادس عشر.

وبهذه الطريقة وحدها، يمكن للفن الخروج من قيود وحدود أرسطو، فلا نحكم على الفنون بمعايير التشريح والمنظور فى عصر النهضة وحدها، (أو مقاييس بومبى التى أعقبت كبار الرواد طوال ثلاثة قرون).

ونتحرر أيضا من القيد الآخر، لأن مجرد النفى والعصيان أدى إلى تدهور الفن المسمى «الفن المعاصر»، والذى توهم أنه يصبح فنا «حديثا»

كلما زاد جهلا بالماضى، حتى أصبح هذا الفن يشمل بعض اللوحات أو النحت مما يشبه الأراضى المليئة بالنفايات، وأصبح يثير الضجيج بدلا من الموسيقى، وحوّل الرقص إلى حركات هستيرية تخلو من أى معنى إنسانى.

ويقول أحد كبار الفنانين المجددين فى هذا القرن، ورائد التكعيبية «خوان جريس»:

«إن عظمة الفنان تتوقف على قوة الماضى الذى يحمله داخله، وليس ذلك لتقليد القدامى، أو للحفاظ على الموروث، ولكن لتجديد شعلة الرسالة التى كان أعظم حملة لوائها يعملون لإعلان الإمكانية الدائمة لتجديد إنسانية الكائن البشرى».

وهذا يفترض على الصعيدين السياسى والاقتصادى، تحطيم أصنام «العلوم الإنسانية» المدّعاة التى تتمثل طريقتها فى شفّ علوم الطبيعة، وإقامة مبادئ ـ على هذا النحو ـ تحط من قيمة الإنسان.

إن الرجل الاقتصادى الذى لا بد له من أن يكون أحد هذين النموذجين: إما منتجا، وإما مستهلكا، متحركا طبقا لأغراضه الخاصة، هو أساس قاتل يحاول «الاقتصاديون» إخفاءه عن طريق آلات حسابية وهمية؛ لإعطاء مظاهر علمية لما هو فى الواقع أيديولوچية موجهة لتنظير وتبرير نظام ظالم موجود وقائم.

إن قلب المستقبل هو إعادة البحث، والتقديم الذاتى لكل المفاهيم الأخرى للإنسان، المولودة من خلال ثقافات أخرى، وتقديم السبل لخلق ظروف وشروط تقنية واقتصادية، وسياسية وروحية للجميع، تسمح لكل كائن إنسانى (امرأة أو رجل) بأن يصبح أكثر إنسانية، بمعنى أن

يصبح «شاعرا» بالمعنى العميق للكلمة : وهو أن يصبح مبدعا للنسخة الأصلية للمستقبل المحتمل.

هذا هو الهدف الذى حددناه. إنه ليس بعد سوى إرهاصات من الاقتراحات، ليست لها طموحات أخرى سوى المساعدة لتوسيع نظرتنا للعالم ورؤيته بأكثر من منظور، حتى تكون الأرواح أكثر سعة إنسانيا وتعمل فى مجتمع من البحث والإيمان، يبنى عالما أخيرا إنسانى الاتجاه، ووصية لحياة تحاول أن تعرف نفسها،

وما يبقى مسيطراً علىّ، هو الإحساس بالقرب من نهاية حياتى الشخصية، وأن ألمح بسعادة بصيص أمل، وأضع تجارب استكشافات التصميمات الأولى لحياة جديدة للقرن الذى سيولد، والذى لن أشهده.

٣٠ من أغسطس عام ١٩٩٦

روچيه جارودى

ملحوظة: سيقوم منظرون صينيون ــ إيرانيون ــ أتراك ــ هنود ــ ماليزيون... وآخرون بعمل كتاب جماعى بعنوان «كيف نصنع المستقبل؟».

ملاحــــق

الدولارات والإنسان

بقلم: أناتول فرانس

في بداية هذا القرن، في عام ١٩٠٨، تطرق أناتول فرانس في كتابه «جزيرة البطاريق» إلى هذا العالم الخالي من الروح، عالم الحسابات السياسية الأمريكية. وذلك عندما حضر البروفيسور أوبنوبيل إحدى جلسات الكونجرس الأمريكي وسجل ما حدث.

ـ «لقد انتهت الحرب لفتح أسواق «زيلنده الثالثة» بإرضاء الولايات، وأقترح عليكم إرسال الحساب إلى اللجنة المالية..

ـ لا توجد معارضة.

لقد أخذ بالاقتراح.

ـ أحقا ما سمعت؟ (يتساءل البروفيسور أوبنوبيل) ماذا؟ أنتم، إنكم شعب صناعي! إنكم تتورطون في كل هذه الحروب!

ـ بلا شك، (رد المترجم): إنها حروب صناعية. إن الشعوب غير الصناعية التي لا تملك تجارة ولا صناعة ليست مرغمة على التورط في حروب. ولكن مصير شعب يقوم على الأعمال هو الاعتماد على الغزو. إن عدد حروبنا يتزايد بالضرورة بحجم تزايد أنشطتنا الإنتاجية!

عندما تعجز صناعةٌ عن تصريف منتجاتها لا بد من حرب، لفتح آفاق جديدة لها! وهكذا كانت لنا في هذا العام حربُ الفحم، وحرب

النحاس، وحرب القطن. لقد قتلنا فى زيلنده الثالثة ثلثى السكان لنرغم الباقين على شراء الشماسى والحمالات منا!

فى هذه اللحظة صعد رجل ضخم كان جالسًا فى وسط المجلس إلى المنصة، وقال:

ـ أنا أطالب بحرب ضد جمهورية «الزمرد» التى تنافس ـ بوقاحة ـ هيمنة لحم خنازيرنا ومنتجاتنا من السجق فى كل أسواق العالم.

ـ من هذا النائب؟ (تساءل البروفيسور أو بنوبيل).

ـ إنه تاجر خنازير.

ـ لا توجد معارضة؟ (سأل رئيس المجلس). سأعرض الاقتراح للتصويت. لقد قبل المجلس اقتراح الحرب ضد جمهورية«الزمرد» بأغلبية ساحقة.

ـ كيف (سأل البروفيسور أو بنوبيل المترجم) تصوتون على حرب بهذه السرعة وبعدم اكتراث؟!

ـ أوه! إنها حرب بلا أهمية، لن تكلفنا سوى ثمانية ملايين دولار بالكاد.

ـ والرجال؟!

(إن المبلغ يشمل ـ أيضا ـ الرجال)!!».

(أنا تول فرانس.« جزيرة البطاريق»، الناشر: كالمان ـ ليفى ـ ١٩٠٨، الكتاب الرابع الفصل الثالث)

مقاومة، أم إرهاب؟!

الحملة الصليبية الأخيرة للسيد كلينتون ضد الإرهاب:

فى الخامس من أغسطس، وقع الرئيس كلينتون قانون «دماتو - كنيدى» معلنا وضع إيران وليبيا خارج القانون الدولى[1]. ولقد كان مهتما أيضا بأن يكون محاطا أمام كاميرات التليفزيون بأقرباء ضحايا طائرة شركة پان أميركان التى أسقطت فوق لوكيربى، فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٨٨، والتى حُمِّلت ليبيا مسئوليتها، برغم وجود تقارير تنفى هذا الزعم.

لقد أعلنت واشنطن بهذا الاحتفال الرمزى والمعبر فى آن واحد عن سياستها عن بدء الحرب من الآن فصاعدا على الإرهاب - «العدو الأكبر» - لقد تأثر الرأى العام بهذا الموضوع، وأصبحت الدول المتهمة بالمسئولية العدو الجديد للولايات المتحدة. ولبدء المعركة، تحددت الأسلحة المستخدمةُ، وهى: المقاطعة الاقتصادية، والحصارُ إن أمكن. وعلى الرغم من أن القرارات الأحادية للولايات المتحدة الأمريكية تعد انتهاكا صريحا للمبادئ الأساسية للمنظمة العالمية للتجارة، فقد تم تطويعها لصالح التدخل الأمريكى كل مرة حسب التزامها الخاص على الصعيد الدولى.

تعدُّ مكافحة الإرهاب الدولى أحد أهم الركائز فى السياسية الخارجية للرئيس الأمريكى، وستتطرق إليها الديبلوماسية الأمريكية كلما دعت

الحاجة إلى ذلك، مثل وسيلة انتخابية لجذب أصوات أربعمائة ألف أمريكى من أصل كوبى، يعيشون فى فلوريدا ويعارضون الحكومة الكوبية، وذلك بإصدار قانون «هلمز ـ برتون» لحصار كوبا[٢].

« سيكون الإرهاب أحد أخطر التهديدات المؤثرة الموجهة ضد أمننا فى القرن الحادى والعشرين»، كما أكد الرئيس وليم چفرسون كلينتون عشية أحد المؤتمرات فى الثلاثين من يوليو عام ١٩٩٦، أمام وزراء الخارجية والداخلية للدول السبع الصناعية. لقد تطور هذا الموضوع تطورا مرحليا فى تقارير وزارة الخارجية الذى نشر عن الأنشطة الإرهابية فى العالم. كما قام بالتعريف باتجاهات السياسة الأمريكية فى هذا الشأن. ومن قراءته تظهرُ ثلاثُ نقط رئيسة:

أولا: أن الإرهابيين ليسوا سوى مجرمين، وبالتالى لا يمكن إقامة أىِّ اتفاق معهم. ثانيا: يتعين أن نلاحقهم حتى نوقع عليهم الإدانات الأكثر قسوةً. ثالثا: ينبغى أن نفرض ضغوطا هائلة على الدول التى تتحاورُ معهم، وتمدهم بالسلاح والدعم المالى والمساعدات العينية. واستمرار الضغط عليهم بشتى الأساليب الممكنة، السياسية والديپلوماسية والاقتصادية، إلى أن نصل إلى أساليب أخرى أكثر فاعلية.

فى هذا الترتيب المحدد، لم يؤخذ فى الاعتبار أى سياق جماعى أو قومى، أو إقليمى، أو حتى سياسى أو عسكرى. كما لم تقترح أى أجوبة لهذا السؤال الذى طرحته فى مارس عام ١٩٩٦ مجلة «الاقتصادى The Economist»: «الإرهاب ليس بالظاهرة البسيطة، واضحة المعالم، أو ليس عملا يأتى به صبية أشرار نميل جميعا إلى إدانتهم. من ذا الذى يكون

إرهابيا أو لا يكون: واضع قنبلة انتحارية، أم أفراد الفصائل المتمردة، أم جبهة التحرير، أم القوى العسكرية للدولة[٣]؟».

على أي حال، هذا هو المفهوم الذى تريد إدارة كلينتون إخفاءه وتدعى «الموضوعية». وبطريقة ما، تقدم الإدارة الأمريكية سياستها على أنها استكمال للمعركة الخالدة «للخير» ضد «الشر». فبأى حق تريد تلك الإدارة فرض تحليلها ومصالحها على العالم؟ إنها تستوحى سياستها من اهتماماتها الانتخابية. ذلك الهدف الحقيقى هو الانتخابات، ثم تضفى عليه صفة إحقاق الحق وحماية «الخير».

ولعل ما يعبر عن ذلك هو قائمة الدول التى حددتها الولايات المتحدة كراعية للإرهاب: إيران، وليبيا، والسودان.

بغض النظر عن توجهات حكومات وحكام الدول الثلاث، فإننا نرى بنظرة تاريخية شاملة أن التغيير السياسى الذى حدث فى تلك البلدان الثلاثة قد أنهى بشكل أو بآخر السيطرة الأمريكية المفروضة على تلك البلاد قبل قدوم الأنظمة الجديدة فى هذه البلاد: ثورة عام ١٩٦٩ فى ليبيا أغلقت القواعد العسكرية الأمريكية والبريطانية على أراضيها. فى عام ١٩٨٥ قُلب نظامُ النميرى الديكتاتورى فى السودان حليف أمريكا الدائم والذى استمد منها قوته لسنوات عديدة. وفى عام ١٩٧٩ سقط نظام الشاه الذى كانت أمريكا تسبغ عليه شكلا من أشكال الحماية.

ويُعد غياب بعض البلاد عن القائمة تعبيرا عن السياسية الأمريكية، كالعراق الذى كان فى القائمة، إلى أن قرر الرئيس صدام حسين إبان الحرب العراقية - الإيرانية أن يقود تقاربا مهما مع الولايات المتحدة

الأمريكية، التى قررت دعم وتدعيم علاقاتها الاقتصادية والديبلوماسية مع بغداد. وإسرائيل، التى تقوم مخابراتها وأجهزة أمنها باغتيال الخصوم خارج الحدود، لم تدخل القائمة.

هذه الأمثلة وغيرها تظهر أن الحملة الأمريكية المعادية للإرهاب تعدُّ ـ قبل أى شىء آخر ـ جزءا من نسيج السياسة الخارجية الأمريكية والتى ترسمُ الخطوط العريضة لتلك الحملة التى تهدف لحماية المصالح الأمريكية أولاً وأخيراً.

فى الأشهر الأخيرة الماضية، أعطى البيت الأبيض لتلك الحملة بعدا استعراضيا عالميا، بدءا من مؤتمر شرم الشيخ، فى ١٣ من مارس عام ١٩٩٦، عقب انفجارات القدس وعسقلان وعشية الأزمة اللبنانية ـ الإسرائيلية، ثم اجتماع «القمة» لرؤساء وزارات الدول السبع الصناعية الكبرى، فى ليون فى شهر يوليو عام ١٩٩٦. عقد مؤتمر شرم الشيخ على عجل ليدعم بكل قوة فرص شمعون پيريز، كرئيس للوزراء قبيل الانتخابات الإسرائيلية التى جرت بعد ذلك ببضعة أسابيع. وقد أرادت الحكومات المشتركة فى المؤتمر التسابق والتسارع فى إصدار البيانات المندِّدة بالإرهاب بطبيعة الحال. لكن الرئيس كلينتون أراد الاستفادة من الرياح المواتية لإدانة إيران بالاسم كمسئولة عن الإرهاب فى المنطقة. وقد جاء ذلك على لسان الحكومة الإسرائيلية التى كثيرا ما كررت هذا الاتهام. ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الإدارة الأمريكية تريد إقامة تحالف مماثل لتحالف حرب الخليج موجه هذه المرة إلى إيران. لقد اعتبرت الولايات المتحدة إيران عدوتها الأولى كالعراق قبل ست سنوات.

لقد أكدت قمة ليون ذلك أيضا . فقد أراد الرئيس كلينتون أن يجعل مسألة الإرهاب، كما حدث فى شرم الشيخ، المسألة الرئيسية فى مؤتمر القمة للدول الصناعية الكبرى فى يونيو عام ١٩٩٦ . ومن جديد، اعترض قصر الإليزيه لكى لا يهمل أو يقلل من شأن باقى القضايا الأخرى المعدة للبحث والتشاور .

فى هذه المرة ألقت واشنطن الكرة فى ملعب باريس . ففى أثناء العشاء الذى جمع رؤساء الدول ورؤساء حكومات الدول الصناعية السبع الكبرى، تمت صياغة بيان «بالإجماع» عن الإرهاب. كان البيان طبيعيا، إلا أن تلك الوثيقة التى وصفت بطبيعة الحال الإرهاب «بالتحدى الأعظم لمجموع مجتمعاتنا ودولنا»، اختصت بالإدانة عملية النسف التى حدثت فى ٢٥ من يونيو عام ١٩٩٦ ضد مساكن الأمريكيين فى قاعدة الخبر العسكرية الأمريكية، ووصفتها الوثيقة بأنها «عمل بربرى، غير مبرر» . كما عبرت ـ أيضا ـ عن كامل «التضامن» من الموقعين عليها مع الولايات المتحدة والسعودية .

وهكذا، أعلنت مجموعة الدول السبع الصناعية الكبرى ضمنيا عن دعمها للمصالح العسكرية الأمريكية فى الشرق الأوسط، وبالأخص فى الخليج، على الرغم من أن هذا التدخل يعتبر مرفوضا من كل القوى السياسية والاجتماعية فى المنطقة، ويوصف بأنه مرفوض لكونه غير متوافق مع استقلال بلادهم. وهنا أيضا، عرضت حلقة من مسلسل التخطيط الإستراتيچى عالى المستوى الذى تخفيه حملة «مواجهة الإرهاب» والتى يقود الأوركسترا فيها البيت الأبيض، بحنكة عظيمة واقتدار أيضا فى اقتناص الدعم من شركائه الدوليين .

وقد جاء غياب أى إدانة ظاهرة أو اسمية للدول المعينة كراعية للإرهاب، بطريقة أدت إلى رفض الدول الأوروپية الالتزام بمواد قانون «دماتو - كنيدى». وكذلك رفضت شركاتها قبول قانون «هلمز - برتون» الذى يفرض عقوبات على كوبا. هذه المقاومة لا ينبغى أن يبالغ فيها بالطبع: فأوروپا لم تتخذ أى إجراء رادع، فالاتجاه العام كان يقود إلى محاولة تقليص مساحة الاختلاف الأوروپى - الأمريكى، وتحاشى كل ما يمكن أن يؤدى إلى بداية دائرة من الصراع المالى والتجارى.

فقد أشار المتحدث الرسمى لوزارة الخارجية نيكولاس بامز، بعد ساعات من توقيع الرئيس الأمريكى كلينتون قانون «دماتو - كنيدى»، إلى إدانة المصالحة الفرنسية الإيرانية: **« لقد أخذت شركة «توتال» مكان الشركة الأمريكية «كونوكو»، واستولت على عقد كان يمكن أن يكون فى غاية الأهمية «لكونوكو». نريد أن نعاقب الشركات التى ستحذو هذا الحذو فى المستقل»**.

بعد هذا التهديد، ستخشى الشركات الأوروپية فى المستقبل نتائج هذا القانون، حتى ولو أثارت عدم ضرورة الامتثال له بناء على استقلالية حكوماتها. فلن تنجو من القمع الأمريكى إذا تم توسيع مشروعاتهم الاستثمارية لتطوير إيران أو ليبيا - التى يأتى منهما ٢٠٪ من تموين الطاقة الهيدروكاربونية للاتحاد الأوروپى. وعلى العكس تقل أهمية تلك البلاد لدول كالصين أو دول شرق آسيا، فهى أقل حساسية.

لقد حددت الحملة «المواجهة للإرهاب» عدوها الرسمى بصفة مستمرة: وهو الإسلام الأصولى، أو الاحتجاجى، أو الثورى، الذى يرى المثال والنموذج فى إيران.

هذا الاتهام الخاص الموجه، لايتوافق حتى مع السمات المميزة والصفات المحددة فى الجرائم الإرهابية.

لا يوجد أى شيء يؤكد تورط إيران فى حادث أوكلاهوما سيتى، الذى نفذته مجموعة من اليمين المتطرف فى ١٩ من إبريل عام ١٩٩٥، وحادث التاسع من أكتوبر عام ١٩٩٥ ضد قطار ميامى ــ لوس أنچلوس، والذى أعلنت جماعة مسماة «أبناء الجوستافو» مسئوليتها عنه، كذلك حادث دكتور الرياضيات الذى أسمى نفسه «أونابومبر» والذى كانت هوايته إرسال الطرود المفخخة، أو حتى موضوع الرجال الأحرار «فريمن» الذين قاوموا رجال الشرطة واحدا وعشرين يوما فى خريف عام ١٩٩٦ فى أحد مزارع مونتانا. وكل هذا لا يمنع أن تكون الأصولية الإسلامية بالنسبة لأمريكا هى المتآمرة الأولى والممثلة للإرهاب.

معارضة القوى السياسية الأمريكية لمفهوم الأصولية الإسلامية لا تتفق بطريقة أو بأخرى مع تقاليد السياسة الأمريكية، بل على العكس من ذلك.

حسب التسلسل التاريخى، وضعت الولايات المتحدة قدمها فى الشرق الأوسط عن طريق العربية السعودية، حيث كانت مصالحهم البترولية بين الحربين العالميتين فى غاية الأهمية، ومنذ ذلك الوقت لم تكف واشنطن عن معاملة السعودية كشريك متميز فى المنطقة. ومن المعروف أن السعودية ـ ولو بنظرة من أبعد مكان ـ هى أحد أكبر الأنظمة الإسلامية، ومذهبها هو الأكثر أصولية.

لقد حمت الولايات المتحدة الأمريكية بشدة الديكتاتور الرئيس جعفر النميرى فى السودان، وتعاونت معه تعاونا وثيقا، وهو الذى كان أول

من شرع فى تطبيق الشريعة الإسلامية على كل تشريعات الدولة فى إفريقيا بأكملها .

كما اختارت كحليف أساسى فى جنوب غرب آسيا نظام الرئيس ضياء الحق، الذى كان مشابها للنميرى .

هذا إلى جانب ما لا يمكن نسيانه من مساعدة وتدريب وتنظيم للمنظمات التى واجهت الاتحاد السوڤيتى فى أفغانستان، والتى استوحت فكرها من الإسلام الأكثر أصولية .

قد نعتبر مخطئين إذا أسأنا تقدير تأثير هذه الوقائع فى تطور الأنشطة الإرهابية فى السنوات الأخيرة، وفى مقدمتها نتائج الحرب الأفغانية . لقد جاء ما لا يقل عن خمسة عشر ألفا من الرجال مما يقرب من اثنتى عشرة دولة، للقتال إلى جانب الفصائل والمنظمات الإسلامية الأفغانية . لقد تدربوا فى نفس المعسكرات وتعرضوا وتأثروا بالأيديولوچيات السائدة فيها . وبذلك كونوا فى آخر المطاف عديدا من المنظمات التى توجه للتصرف على مسارح أخرى للعمليات، وتحتفظ فيما بينها بعلاقات حميمة ومباشرة أو غير مباشرة .

مع هذه المسلسلات المعبرة عن الطابع الاحتمالى، وأيضا الملتبس، للسياسة الأمريكية تجاه ظاهرة الإرهاب، فإن العداء الأمريكى للأصولية الإسلامية، باتهامها كمحرك «للإرهاب»، يتحرك حسب إرشاد سياسى وإستراتيجى معروف : الرغبة فى ذبح أو إضعاف النظام الإيرانى، ومواجهة حماس وحزب الله اللذين يشتركان فى صراع مع إسرائيل .

عند الاستماع إلى الخطاب الأمريكى لمواجهة الإرهاب، يجب معرفة وسائل إخباراتها.

(مقاطع من مقال: «الحملة الصليبية الأخيرة للرئيس كلينتون ضد الإرهاب»، حررها پول - مارى دى لاجورس فى «لوموند ديپلوماتيك»، فبراير عام ١٩٩٧، ص ١٥)

---

(١) يهدد القانون بحرمان الشركات التى تستثمر بأكثر من أربعين مليون دولار (أى ما يقرب من مائة وستة وثلاثين مليون جنيه مصرى) من كل التأمينات المقترحة للاستيراد والتصدير، وكل إذن للاستيراد للشركة، ومن أى قرض أو حساب بأكثر من عشرة ملايين دولار (٣٤ مليون جنيه) للمؤسسات المالية الأمريكية، ومن أى عمل كوكيل أو عمل كمصرف أعمال لصالح الحكومة الأمريكية، ويمنعها أيضا أى إمكانية لتوقيع أى تعاقد مع الحكومة الأمريكية، ومن أى توريد أو تصدير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلخ...

(٢) يدعم هذا القانون العقوبات والحصار المفروض على كوبا. كما يسمح بالإضافة إلى ذلك لمواطنى الولايات المتحدة وذوى الأصول الكوبية منهم والذين أممت الحكومة الكوبية أملاكهم بمواصلة النزاع القضائى، بطريقة تسمح لهم بالتدخل فى أى عملية نقل أموال تمر على الولايات المتحدة الأمريكية تكون تابعة لشركاتهم القديمة.

(٣) ذكرها أندريه فونتين فى لوموند.

لا هوت الهيمنة الأمريكية

بقلم: يوهان جالتونج

صرح الرئيس تافت(*) فى عام ١٩١٢ :

«يجب أن نحمى شعبنا وأملاكه فى المكسيك، إلى أن تفهم حكومة المكسيك بأن هناك إلها فى إسرائيل، وأن الواجب يحتم طاعته».

هذه العبارة شائعة الانتشار: **«إسرائيل مملكة الله الجديدة على الأرض»**. ظهرت برواج فى التاريخ الأمريكى منذ ما يفلاور وإقامة مستعمرة پلايموث (١٦٢٠).

تاريخ جميل وقوى. شعب فى المنفى، شعب صغير، هارب من السيطرة القمعية وباحث عن بداية جديدة. تستدعى للذاكرة علاقة يهوه مع شعبه المختار على جبل سيناء: لقد أعطى يهوه لليهود فى المنفى مكانة خاصة، «الأمة المفضلة»، اليهود هم «الشعب المختار» بأرض موعودة. كما وعدهم - إذن - بأن لهم دورا مهما لقيادة شعوب أخرى.

كذلك اعتبر الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية الپيوريتانيون

(*) الرئيس الثانى فى القرن العشرين للولايات المتحدة الأمريكية.

(المتطهرون) أنفسهم شعبا مختارا منذ قرون بقراءة الكتاب المقدس، ليس فقط من قبل يهوه، ولكن أيضًا من خليفته الربِّ المسيحيِّ.

لماذا لا تكونُ هذه الأرض إذن الأرض الموعودة، ويكونون هم ـ بذلك ـ النور والإرشاد للشعوب الأخرى، لأنهم الشعب المختار من الله؟

لكن الأرض الموعودة لم تكن قفرا.

الفكرة الرئيسية هى أن الله يساعد المختار، أما نجاحُه فلا يبدو لنا مبررًا فى عيون الرب فحسب، بل والطرق المستخدمة لتحقيق هذا النجاح يجب أيضا أن تكون مبررة.

وكما أعطى العهد القديم تشبيها يتماشى مع البيوريتانيين الأوائل فى تنكيلهم بالهنود، أعاد هؤلاء البيوريتانيون بدورهم، إسقاط التشبيه الذى ينسجم وتنكيل الإسرائيليين بالفلسطينيين.

هكذا اتفقا على تكوين جبهة ضد الإسلام. إن الاقتناع بكونهم الشعب المختار، قد سبقه الاقتناع بأن الولايات المتحدة هى الأمة الأقرب إلى الله من أى أمة أخرى، وذلك موضح على شعارهم المدون على كل دولار: «In God We Trust» (إننا نثق بالله).

من ثم، فإن الدولة الأقربَ إلى الله هى ـ أيضا ـ ممثلة الله على الأرض طبقا لثلاث خصائص رئيسية، من صفات الله: امتلاك كل العلوم، والقوة الشاملة، والإحسان.

بالتالى، يعنى هذا رقابة إليكترونية على العالم، وعلى الذين يُشك فى كونهم ممثلى الشر وحملته.

وتستأثر الولايات المتحدة لنفسها بمعرفة من يدخلون تحت هذا التصنيف. فلا توجد محاكمة لهم، بما أن الولايات المتحدة تحتكر مسألتى الثواب والعقاب، بالإضافة لحق الادعاء. هكذا تمارس هيمنة ثقافية وتمتلك قوة اقتصادية وعسكرية تحت إدارة البنتاجون وجهاز الاستخبارات (C.I.A) لتنفيذ أحكامها.

تستحق «إمبراطورية الشر» أن تُسحَق حتى تعود إلى العصر الحجرى، إنه لواجب.

أى ديانة يمكنها التفوق على الإيمان اليهودى - المسيحى؟

أى أيديولوچية يمكنها التفوق على الليبرالية المحافظة فى طبعتها الرأسمالية؟

لا يمكن حتى لمنظمة سوپر عالمية أن تكون فوق الولايات المتحدة.

وهذا يعنى بالنسبة إلى الأمم المتحدة ألا تكون سوى وسيلة للولايات المتحدة لتنفيذ هيمنتها على العالم بأسره.

وتحتل الولايات المتحدة القمة فى تسلسل الأمم، وهى محاطة بمن يمثلون مركز العالم: الحلفاء الذين تنطبق عليهم سمتان أو السمات الثلاث الخاصة: اقتصاد سوق حرة، إيمان بالله يهودى - مسيحى، انتخاب حر.

على الكفة الأخرى لهذا العالم الموزع بين الخير والشر، إمبراطورية الشر وتتمثل فى البلدان التى لا تتبع اقتصاد سوق حرة، ولا إيمانا يهوديا مسيحيا، ولا ديموقراطية على الطريقة الأمريكية.

فللولايات المتحدة اتحاد مع الله، وتتحالف الأمم الأخرى معها من موقع التبعية لها والخضوع، كالعلاقة بين الأطراف والمركز. فالأمم الغربية ملك الولايات المتحدة، والولايات المتحدة فى حلف مع الله . .

هذا هو اللاهوت المستتر للسياسة الخارجية لأمريكا.

يوهان جالتونج

«السياسة الخارجية للولايات المتحدة

حسب العوامل الدينية واللاهوت»

معهد الصراعات الشاملة والتعاون

(مقال رقم ٤ سنة ١٩٨٧).

موعظة طاحونة الشيطان

يختلط تطور الاقتصاد مع تطور الإنسان فى هذا النظام، ونوضحه عبر «موعظة» اقترحها كتاب مليڤان حول : « تكلفة التنمية» . سندعوها : «موعظة طاحونة الشيطان» .

فى أحد البلاد «المتقدمة جدا»، سارت الحكومة فى اتجاه اليمين، وتمشيا مع الحرية الشخصية، سمح للأفراد بحمل السلاح . وشهدت صناعة الأسلحة الخاصة رخاء غير مسبوق . وتنافس المنتجون فى السوق الحرة بخيال وإعلانات هائلة لنشر وتوزيع عدد غير معروف ولا نهاية له من المسدسات والمترو ليوزات والبندقيات الآلى منها واليدوى، من الطراز الفاخر، حتى الطراز الشعبى، الذى يمكن أن يكون فى متناول الجميع . ومن الأسلحة كاتمة الصوت، حتى الأسلحة المسماة بـ «الرادعة»، والتى يفضى الانفجار الذى تسببه إلى سحق المعتدى المحتمل دون تعيين هدف خاص .

إن حرية الاختيار أمام المستهلك مؤمّنة .

وأصبحت السوق فعليا غير محدودة، لأن العصبية التى تسببها ضغوط العمل، والزحام فى المدينة، ومعارضة «القيم المقدسة»، عبر

الإثارة الإباحية أو المادية، جعلت الرجال - حتى المسالمين منهم - بل النساء - حتى الأقل جمالا وغير المرغوب فيهن - جعلتهم كلهم يحملون على الأقل سلاحا أو سلاحين ناريين والعديد من الذخائر. وفضلا عن ذلك، وصل ارتفاع «مستوى المعيشة» إلى أعلى معدلاته، بفضل التوسع الملازم لهذه الإثارة الاقتصادية. وسمحت لكل فرد بشراء العديد من الأسلحة . لقد مضى عصر الندرة والبؤس الآدمي.

لقد ولدت صناعاتٌ جديدة، وهي تؤكد هذه الديناميكية الحيوية الرائدة، ومنها: صناعة السترات الحامية من الرصاص، الخوذ، أحذية ذات شبك معدني، أقنعة واقية من الغاز، هياكل سيارات مصفحة، زجاج مضاد للرصاص وشرّاعات من الصلب للمنازل.

«الطفرة» في صناعة الحديد، هي مؤشر صحة الاقتصاد القومي. لقد انفجرت روح المبادرة عند المعلنين عن الصناعات، وظهرت قيم الشركات الخاصة، دليلا للفكر الثاقب للحكام. تلك الغبطة وهذا السرور اللذان أحدثهما هذا الرخاء أنهيا كل الأحزان.

كما استقبلت كل فروع النشاط القومي نبضات منعشة: إنه العصر الذهبي لشركات التأمين، وللعيادات الخاصة، والمعامل الدوائية التي تلبي - بالكاد - طلبات المهدئات التي لا تنتهي. إنها سوق مضمونة، فالعروض لا تنتهي للشباب حتى للخاملين فيهم، إذ لهم فرصة عظيمة بل مضمونة لإيجاد أعمال مربحة وبنزاهة، ولا تتطلب سوى معرفة سطحية لبعض الأشياء، ككيفية نقل الموتى أو جمع المصابين.

يتم نقاش الميزانية، لهذا الاقتصاد المتنامى، حسب منطق «رد الفعل» الذى أخرج العلوم المستفيدة من «نتائج» التسليح الخاص غير المباشرة: فالاستهلاك العالى للحديد وما تنتجه المناجم، وجه الاقتصاد إلى البحث والاستكشاف فى المواد المركبة الأشد صلابة والأكثر مقاومة، من أجل صناعة الدروع، مما أنتج تقدما هائلاً فى صناعة المقذوفات. وكما قال أحد أبرز خطبائنا البرلمانيين فى هذه المناسبة: إن بوابة التقدم انفتحت إلى ما لا نهاية!

كما استشرف الطب والطب النفسى والجراحة، آفاقا عظيمة واستعراضية عبر شفائهم لأمراض مجهولة وجديدة: لقد عبروا بر الأمان بالدروع المحكمة التى غيرت مفهوم التغيرات الفيسيولوچية والسيكولوچية. وذلك التغيير الخاص بالسلاح، شجع على استكشافات فى مناخ الاضطراب والعدوانية، مما سيؤثر فى مستقبل علم النفس.

يا له من تغيير فى الثقافة، وبخاصة فى العلوم الإنسانية! لقد انفتح علم الاجتماع الإيجابى أمام ذلك؛ لاستخدام وسائل وقواعد جديدة بلا نهاية، لأنها تلعب دورا محركا ورائدا فى وصل العلوم المتعددة، ووسائل البحث المتباينة «المسدسية». وعلماء الإحصاء أتقنوا تكنيك الحساب العاقل الرزين، كما استطاعوا أن يحسبوا تاريخ اليوم، الذى سيصل فيه حجم ووزن الأسلحة إلى التساوى مع حجم الأرض. لقد حسب أحد العلماء البارزين السابقين أنه فى عام ـ حدده بعد بضع سنين ـ

لن تترك زيادة السكان لأى فرد أكثر من متر مربع واحد فى الكون. أما اليوم فقد اختلف الأمر تماما، وانقلبت الآية وظهر «قانون اللوغاريتمات» للإبادة، والذى سمح بالتنبؤ باليوم الذى سيكون فى مجال النظر للرجل الأخير فى العالم، قلب جاره، وسيتمكن من إطلاق الرصاص القاتل عليه. من هذا المنظور العلمى، أصبحت «المستقبلية» الإيجابية للمسدساتية ملكة العلوم، وتمتاز بالشدة والصرامة والدقة، كالفيزياء أو علم الصوتيات اللغوية.

« مؤسسة راند» ومنافسوها ممن يمتازون بخبرة كبيرة فى «نظرية الألعاب» الإستراتيچية، يلعبون دورهم الرائد كمستشارين وأنبياء لدى كبار مديرى صناعة الموت.

لقد توصل أحد باحثينا ـ وربما يكون أحد أعظم عباقرة قرننا هذا، لما يمتاز به من بعد نظر ـ إلى اقتراح جديد يغير أسلوب العمارة والإنماء، والفن بصفة عامة، لكى يتناغم مع عصر «المسدساتية»: شوارع منحنية لتخفيض مرمى التراشق بالرصاص. ومن هنا ، قامت «الثورة» فى عالم الأشكال والتى نهضت على تلك الضرورة الأساسية. هكذا، بفضل الالتصاق الداخلى للنظام، الذى ميز كل الحضارات الكبرى فى ذروتها، وبزغت ثقافة مبدعة جديدة، كلاسيكية جديدة ستزدهر. وذكّرت الحكومة بزهو شرعى وبافتخار بالآفاق، كل مرة يتم فيها تقييم للتوسع الذى شجعت عليه: معدل نمو أعلى من أى دولة أو بلد آخر، مصحوب بكل نتائجه: عملة قوية، والعمل للجميع، وميزان المدفوعات رائع بكل

المقـاييس ورابح ، والغـزو للأسـواق الأخـرى لاينتـهى من أجل تصـدير السلاح ، لأن الإشباع الداخلى لمنتجاتنا «المسدساتية» والنارية ، جعلت أسعارنا منافسة للغاية .

قد تضاعف الناتج القومى الصافى للفرد ، فى عشر سنوات . وتبرز كل المؤشرات صحة وقوة الاقتصاد وتوحده . لقد تم استكمال كل أحلام الاقتـصاد والتنمـية . ويمكننا بكل عـدالة أن نطالـب بحـقنا فى الهـيمنة العالمية ، ليس فقط بفضل ثرائنا وقوتنا ، ولكن بفضل حكمتنا .

(من كتاب «البديل» لجارودى الناشر لافون ١٩٧٢ من ص٧١ إلى ص ٧٤)

أعمال روچيه جارودى
والدراسات التى تناولته

● أولا: أعمال روچيه جارودى:

١ ـ تاريخ الماركسية:

(أ) المصادر:

ـ المصادر الفرنسية للاشتراكية العلمية. دار الأمس واليوم ١٩٤٩، ترجم إلى البولندية والألمانية واليابانية.

ـ الله قد مات. دراسة حول هيجل، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ترجم إلى الألمانية والإسپانية (الأرچنتين) والبرتغالية ١٩٦٢.

ـ فكر هيجل. دار بورداس. ترجم إلى الإسپانية والبرتغالية والألبانية واليونانية.

(ب) الكلاسيكيات:

كارل مارس. دار سيجير ١٩٦٥. ترجم إلى إحدى عشرة لغة: التشيكية، الرومانية، الإنجليزية (الولايات المتحدة)، المجرية، البرتغالية (البرازيل)، الإسپانية (المكسيك)، الألمانية، اليونانية، الإيطالية، اليوغوسلافية، والعربية (لبنان)، أعيد طبعه في فرنسا في عامى ١٩٧٢و ١٩٧٧.

٢ ـ مشكلات الماركسية:

ـ النظرية المادية للمعرفة. المطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٥٣. ترجم إلى التشيكية والروسية واليابانية والألمانية.

ـ الحرية . المطبوعات الاجتماعية ١٩٥٥ . ترجم إلى الرومانية واليونانية والسلوفاكية والألمانية والبلغارية والإسپانية (كوبا) والڤيتنامية .

ـ آفاق الإنسان . المطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٦١ . ترجم إلى العربية والإيطالية والإسپانية (الأرچنتين) والپولندية والبرتغالية (البرازيل) الطبعة الفرنسية الرابعة ١٩٦٩ .

ـ ماركسية القرن العشرين . دار بلون ١٩٦٦ . ترجم إلى النرويجية والإنجليزية (الولايات المتحدة وإنجلترا) والتركية والتشيكية والألمانية والإسپانية واليابانية والرومانية .

ـ من أجل نموذج فرنسي للاشتراكية . الناشر جاليمار ١٩٦٨ .

ـ هل يمكن للمرء أن يكون شيوعيا اليوم؟ . مطبوعات جراسيه ١٩٦٨ . ترجم إلى الإسپانية والألمانية والبرتغالية والإيطالية والصربية .

ـ منعطف الاشتراكية الكبير . دار جاليمار . ترجم إلى اثنتى عشرة لغة : الألمانية والصربية والبرتغالية والإنجليزية والسلوفاكية والتركية ، السويدية واليابانية والإسپانية واليونانية والإيطالية .

ـ الماركسية والوجودية . دار بلون ١٩٦٢ . ترجم إلى الألمانية والإسپانية (الأرچنتين) والبرتغالية (البرازيل) واليابانية والإنجليزية (الولايات المتحدة الأمريكية) .

ـ أسئلة موجهة إلى سارتر . مطبوعات الوضوح «كلارتيه» ١٩٦٠ ترجم إلى المجرية والروسية .

ـ براغ ١٩٦٨ الحرية المعلقة ، فايار ١٩٦٨ . ترجم إلى الإيطالية والبرتغالية (البرازيل).

ـ الحقيقة التامة. جراسيه ١٩٧٠ . ترجم إلى الإيطالية والألمانية والسلوفاكية والبرتغالية (البرازيل) والإسپانية (ڤنزويلا) والإنجليزية (نيويورك) والهولندية والفلندية والسويدية واليونانية والصربية.

ـ تذكر ! (تاريخ مقتضب للاتحاد السوفيتى). مطبوعات «لوتان دى سيريز» « زمن الكريز» ١٩٩٤ .

٣ـ الدين:

ـ الكنيسة والشيوعية والمسيحيون. المطبوعات الاجتماعية ١٩٤٩ . ترجم إلى البولندية والمجرية والسلوفاكية والروسية.

ـ من الحرمان الكنسى إلى الحوار . «بلون» ١٩٦٥ . ترجم إلى عشر لغات: الألمانية والهولندية والإنجليزية (الولايات المتحدة وإنجلترا) والتشيكية والإسپانية والبرتغالية (البرازيل) والپولندية واليابانية.

ـ محو حتمية التاريخ . مركز الدراسات البروتستانتى چينيڤ ١٩٧٣ .

ضد الأصولية :

ـ أصوليات . مطبوعات پيير بيلفون . ترجم إلى العربية والتركية والإسپانية ١٩٩١ .

ـ هل نحن بحاجة إلى الله . مقدمة بقلم الأب پيير . مطبوعات «ديكليه دى بروار» ١٩٩٣ . تُرجم إلى الإسپانية والهولندية .

٤ ـ الأخلاق:

ـ الماركسية والأخلاق. المطبوعات الاجتماعية ١٩٤٨، تُرجم إلى البولندية والإيطالية.

ـ ما هى الأخلاق الماركسية. المطبوعات الاجتماعية ١٩٦٣، ترجم إلى الإسپانية (كوبا).

ـ الإنسانية الماركسية. المطبوعات الاجتماعية. تُرجم إلى الروسية والرومانية والمجرية والإسپانية (الأرچنتين).

٥ ـ علم الجمال:

ـ مسار آراجون: من السريالية إلى العالم الواقعى. جاليمار ١٩٦١. تُرجم إلى المجرية.

ـ من أجل واقعية للقرن العشرين. دراسة عن فيرنان ليجيه/ جراسيه ١٩٦٨.

ـ واقعية بلا ضفاف. دار جلون ١٩٦٤. تُرجم إلى ثلاث عشرة لغة: البولندية والمجرية واليونانية والإسپانية (الأرچنتين وكوبا) والهولندية والتشيكية واليوغسلافية واليابانية والرومانية والألمانية والتركية والبرتغالية والروسية (مقدمة لويس آراجون).

ـ لنرقص حياتنا. مطبوعات «سوى» ١٩٧٣. تُرجم إلى الإيطالية والبرتغالية والهولندية والإسپانية والفارسية واليونانية (مقدمة موريس بيجار).

ـ ٦٠ عملاً تبشّر بالمستقبل. مطبوعات «سكيرا» چينيف ١٩٧٤.

ـ الجامع : مرآة الإسلام . مطبوعات چاجوار، پاريس ١٩٨٥ . طبع باللغات الثلاث الفرنسية والعربية والإنجليزية . مع ١٥٠ صورة ملونة .

٦ـ حوار الحضارات:

ـ الإسهام التاريخى للحضارة العربية الإسلامية . الجزائر ١٩٤٦، تُرجم إلى العربية .

ـ المشكلة الصينية . مطبوعات سيجير ١٩٦٧ . تُرجم إلى التشيكية والإيطالية والصربية والبرتغالية (البرازيل) والألمانية والمجرية واليابانية .

ـ من أجل حوار الحضارات . مطبوعات دينويل، تُرجم إلى العربية والتركية والإسپانية والإيطالية والبرتغالية والألمانية .

ـ كيف يصبح الإنسان إنسانًا . مطبوعات إفريقيا الشابة ١٩٧٨ .

ـ وعود الإسلام . مطبوعات سوى ١٩٨١ . تُرجم إلى العربية والبرتغالية (البرازيل) والإندونيسية والإسپانية والتركية والألمانية .

ـ ملف إسرائيل . مطبوعات پاپيروس ١٩٨٣ . تُرجم إلى العربية والألمانية والإيطالية والإنجليزية، ونشرته دار الشروق بالإنجليزية والعربية .

ـ فلسطين أرض الرسالات الإلهية . مطبوعات إلبا تروس . پاريس ١٩٨٦ . تُرجم إلى العربية والإسپانية والإيطالية .

ـ الإسلام فى الغرب: قرطبة إحدى عواصم الفكر . مطبوعات هارتمان ١٩٨٧ . تُرجم إلى الإسپانية والعربية .

٧ـ أبحاث حول ابتكار مستقبل ذى وجه إنسانى:

ـ استعادة الأمل . مطبوعات جراسيه ١٩٧١ . ترجم إلى الهولندية والبرتغالية والإيطالية والإسپانية واليونانية .

ـ الخيار . مطبوعات روبير لافون ١٩٧٢ . تُرجم إلى الألمانية، الإسپانية (ڤنزويلا وإسپانيا)، الهولندية، الإنجليزية، الإيطالية، البرتغالية، السويدية واليونانية .

ـ **مشروع الأمل**. مطبوعات روبير لافون ١٩٧٦ . تُرجم إلى الإيطالية والبرتغالية والإسپانية والألمانية .

ـ **ما قولك لى أنا؟** رواية. مطبوعات سوى ١٩٧٨ ترجم إلى البرتغالية والعربية والإيطالية والهولندية والألمانية .

ـ **عهد الرجال**. مطبوعات روبير لافون. ترجم إلى الإيطالية والإسپانية والفنلندية واليونانية والبرتغالية (البرتغال والبرازيل) والألمانية والهولندية واليابانية والصربية .

ـ **نداء إلى الأحياء**. مطبوعات سوى ١٩٧٩ . تُرجم إلى الألمانية والدانماركية والبرتغالية والإسپانية والإيطالية والصربية والتركية والكاتالونية .

ـ **ما يزال فى الوقت متسع للعيش**. مطبوعات ستوك ١٩٨٠ . تُرجم إلى البرتغالية (لشبونة والبرازيل) .

ـ **من أجل مجىء المرأة**. مطبوعات ألبان ميشيل ١٩٨١ . تُرجم إلى البرتغالية والعربية والألمانية والإسپانية .

ـ **ترجمة القرن العشرين**. وصية روچيه جارودى الفلسفية. مطبوعات توجى، پاريس ١٩٨٥ . تُرجم إلى الإسپانية (مدريد) .

مقدمة الأب «شينو» .

ـ من أجل إسلام القرن العشرين. مطبوعات توجى، باريس ١٩٨٥. طبع باللغات الثلاث: الفرنسية والعربية والإنجليزية.

ـ فى معاكسة الليل (قصيدة). مقدمة «صلاح ستيتيه». مطبوعات لير، لوزان ١٩٨٧.

ـ جولتى فى القرن وحيداً (مذكرات). مطبوعات روبير لافون، باريس ١٩٨٩. ترجم إلى الإسبانية.

ـ إلى أين نذهب؟ . مطبوعات ميسيدور، باريس ١٩٩٠. تُرجم إلى الألمانية.

ـ حفارو القبور. مطبوعات أرشبيل باريس ١٩٩٢. نشرت دار الشروق طبعته العربية.

ـ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ـ نشرت دار الشروق طبعته العربية.

ـ محاكمة جارودى ـ نشرت دار الشروق طبعته العربية.

ـ محاكمة الصهيونية الإسرائيلية ـ نشرت دار الشروق طبعته العربية.

ـ أمريكا طليعة الانحطاط ـ وهو الكتاب الذى بين يديك.

ـ كيف نصنع المستقبل؟ ـ تحت الطبع لدى دار الشروق.

• ثانياً :دراسات حول أعمال روچيه جارودى:

• فى فرنسا :

ـ ر.ب. كويتيه: مسيحيون وماركسيون. حوار مع روچيه جارودى. مقدّمة الأب «شينو» ١٩٦٧.

- سيرج بيروتينو: جارودى. مطبوعات سيجير. ترجم إلى العربية.
- فلاسفة جميع الأزمنة، باريس ١٩٦٩. تُرجم إلى الإيطالية والبرتغالية والإسپانية.
- كلود جليمان: جارودى بقلم جارودى. مطبوعات المائدة المستديرة. پاريس ١٩٧٠. تُرجم إلى اليابانية.
- أندريه دوبليكس: اشتراكية روچيه جارودى والمشكلة الدينية. مطبوعات بريفاتولوز ١٩٧١.
- روبير جولون: المسار الروحى لروچيه جارودى. (أطروحة) جامعة ميتز ١٩٨٥.
- ر. جيرلاند: جارودى والفيلسوف ألتوسر: المطبوعات الجامعية الفرنسية پاريس ١٩٩٣.

• فى ألمانيا:

- وولف جانج جيجر: جارودى وحوار الحضارات. (أطروحة) جامعة فرانكفورت ١٩٨٤.

• فى بلچيكا:

- سالم بستروس: الاشتراكية والمسيحية وتحرر الإنسان فى فكر جارودى (أطروحة لاهوتيه). جامعة لوفان ١٩٧٦.
- مارك بيجوفيه: ماركسية القرن العشرين والحوار مع المسيحيين لدى جارودى (أطروحة). جامعة لبيج.

• فى مصر والعالم العربى:

ـ فكر جارودى بين المادية والإسلام ـ عادل التل . دار البنية . الأردن .

ـ روچيه جارودى من الإلحاد إلى الإيمان ـ رامى كلاوى . دار قتيبة ـ سوريا .

ـ روچيه جارودى والمشلكة الدينية ـ محسن المليجى . دار قتيبة ـ سوريا .

ـ الخلفية التاريخية لمحاكمة جارودى ـ صالح زهر الدين . المركز العربى للأبحاث والتوثيق . لبنان .

ـ أعلام الفكر العالمى (جزء جارودى) بيروتينو ـ ترجمة منى النجار ـ المؤسسة العربية للدراسات ماهر الكيالى . عمان ـ بيروت .

ـ روچيه جارودى حكاية الرجل الذى هز الصهيونية ـ د/ يحيى عريضى ـ دار الرشيد . سوريا .

ـ روچيه جارودى والإسلام. أمينة عماوى وعبدالعزيز شرف : مقدمة أحمد حسن الباقورى ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ١٩٨٤ . بالعربية .

ـ فكر جارودى منذ ١٩٨٠ : منال سلطان . (أطروحة) ، الإسكندرية ١٩٩٠ .

• فى إسپانيا :

ـ الأب أنتونيو ماتابوش : روچيه جارودى وبناء الإنسان . الأرض الجديدة ، برشلونة ١٩٧١ .

ــ جوزيه مـاريا أكـويرا أورا : مـوقف جـارودى من الـدين . (أطروحـة) جامعة فيتوريا ١٩٧٥ .

ــ سانـتياجـوس. رويت فيـرنانديز : الله والدين فى حياة روچيه جارودى وفكره . (أطروحة) كلية الفلسفة برشلونه ١٩٨٠ .

• فى الولايات المتحدة الأمريكية:

ــ روسـيل برادنر نوريس : الله ومـاركس المستـقـبل . حـوار مع روچيـه جارودى . مطبوعات فورتريس ١٩٧٤ .

• فى هولندا :

ــ شانتـال ليتيرم : الأغـراض الدينية فى عـمل جارودى . (أطروحة) لوفان ١٩٧٢ .

ــ س. سـميث : روچيـه جارودى والمسـيحـيون . كلية اللاهوت فى نيـميج ١٩٧٦ .

ـ أ. ڤـانوسـتـيـفن : الله هو الإنسـان . تطور روچيـه جـارودى . كليـة اللاهوت فى أمستردام .

ــ بوب ڤان جيسين . جارودى والمادية المسيحية . (أطروحة) ١٩٨٤ .

• فى إيطاليا :

ــ چيولانا مارتون: الاستلاب الدينى ونتـائجه الأخلاقية والفكرية لدى روچيه جارودى (أطروحة فلسفية)، جامعة بادو ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ .

ـ مارتا ليفا : فكر روچيه جارودى السياسى. (أطروحة فلسفية) جامعة بادور ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ .

ـ كوزيمو كوبلوى: التعددية والحوار فى فكر جارودى . (أطروحة فلسفية) جامعة ليتشى ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ .

ـ دينو مانجران : روچيه جارودى ومشكلة الحرية . كلية الاجتماع فى ترانت ١٩٧٤ .

ـ فرانسيسكا برانزيجالى: علم الجمال لدى جارودى . (أطروحة) جامعة بادو ١٩٧٤ .

ـ إيتالوا لينى : روچيه جارودى: ماركسى من القرن العشرين . (أطروحة) جامعة بيزا ١٩٧٤ .

ـ مانويل باجولا: الذاتية والتعالى فى فكر روچيه جارودى. (أطروحة) جامعة لاتيرانيسيس، روما ١٩٧٤ .

● فى البرتغال :

ـ م. ف. برانكو : حوار مع روچيه جارودى . لشبونة ١٩٧٩ .

● فى الاتحاد السوفيتى :

ـ موند جيان : المتردّى جارودى . مطبوعات أكاديمية العلوم . موسكو ١٩٧٣ .

• فى يوغوسلافيا :

ـ زدرافكو مونييك : أبحاث جارودى الفلسفية . مطبوعات سلوفو ، بلغراد ١٩٧٢ .

• فى زائير :

ـ لامبا تيبوا: الأسس الفلسفية لاشتراكية روچيه جارودى من أجل إعادة النظر فى الاشتراكية الإفريقية . (أطروحة) جامعة لوبو فياشى ١٩٨٢ .

أعلام فى الكتاب فى كلمات

المقدمة:

ڤِيْ، سيمون Weil, Simone

(١٩٠٩ـ ١٩٤٣) كاتبة ومفكرة فرنسية، عاملة فى مصانع رينو (١٩٣٤ ـ ١٩٣٥)، كتبت عن تجربتها كعاملة «الوضع العمالى». انضمت إلى ديجول فى لندن. من مؤلفاتها: الجاذبية والدلال، ١٩٤١ والتجذر.

الفصل الأول

بيرفيت، آلان Peyrefitte, Alain

(١٩٢٥ـ) كاتب صحفى فرنسى. نائب ديجولى ١٩٥٨، عضو شيوخ، كتب «حين تصحو الصين» و«كان هذا ديجول».

هرتزل، تيودور Herzl, Theodor

(١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) يهودى مجرى يتحدث الألمانية، اشتغل بالصحافة. أسس الحركة الصهيونية. كتب «دولة اليهود» ١٨٩٥.

بيريز، شمعون Pérès, Shimon

(١٩٢٣ـ) هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٤ من روسيا، عمل سكرتيراً للماباى، مدير عام وزارة الدفاع ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩، نائب وزير الدفاع ١٩٥٩ ـ ١٩٦٥، وزير الخارجية، وترأس الوزارة فى التسعينيات.

توينبى، أرنولد چوزيف Toynbe, Arnold Joseph

(١٨٨٩ - ١٩٧٥) مؤرخ واقتصادى وعالم بريطانى. درّس فى أكسفورد، اشتهر بدراسته لتاريخ الحضارات (١٢ مجلدا، ١٩٣٤ - ١٩٦١). فسر نهوض الحضارات وانهيارها بالتحدى والاستجابة. زار مصر عام ١٩٦٤، وألقى بها محاضرات، وناصر العرب ضد إسرائيل.

رابليه، فرانسوا Rabelais, François

(١٤٩٤ - ١٥٥٣) كاتب فرنسى ساخر. درس اللاهوت والطب واللغات القديمة. سخر من العقليات المتحجرة، وهاجم الحروب.

سيرڤانتس، ميجل دى Cervantès, Miguel de

(١٥٧٤ - ١٦١٦). كاتب إسپانى، ألف رائعته «دون كيشوت» عام ١٦٠٥. حارب فى البرتغال. سجن فى الجزائر من عام ١٥٧٥ إلى عام ١٥٨٠. وسجن أكثر من مرة لعدم سداده الديون. كتب أكثر من ٢٠ مسرحية لم يبق منها إلا مسرحيتان

نيتشه، فريدريك ڤيلهم Nietzsthe, Freidrik Wilhelm

(١٨٤٤ - ١٩٠٠) فيلسوف ألمانى، أستاذ أصول اللغة ١٨٦٩. هاجم الحضارة الغربية المسيحية، نادى بإرادة القوة، وارتقاء الإنسان روحاً وجسدا إلى السوپرمان. من كتبه: «مولد التراچيديا» ١٨٧٢، و«هكذا تحدث زرادشت» ١٨٨٣ و١٨٩١، و«إرادة القوة» ١٨٨٤، ١٨٨٨.

كنج، مارتن لوثر King, Martin Luther

(١٩٢٩ - ١٩٦٨) رجل دين أمريكى أسود، قاوم التفرقة العنصرية،

حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٤ . واغتيل يوم ٤ من إبريل عام ١٩٦٨ .

تشومسكى، نعوم Chomsky, Noam

عالم لغويات أمريكى - يهودى، له كتب سياسية مهمة، مثل : «ماذا يريد العم سام؟»، «والنظام العالمى الجديد. سابقا والآن»، «٥٠٠ عام والغزو مستمر» - «إعاقة الديمقراطية» - «ضبط الرعاع» - «الثالوث الخطر» - «القلة المزهرة والكثرة المتعبة» وغيرها .

مونرو، چيمس Monroes James

(١٧٥٨-١٨٣١) الرئيس الخامس للولايات المتحدة الأمريكية ١٨١٧ - ١٨٢٥ . تولى الخارجية ١٨١١ - ١٨١٧ والحربية ١٨١٤ و١٨١٥ . شجع استيطان الزنوج الأمريكيين فى ليبريا . أعلن مبدأ مونرو الذى يدعو للعزلة عن أوروپا فى ظاهره، بينما يدعو فى جوهره لرفض تدخل القوى الأوروپية فى الأمريكتين، لتخلص لنفوذ الولايات المتحدة .

كينان، چورچ Kennan, Georges

دپلوماسى أمريكى، ترأس مخططى وزارة الخارجية الأمريكية عقب الحرب العالمية الثانية .

الفصل الثانى

سميث، آدم Smith, Adam

(١٧٢٣ - ١٧٩٠) مفكر اقتصادى بريطانى . أسس المدرسة التقليدية فى علم الاقتصاد . من دعاة الحرية الاقتصادية، وأن المصلحة الفردية

تعبير عن المصلحة العامة . من مؤلفاته «ثروة الأمم» عام ١٧٧٦ ، والعنوان الأصلى : «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الشعوب» .

الفصل الثالث

دستويفسكى، فيودور ميخايلوفتش Dostoïevsky, Fiodor Michäelovich

(١٨٢١ ـ ١٨٨١)، روائى روسى عالمى . اتهم بالتآمر على الدولة . حكم عليه بالإعدام ثم جاءه العفو قبيل التنفيذ، نُفى إلى سيبيريا أربعة أعوام . كان مقامرا . ألف روايات عديدة، منها : مذكرات بيت الموتى ١٨٦١ ، ذكريات تحت تحت الأرض ١٨١٤ ، الجريمة والعقاب ١٨٦٦ ، والأخوة كارامازوف ١٨٧٩ .

إميرسون، رالف والدو Emerson, Ralfh Waldo

(١٨٠٣ ـ ١٨٨٢) فيلسوف أمريكى آمن بالطبيعة . نادى بالتعالى ، وشرح نظرته فى محاضرات بعنوان «الطبيعة» ١٨٣٦ .

ثورو، هنرى Thoreau, Henry

(١٨١٧ ـ ١٨٦٢) كاتب أمريكى قريب من أفكار إميرسون صديقه . رفع شعار العودة إلى الطبيعة . كتب «الحياة فى الغابة» عام ١٨٤٩ . و«العصيان المدنى»، ومذكراته فى ١٤ مجلدا، نشرت عام ١٩٠٥ .

لنكولن، أبراهام Lincoln, Abraham

(١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) زعيم أمريكى . قاوم الرق منذ كان محاميًا . انضم للحزب الجمهورى عام ١٨٥٦ انتخب رئيسا عام١٨٦٠ ونشبت الحرب

الأهلية وأصدر قانون منع الرق عام ١٨٦٣ وأعيد انتخابه عام ١٨٦٤ . وتم اغتياله على يد جنوبى كان ممثلاً يدعى بوث بعد انتصار الشماليين بخمسة أيام.

ديبوا ، ويليام إداورد بورجهاردت Dubois, William Edward Borghardt

(١٦٨٩ ـ ١٩٦٣) أمريكى أسود، أسس عام ١٩٠٩ الجمعية الوطنية للنهوض بالملونين. كتب «معركة السلام» عام ١٩٦٢ . استقر فى غانا منذ عام ١٩٦٠ .

موروا ، أندريه Maurois, André

(١٨٨٥ ـ ١٩٦٧) كاتب فرنسى ، اشتهر بكتابة سير الشخصيات ـ مثل شيلى وشاتوبريان ودزرائيلى وچورچ واشنطون وچورچ صاند. . وكتب تاريخ ـ انجلترا ١٩٣٧ ، وتاريخ فرنسا ١٩٤٧ . عضو الأكاديمية ١٩٣٨ .

شكسپير، ويليام Shakespeare, William

(١٥٦٤ ـ ١٦١٦) أعظم شعراء المسرح الإنجليزى. بدأ بالتدريس، ثم التمثيل، خاطب الشعب بمآسيه التاريخية العنيفة مثل: الملك لير، وماكبث، وريتشارد الثالث، وأنطونيو وكليوبترا، وكوميديا الأخطاء، وترويض النمرة، وروميو وچوليت، وحلم ليلة صيف، وتاجر البندقية، والعاصفة، وهنرى الثامن، وعطيل، وهاملت.

الثورة الفرنسية (١٧٨٩)

اشتعلت الثورة ضد الملك لويس ١٦ وحكم النبلاء، وأعلنت الجمعية الوطنية ١٧ من يونيو عام ١٧٨٩ ، وسقط الپاستيل ١٤ من يوليو،

وزحفت الجماهير إلى فرساى. صدر إعلان حقوق الإنسان والمواطن عام ١٧٩١ وبدأت حروب الثورة، وحكم الإرهاب. وأعدم روبيسبير عام ١٧٩٤، وقام بونابرت بانقلاب عام ١٧٩٩ وأقام القنصلية.

ثورة أكتوبر (١٩١٧) (الثورة البولشفية)

فى أعقاب إضرابات شهدتها مدينة بتروجراد فى مطلع مارس (بالتقويم القيصرى القديم) تشكلت حكومة مؤقتة وتنازل القيصر نيقولا الثانى. واستولى الحرس الأحمر على قصر الشتاء ففرت الحكومة المؤقتة، وتولى البلاشفة الحكم. واندلعت الثورة إبان الحرب العالمية الأولى.

توكفيل، ألكسى دى Toqueville, Alexis de

(١٨٠٥ - ١٨٥٩) سياسى فرنسى. كتب المرجع الكلاسيكى المعروف «الديمقراطية فى أمريكا» بعد رحلة إلى أمريكا. وزير خارجية فرنسا فى الجمهورية الثانية، عام ١٨٤٩ نشر كتاب «النظام القديم والثورة» ١٨٤١ عضو الأكاديمية منذ عام ١٨٤١.

كو كلوكس كلان Ku Klux Klan

تنظيم سرى أمريكى (١٨١٥). تجدد عام ١٨٦٥، تطرف فى الرجعية وكراهية الزنوج ومطاردة الشيوعية. كانوا يشنقون الزنوج على الأشجار.

تيتيان Titien

(١٤٩٠ - ١٥٧٦) مصور إيطالى من أشهر رسامى البندقية. جدد المثالية بواقعية حسّية. أثر على رمبراندت وروبنز وفيلاسكز.

أوجينى، الإمبراطورة Eugénie

(١٨٢٦ ـ ١٩٢٠) إمبراطورة فرنسا، زوجة نابليون الثالث. شاركت فى حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، لجأت إلى إنجلترا عام ١٨٧٠. بعد ثورة الكوميونه.

ڤان جوخ، ڤنسنت Van Gogh, Vincent

(١٨٥٣ ـ ١٨٩٠) رسام هولندى درس اللاهوت وعاش بين المناجم (١٨٧٨)، انتقل لباريس ١٨٨٦. له تجديدات فى اللون والتكوين. من مجموعة بونت أفين مع جوجان الذى سافر إلى هايتى وإميل برنار الذى سافر إلى مصر. انتحر فى ٢٧ من يوليو عام ١٨٩٠.

براك، چورچ Braque, Georges

(١٨٨٢ ـ ١٩٦٣) رسام فرنسى. من مؤسسى التكعيبية مع پيكاسو، ويفضل الطبيعة الصامتة.

پيكاسو، پابلو Picasso, Pablo

(١٨٨١ ـ ١٩٧٣) رسام ونحات إسپانى أندلسى الأصل. والده أستاذ للرسم، اشتهر فى پاريس، وله متحف باسمه هناك. مرحلته «الزرقاء» ١٩٠١ ـ ١٩٠٤، والمرحلة الوردية ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧. من أشهر لوحاته «جرنيكا» ١٩٣٧ عن مأساة الحرب الأهلية فى إسپانيا.

جريس، چوان Gris, Juan **اسمه الحقيقى چوزيه فيكتوريانو جونزاليس چوزيه** José victoriano Gonzáles

(١٨٨٧ ـ ١٩٢٧) مصور إسپانى مجدد، اهتم أكثر من سيزان وپيكاسو بالبناء الهندسى من مؤسسى التكعيبية مع براك وپيكاسو.

إنجر، چان أوجست دومينيك Ingres, Jean Auguste Dominique

(١٧٨٠ ـ ١٨٧٦) رسام فرنسى، تتلمذ على الرسام الفرنسى الكبير دافيد (١٧٤٨ ـ ١٨٢٥). تردد على إيطاليا مراراً وتأثر برافائيل. لوحاته فى متحف اللوڤر. بين الكلاسيكية والرومانسية.

پوسان، نيقولا Poussin, Nicolas

(١٥٩٤ ـ ١٦٦٥) رسام فرنسى كلاسيكى. طلب منه ريشيليو ولويس ١٨ رسم القاعة الرئيسية فى اللوڤر. أقام فى إيطاليا.

رينوار، پيير أوجست Renoir, Pierre Auguste

(١٨٤١ ـ ١٩١٩) رسام فرنسى من ألمع مؤسسى التأثيرية. أسس مع مانيه هذا الاتجاه الجديد. من أروع رسامى المرأة والطفل بألوان بهيجة تقوم على تحليل الضوء وإلغاء اللون الأسود.

چيورجونى زورزى Giorgione, Zorzi

(١٤٧٧/ ١٤٧٨ ـ ١٥١٠) رسام إيطالى اشتهر إلى جانب مايكل أنجلو ورافائيل، اهتم بعلاقة الإنسان والطبيعة فى عصر النهضة.

بوفيه، برنار Buffet, Bernard

(١٩٢٨ ـ) رسام فرنسى. فاز بجائزة النقاد عام ١٩٤٨. من المدرسة التعبيرية.

دوكام، مارسيل Duchamp, Marcel

(١٨٨٧ ـ ١٩٦٨) مصور أمريكى من أصل فرنسى، انتقل من التكعيبية إلى الحوشية. انضم عام ١٩١٣ إلى الحركة الدادية ثم السوريالية.

الفصل الرابع

هتلر، أدولف Hitler, Adolf

(١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) ديكتاتور ألمانيا النازية. عريف فى حرب ١٩١٤، قام بانقلاب فاشل عام ١٩٢٣. ترأس الحزب النازى الألمانى (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥). ولد فى النمسا. استغل الأزمة الاقتصادية والبطالة، وكتب سياسته فى «كفاحى» أثناء السجن، يدعو إلى تفوق الجنس الآرى على بقية الأجناس، وإلى المجال الحيوى لألمانيا للسيطرة على أوروبا. انتخب فى استفتاء عام ١٩٣٤. بدأ بضم النمسا عام ١٩٣٨، ثم السوديت من تشيكوسلوفاكيا (١٩٣٨) فاشتعلت الحرب العالمية الثانية، وشن حملة على الاتحاد السوفيتى، وفتح جبهتين مع شمال إفريقيا، وانتحر بعد الهزيمة مع إيفا براون، ٣٠ من إبريل عام ١٩٤٥.

باتيستا. ى زلديڤار Batista, Y Zaldivar

(١٩٠١ ـ ١٩٧٣) چنرال عسكرى ترأس جمهورية كوبا ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤، وفرض الديكتاتورية من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٩ حتى نجحت ثوزة كوبا بقيادة فيديل كاسترو.

الجـات Gatt

«الاتفاقية العامة للتعريفة والتجارة». إحدى الوكالات المتخصصة فى الأمم المتحدة، تأسست فى يناير عام ١٩٤٨ تنفيذاً لاتفاقية التجارة الدولية (أكتوبر ١٩٤٧).

بريخت، برتولد Brecht, Perthold

(١٨٩٨ ـ ١٩٥٦) شاعر ومسرحى ألمانى مجدد، من مسرحياته

الشهيرة: أوبرا الأربعة ملاليم (١٩٣٨)، والأم الشجاعة (١٩٤١) ودائرة الطباشير (١٩٤٦). أسس فى برلين الشرقية فرقة برلينر أنسامبل.

لافاييت، جيلبير Lafayette Gilbert

الماركيز، (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤)، شارك فى حرب الاستقلال الأمريكى، وعاون فى وصول لوى فيليب إلى الحكم، ثم عارضه.

كافور، كميل بنسو Cavour, Camille Benso

الكونت، (١٨١٠ ـ ١٨٦١). سياسى إيطالى. رئيس وزراء ساردينيا، عاون إيطاليا على الوحدة بقيادة غريبالدى التى تحققت بعد وفاته فى (يناير ١٨٧١). نائب منذ عام ١٨٤٨. تحالف مع فرنسا ضد النمسا.

جوبينو، جوزيف أرثر Gobineau, Joseph Arthur

(١٨١٦ ـ ١٨٨٢). الكونت، سياسى فرنسى له كتاب عن عدم تساوى الأجناس ١٨٥٢، استغلته النازية. وله روايات منها السجين المحظوظ ١٨٤٧، وحكايات آسيوية ١٨٧٦.

شمبرلين، جوزيف Chamberlain, Joseph

(١٨٣٦ ـ ١٩١٤) سياسى بريطانى وزير خارجية المحافظين، دعا للإمبريالية والحماية الجمركية.

جيزو، فرانسوا Guizot, François

(١٧٨٧ ـ ١٨٧٤) سياسى ومؤرخ فرنسى. شارك فى ثورة ١٨٣٠ وتولى وزارة الداخلية (١٨٣٠) ثم التعليم، وقرر قانون جيزو للتعليم

المجانى فى المدارس الابتدائية والخارجية (١٨٤٧). أثارت سياسته المحافظة ثورة عام ١٨٤٨ . اعتمد على كبار رجال الأعمال. عضو الأكاديمية (١٨٣٦). ألف تاريخ حضارة أوروبا الحديثة (١٨٢٩ - ١٨٣٢) وتاريخ ثورة إنجلترا (١٨٢٦ - ١٨٢٧).

عفلق، ميشيل

سياسى سورى ولد فى دمشق. درس فى السوربون ، اشتغل بالتدريس. أسس جريدة «البعث» ١٩٤٦ ، ثم حزب البعث ١٩٤٧ . من دعاة الوحدة العربية. ومن مؤلفاته «فى سبيل البعث» و«معركة المصير الواحد».

الفصل الخامس

ڤيّو، لوى Veuillot, Louis

(١٨١٣ - ١٨٨٣)، كاتب صحفى فرنسى، رئيس تحرير اليونيڤير.

الأب لاكوردير، هنرى Le Père Lacordaire, Henri

(١٨٠٢ - ١٨٦١) راهب انضم فى روما عام ١٨٣٩ إلى مذهب الدومينكان، ثم أسس جماعته فى فرنسا عام ١٨٤٣ . عضو الأكاديمية الفرنسية (١٨٦٠).

تيير، أدولف Thiers, Adolphe

(١٧٩٧ - ١٨٧٧)، سياسى مؤرخ فرنسى، نشر «تاريخ الثورة الفرنسية» ١٨٢٣ - ١٨٢٧ ، وزير داخلية (١٨٣٢ - ١٨٣٤)، ورئيس

حكومة (١٨٣٧ ـ ١٨٤٠)، ورئيس جمهورية فى أغسطس (١٨٧١)، وعارض كوميونة باريس (١٨٧٠)، عضو الأكاديمية الفرنسية (١٨٣٣).

بازين، فرانسوا أشيل Bazaine, François Achille

(١٨١١ ـ ١٨٨٨) ماريشال فرنسى. قاد حملة المكسيك وجيش اللورين، وهزم فى متز ٢٧ أكتوبر ١٨٧٠. وحكم عليه بالإعدام، وخفضت العقوبة للأشغال الشاقة، وهرب من السجن إلى إسپانيا.

كليمنصو، چورج Clemenceau, Georges

(١٨٤١ ـ ١٩٢٩) سياسى فرنسى، لقب بنمر السياسة نائب ١٨٧٥، رئيس وزراء (١٩٠٦ ـ ١٩٠٩)، منع الاضرابات واختلف مع الاشتراكيين، رئيس وزراء (١٩١٧ ـ ١٩٢٠) خلال الحرب العالمية الأولى، رشح نفسه لرئاسة الجمهورية عام ١٩٢٠، ولم ينجح، فاعتزل السياسة.

كريمييه، إسحق موسى Crémieux Isaac Mose

(١٧٩٦ ـ ١٨٨٠) محام وسياسى، منح المواطنة ليهود الجزائر، وهو وزير فى حكومة عام ١٨٧٠، حكومة «الدفاع الوطنى».

بابيف، فرانسوا نويل Babeuf, François Noil

(١٧٦٠ ـ ١٧٩٧)، ثورى فرنسى، دعا إلى الشيوعية بعد الثورة الفرنسية، وأعدم لمؤامرته على حكومة الديريكتوار، وسميت مؤامرته «مؤامرة المتساوين».

بلان، لوى Blanc, Louis

(١٨١١ ـ ١٨٨٢) اشتراكى ثورى فرنسى، ألف «تاريخ عشر سنوات» (١٨٤١) و«حق العمل» (١٨٤٨). شارك فى الحكومة المؤقتة ١٨٤٨. نفى إلى لندن من عام ١٨٤٧ إلى عام ١٨٧٠، انتخب فى الجمعية الوطنية ولم يستطع العودة.

لوى فيليب Louis - Philippe

(١٧٧٣ ـ ١٨٥٠). ملك فرنسا (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨).

أعلن ملكا بعد ثورة عام ١٨٣٠ على حكم الملك شارل العاشر، وقادت أزمة اقتصادية إلى ثورة عام ١٨٤٨ فأطاحت به. تولى جيزو الوزارة فى عهده من عام ١٨٤٠ إلى عام ١٨٤٨ وشهد عهده توسعا استعماريا وعدة اضطرابات داخلية بقيادة بلانكى وباربيس.

نابليون الثالث، شارل لوى: Napolion III, Charles Louis

(١٨٠٨ ـ ١٨٧٣) ابن لوى بونابرت وهورتانس دى بوهارنيه، عاش فى المهجر بعد انهيار الإمبراطورية الأولى. شارك فى الحركات الثورية بإيطاليا، حاول الانقلاب على لوى فيليب ١٨٣٦ و ١٨٤٠ وحكم عليه بالإعدام، وهرب للخارج. ثم عاد بعد ثورة ١٨٤٨، انتخب إمبراطوراً عام ١٨٥٢، توسع فى آسيا وفشل فى المكسيك. هزمته ألمانيا ١٨٧٠. لجأ لبريطانيا. تزوج الإمبراطورة «أوچينى».

الفصل السادس

القديس جريجوار دى نيس Saint Grégoire de Nysse

(٣٣٥ ـ ٣٩٠) رأس مجمع القسطنطينية. له رسائل وأشعار وخطب.

موبوتو، جوزيف ديزيريه Mobutu Joseph Desiré

كان رئيس الأركان فى عهد لومومبا، ثم قام بانقلاب عليه (١٩٦٠)، ديكتاتور الكونغو الرهيب، تسمى سيسيكو.

الفصل السابع

طاغور، رابندرانات Tagore, Rabindranath

(١٨٧٦ ـ ١٩٤١) كاتب ورسام وموسيقار وروائى وشاعر ، استلهم الروحانية الهندية، وكتب بالإنجليزية والبنغالية. حصل على جائزة نوبل للآداب (١٩١٣). درس القانون بإنجلترا (١٨٧٧). أسهم فى الحركة الوطنية. كتب خمسين مسرحية ومائة ديوان، ومجموعة ألحان، و٤٠ مجلدا فى القصص الخيالى، وكان يرسم أيضا. زار مصر وقابل طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق عام ١٩٢٢.

من أهم مؤلفاته: «الهلال» و«البستانى» و«دورة الربيع» ومن مسرحياته: «مكتب البريد» و«شيترا». ومن مؤلفاته «السادهاتا» و«القومية»، و«دين الإنسان». اهتم بالتعليم والريف.

الطاوية Taoisme

مذهب فلسفى ودينى صينى. كلمة «طاو» تعنى الطريق، أسسها لاوتسى للانسحاب من مغريات الحياة قرابة القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد. تمثل الطاوية مع الكونفوشيوسيه التيارين الفلسفيين الرئيسيين فى الصين.

بوذا Bouddha

(٥٦٠ـ ٤٨٠ ق . م)

«بوذ» فى السنسكريتية معناها التيقظ ، إنكار الذات ، وضبط العواطف ، وقتل الرغبة . ومن الحقائق التى أعلنها بوذا ، أن الوجود ألم مبعثه الرغبات والشهوات ، ويزول الألم لو توقفت الرغبة . تهدف البوذية إلى تخليص الإنسان من وجوده المقيد والوصول إلى النرڤانا . وقد هجر بوذا قصره بحثا عن الحقيقة وتأمل تحت شجرة للوصول إلى النرڤانا .

الفصل الثامن

تشوانج تسو Tchouang Tseu

(القرن الرابع ـ الثالث ق . م) فيلسوف صينى فسر فلسفة لاوتسى .

أفلاطون Platon

(٤٢٨ ـ ٣٤٨ أو ٣٤٧ ق . م) فيلسوف إغريقى تتلمذ على سقراط ، وكتب المحاورات وأسس الأكاديمية فى أثينا ، ووضع نظرية المثل لتأكيد المعقولات من المحسوسات ، أشهر محاوراته «الجمهورية» صورة للمدينة الفاضلة . زار مصر .

هيدجر، مارتن Heidegger, Martin

(١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) فيلسوف ألمانى . ألف «الوجود والزمان» . كان يميل للنازية ولكنه أثر فى فرنسا وخاصة فى سارتر . تتلمذ على هوسيرل . تحدث عن التعلق والعدم فى الالتزام .

الغزالى، أبو حامد محمد

(١٠٥٩ ـ ١١١١) فقيه ومتكلم، وفيلسوف وصوفى، ومصلح دينى واجتماعى. ولد بخراسان، درس الفقه والكلام والفلسفة وآثر الصوفية. دافع عن الإسلام فلقب بحجة الإسلام. من كتبه: «إلجام العوام عن علم الكلام»، و«مقاصد الفلسفة» و«تهافت الفلاسفة». وفى نقد الباطنية: «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية». ومن أهمها فى التصوف: «إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال».

ميشليه، چول Michelet, Jules

(١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) مؤرخ وكاتب وشاعر فرنسى، أستاذ فى الكوليچ دى فرانس. ألف «تاريخ فرنسا» ١٨٣٣ ـ ١٨٦٧ و«تاريخ الثورة». كتب أيضا «الشعب» و«المرأة» ومذكراته.

رينان، إرنيست Renan, Ernest

(١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) مؤرخ وفيلسوف فرنسى. مستشرق. ألف رسالة عن «ابن رشد والرشدية». أنكر على المسلمين فلسفتهم، زاعما أنها يونانية بالعربية، لأنه فرق باطلاً بين الجنس الآرى المبدع والجنس السامى الذى ينقل.

من أعماله «تاريخ نشأة المسيحية» (٨ أجزاء ١٨٦٣ ـ ١٨٨٣)، تاريخ شعب إسرائيل (١٨٨٧ ـ ١٨٩٣) وذكريات الطفولة والصبا (١٨٨٣). عضو الأكاديمية الفرنسية (١٨٧٨).

ڤرسينجيتوريكس Versingetorix

(٧٢ ـ ٤٦ ق. م) زعيم من بلاد الغال، انتخب عام ٥٢ ق. م. رئيسا

لقبائل الغال التى ثارت على الرومان. كان يحرق المحصولات لإجاعة الرومان. سجن ست سنوات فى روما ثم أعدم.

تاج محل Taj Mahal

مشهد بناه الإمبراطور المغولى شاه چهان من ١٦٣٠ إلى ١٦٥٢ تخليدا لذكرى زوجته التى أحبها ممتاز محل، بالقرب من بوابات مدينة أجرا، بالهند، وهو من روائع العمارة الإسلامية.

رامايانا Ramayana

أسطورة شعرية هندية، كتبها ثاليكى باللغة السنسكريتية، وتعنى حياة ومسيرة راما - فى القرن الخامس ق. م.

أخيل Achille

بطل إغريقى أسطورى، ابن تيديس، بطل الإلياذة أثناء حرب طرواده. قتل هيكتور انتقاما لمقتل صديقه، ولكنه أصيب فى كعبه فكان مقتله.

كلوڤيس - الأول Clovis I

(٤٦٥ - ٥١١) حارب القائد الرومانى سياجروس وسيطر على بلاد الغال، واعتنق المسيحية، وأصبح أول ملك كاثوليكى، من عام ٤٨١ أو ٤٨٢ إلى ٥١١.

دى ساسى، سيلڤستر De Sacy, Sylvestre

(١٧٥٧ - ١٨٣٧) أول أستاذ للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بپاريس، مدير المدرسة (١٨٢٤)، أستاذ فى الكوليچ دى فرانس، كان فى لجنة امتحان رفاعة الطهطاوى.

جوته، جوهان وولفجانج ڤون Goethe, Johann Wolfgang Von

(١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) شاعر وروائى ومسرحى ألمانى. درس القانون. تخلص من آلامه العاطفية بكتابه «آلام ڤرتر» (١٧٧٤). خدم دوق ساكس ڤيمر عندما كان رئيسًا للوزراء عشر سنوات، سافر إلى إيطاليا، وكتب «مراثى رومانية» سنة ١٧٨٨، صادق الشاعر شيلر، وكتب «فاوست» (١٨٠٨)، و« الشعر والحقيقة»، ترجمة ذاتية، و«ديوان الغرب والشرق» (١٨٠٩)، وأحب الشيرازى، وأنصف الحضارة الإسلامية.

ماك آرثر، دوجلاس Mac Arther Douglas

(١٨٨٠ ـ ١٩٦٤) قائد عسكرى أمريكى، قاد الحلفاء فى الشرق الأقصى فى الحرب العالمية الثانية، وقوات الأمم المتحدة فى كوريا (١٩٥٠). أعفى من منصبه على ١٩٥١.

ڤاليرى، پول Valéry, Paul

(١٨٧١ ـ ١٩٤٥) شاعر فرنسى اقترب فى پاريس عام ١٨٩٤ من مالارميه وأندريه جيد، ومن أشعاره الشهيرة. «القارب الفتى». اشتغل بوزارة الحربية (١٨٩٥)، ثم وكالة هاڤاس (١٩٠٠ ـ ١٩٢٢).

هيرودوت، هاليكارناس Herodote, Halicarnasse

(نحو ٤٨٤ ـ ٤٢٠ ق. م) مؤرخ يلقب بأبى التاريخ، له تسع كتب فى التاريخ القديم ولقاء الحضارتين الإغريقية والفارسية. زار مصر وكتب «مصر هبة النيل».

پلوتارك Plutarque

(قرابة ٥٠ ـ ١٢٥م) مؤرخ وأخلاقي إغريقي، درس في أثينا وسافر إلى مصر وروما. عاد لبلاده نحو عام ٩٦، وأصبح كاهن معبد أپوللو. أكثر المؤرخين القدامى شعبية منذ عهد النهضة. قارن بين لقاء الحضارتين اليونانية والرومانية في ٤٦ سيرة.

دون كيشوت Don Quichotte

بطل رواية سيرڤانتيس، نموذج للبراءة الساذجة التي تحاول إصلاح كل الأخطاء.

چينيه، چان Genet Jean

(١٩١٠ ـ) كاتب فرنسي. روائي ومسرحي موهوب. سجن لاتهامه بالسرقة. كتب عنه سارتر يوميات لص. ناصر قضايا العالم الثالث. وهاجم التفرقة العنصرية في أمريكا.

مورياك، فرانسوا Mauriac, François

(١٨٨٥ ـ ١٩٧٠) كاتب روائي فرنسي كتب: «عقدة الأفاعي» (١٩٣٢)، يوميات (١٩٥٨ ـ ١٩٦١)، ديجول (١٩٦٤). حصل على جائزة نوبل (١٩٥٢).

رولان، رومان Rolland, Romand

(١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) كاتب فرنسي. تميز بالوطنية والروح الإنسانية. حائز على جائزة نوبل (١٩١٥)، كتب عن «بتهوڤن» (١٩٠٣)،

و«تولستوى» (١٩١١) و«غاندى» (١٩٢٤). ألف قصة چان كريستوف ـ ١٠ مجلدات. (١٩٠٤ ـ ١٩٢٢). من مسرحياته «الذئاب» (١٨٩٨)، وفلسفته سلامية فى قصته «ما بعد المعركة» (١٩١٥).

مها بهاراتا Mahabharata

أسطورة سنسكريتية من ١٨ أغنية، وأكثر من ٢٠٠ ألف بيت من الشعر، ترجع إلى عصر الفيدا فى القرن الرابع، ومن النصوص الهندوسية المقدسة. أكثر الأجزاء شعبية الكتاب الرابع: بهاجاقاد چيتا.

كاتدرائية شارتر Cathédrale de Chartres

من الفن القوطى الذى ظهر فى فرنسا وإنجلترا. انتشر هذا الفن فى كاتدرائيات كثيرة بالمدن الفرنسية ومنها شارتر وپاريس ومتز. (١١٩٤ ـ ١٢٢٥) يرتفع برجها ١٠٤ أمتار.

زاباتا، إيمليانو Zapata, Emiliano

(١٨٨٠ ـ ١٩١٩) قائد ثورة المكسيك ١٩١٠، سيطر على جنوب المكسيك، ووزع الأرض على الفلاحين. مات مقتولاً.

ميشيل آنج (مايكل أنجلو) Michel AngeMichelangelo, uonarote

(١٤٧٥ ـ ١٥٦٤) رسام ونحات ومهندس وشاعر إيطالى. فلورنسى عبقرى عصر النهضة، رسومه الرائعة فى فلورنسه وروما، وله أيضًا أشعار جميلة.

أوپادنشاد Upanishad

شروح وتفسيرات فى عصور متوالية لتعاليم الفيدا الهندية. لها طابع يجمع بين الحكمة الفلسفية والأسطورة. والمبدأ الخلاق فى العالم هو «البراهما»، أو الإله الخالق والطبيعة معا، ووسيلة عودة الإنسان إلى البراهما هى التأمل الروحى والانصراف عن المشاغل المادية.

غاندى، موهنداس كرمشند Ghandi, Mohandes

(١٨٦٩ ـ ١٩٤٨) المهاتما غاندى. زعيم وطنى هندى. محام سافر إلى جنوب إفريقيا للدفاع عن حقوق الهنود. عاد للهند عام ١٩١٥، نظم المقاومة ضد الاحتلال البريطانى. ترأس حزب المؤتمر الوطنى. لقب بالمهاتما أى «الروح الكبير». دعا للمقاومة السلمية للاحتلال. وحشد الملايين لكسر احتكار شركات الملح الإنجليزية ودعا إلى غزل الثياب بالمغزل اليدوى لمقاطعة البضائع البريطانية، وله مقولة شهيرة فى ذلك «اغزلوا كرامتكم»، تُوج كفاحه الشاق والطويل بالاستقلال عام ١٩٤٧. اغتاله هندوسى متعصب يوم ٣٠ من يناير عام ١٩٤٨.

الفصل العاشر

هيروشيما Hiroshima

ميناء يابانى ، ألقيت عليه أثناء الحرب العالمية الثانية أول قنبلة ذرية يوم ٦ من أغسطس عام ١٩٤٥، ودمرت ٩٠٪ من المدينة، وقتلت ١٣٠ ـ ١٦٠ ألفا من السكان.

هوامش الكتاب

١ ـ جدول «مكتب فرنسا الحرة» ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٥، لندن، ١٩٤٣ .

٢ ـ هذا الحديث يقصد فظائع النازية فى أوروبا، ولكن هناك الفظائع التى ارتكبت فى سطيف بالجزائر عام ١٩٤٥، وفى هايفونج عام ١٩٤٦، وفى مدغشقر عامى ١٩٤٦و ١٩٤٧، وفى الدار البيضاء عام ١٩٤٧، ثم تلك التى ارتكبت فى الكوت ديفوار عام ١٩٥٠، والمذابح وجرائم التعذيب التى اقترفتها جيوش الجمهورية الفرنسية لم تتوقف (انظر إيف بيمو فى كتاب «المذابح الاستعمارية»، نشر لاديكفورت ١٩٩٤).

٣ ـ هنتنجتون: « صدام الحضارات» مجلة كومنتير العدد ٦٦، ١٩٩٤ .

٤ ـ تيودور هرتزل «الدولة اليهودية»، مكتبة ليبشوتز، ١٩٢٦، ص ٩٥ .

٥ ـ قدمت النص العبرى الأصلى والترجمة فى كتابى: « فلسطين أرض الرسالات المقدسة». منشورات ألباتروس، ١٩٨٦ (ص ٣١٥ إلى ٣١٨ و ٣٧٧ إلى ٣٨٧).

٦ ـ جمعية أمم جنوب شرقى آسيا تنشئ «سوقًا مشتركة» بين بلاد عديدة منها ماليزيا، إندونيسيا، سنغافورة، بروناى، تايلاند، بورما،

ڤيتنام، لوس والفلپين. وقد ردت على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء الـAPEC بالاشتراك مع أستراليا ونيوزيلندة.

٧ـ انظر كتاب الجغرافيا السياسية المهم للچنرال جالوا: «دماء البترول: البوسنة» (منشورات: عصر الإنسان ١٩٩٦).

٨ـ بين عامى ١٩٩٢ و١٩٩٥ طبقا لدراسة وزارة الصحة، زاد تعاطى المخدرات بين المراهقين من ١٢ إلى ١٧ سنة بنسبة ٧٨٪. كما زاد استهلاك حبوب الهلوسة مثل LSD. بنسبة ١٨٣٪.

٩ـ من الملحوظ ارتفاع نسبة المشتغلات فى الدعارة عقب عودة الرأسمالية إلى شرقى أوروپا.

١٠ـ انظر نعوم تشومسكى: «الاقتصاد السياسى لحقوق الإنسان» «العلاقة بين واشنطون والفاشية»، نشر ألبان ميشيل.

١١ـ خصصت المدرسة العسكرية للأمريكيين، لتدريب ضباط الجيش والشرطة فى بلاد أمريكا اللاتينية المتحالفة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مقرها فى فورت بيننج (ولاية چورچيا)، وتتطلب مرانا قاسيًا. واعترفت وزارة الدفاع الأمريكية بأن الكتب التعليمية المستخدمة فى المدرسة كانت تحبذ ما بين عامى ١٩٨٢ و ١٩٩١، ممارسة التعذيب والتصفية الجسدية والابتزاز، وكل أنواع العنف لاستخلاص المعلومات من المعارضين، والمناضلين السياسين أو guérilleros.

وعلى الضابط ألا يغفل عن تقديم الهدايا مقابل أى معلومات تؤدى إلى اعتقال أو أسر أو قتل رجل العصابات الذى تعتبره الحكومة الشرعية مجرما .

(مقال فى جريدة «الموند» ٢ من سبتمبر عام ١٩٩٦: بعنوان: دروس فى التعذيب والابتزاز فى مدرسة الأمريكيين)

١٢ ـ انظر الملحق ، إذ يعالج أناتول فرانس تلك المعادلة الساخرة : الناس والدولارات .

١٣ ـ سوزان چورچ : «حتى الرقبة» ، منشورات لاديكوڤرت ، ص ٣٩ .

١٤ ـ عندما ترجم . . إدجار ألان بو ، ندد بودلير بـ «بلد الثعابين» والبربرية التى يضيئها الغاز . وقد لاحظ أوسكار وايلد بفكاهة أن أمريكا هى أول دولة تنتقل مباشرة من البربرية إلى الانحطاط .

١٥ ـ انظر إدواردو جاليانو : شرايين أمريكيا اللاتينية المفتوحة (بلون ، ١٩٨١) وأيضا بوتستو فيدال : منشورات جامعة برازيليا ، ١٩٨٨ .

١٦ ـ انظر ، جريدة الموند ، ١١ أكتوبر ١٩٩٦ ، عن فكرة أمريكا لتكوين قوة «إنسانية» إفريقية .

١٧ ـ الحاخام أ . كوهين ، التلمود . منشورات بايو ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٩ .

١٨ ـ «مسيح بولس ليس يسوع» ، انظر كتابىّ : «هل نحتاج إلى إله» منشورات دى برووير ١٩٩٣ ، و«نحو حرب الديانات» ، منشورات ديسكليه بروڤيه ١٩٩٥) .

١٩ ـ «يســوع المســيح المخلّص»، منشــورات دو ســرف، ١٩٧٤، ص ٢٢٧.

٢٠ ـ روزبهــان الشــيــرازى: «حــديقــة المخلصين فى الحب»، تـرجـمـة كوربان، منشورات ڤيرديبه، ١٩٩١، ص ١٦٨.

٢١ ـ المصدر: تقرير UNDP، عام ١٩٩٢.

٢٢ ـ المصدر: تقرير UNDP، عام ١٩٩٢.

المحتويـــات

الصفحة

صدر للمفكر العالمى
روچيه جارودى من دار الشروق

١ ـ ملف إسرائيل ـ صدر بالعربية والإنجليزية، ويُعاد طبعه بالعربية .

٢ ـ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ـ ترجمة محمد هشام، تقديم محمد حسنين هيكل .

٣ ـ محاكمة جارودى ـ ترجمة عزة صبحى، تقديم عادل المعلم .

٤ ـ حفارو القبور ـ ترجمة عزة صبحى .

٥ ـ محاكمة الصهيونية الإسرائيلية ـ ترجمة ليلى حافظ، تقديم عادل المعلم .

٦ ـ أمريكا طليعة الانحطاط ـ ترجمة عمرو كامل زهيرى، تقديم كامل زهيرى .

ويصدر تباعًا من دار الشروق .

٧ ـ كيف نصنع المستقبل؟

٨ ـ شهادتى على القرن العشرين .

٩ ـ ملف إسرائيل .

١٠ ـ وعود الإسلام .

١١ ـ حوار الحضارات .

١٢ ـ الجامع مرآة الإسلام .

رقم الإيداع ٩٩/٥٩٠٢
الترقيم الدولى X - 0547 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

روجيه جارودي

أمريكا طليعة الانحطاط

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)